

الفصل الثاني

وصف المحبة في الكتاب والسنة

وتأثيرها في العلاقات

المبحث الأول: وصف محاب الله و مساخطه

المطلب الأول: محاب الله

المطلب الثاني: مساخط الله

المبحث الثاني: تأثير المحبة في العلاقات

المطلب الأول: الصلات الحميدة

المطلب الثاني: الصلات الذميمة

الفصل الثاني

وصف المحبة في الكتاب والسنة

وتأثيرها في العلاقات

المبحث الأول

وصف محاب الله ومساخطه في الكتاب والسنة

إن وصف محاب الله ومساخطه تعني وصف الدين كله جملة أو تفصيلاً، وخير الأديان وأكملها دين الإسلام، وهو الدين المرتضى من الله تعالى للعالمين وهو القائل في محكم التنزيل: (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)^(١) وعلى هذا سنفصل بمشيئة الله عز وجل في هذا المبحث المحاب والمساخط حيناً ونجمل أحياناً، وفق ما تقتضيه المادة العلمية وأصول تحليل الدراسة. ومن المعلوم في الدين بالضرورة أن محاب الله ومساخطه يقوم عليها مصير الإنسان في الدار الآخرة من الجنة والنار، والعلم بهذه المحاب والمساخط من الواجبات الشرعية والعقلية، التي يستلزم على كل إنسان أن يتعلمها، ويسعى لتحقيق معانيها ومقاصدها، بموجب أوامر ربنا ونواهيه في الكتاب والسنة، وحينها يدرك السعادة، فقد أمر الله المؤمنين بما يحفظ عليهم أمر دينهم، فقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ)^(٢) وقال الله تعالى في حق العصاة المعاندين: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)^(٣). وقد فصلت السنة النبوية محاب الله ومساخطه في كل أصول الدين وفروعه، وأرشدت إلى ما يقرب إلى الله تعالى ويبعد عن سخطه في دقيق الأمور وجليها، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ وَثَلَاثَةٌ يُغْضِبُهُمُ اللَّهُ، فَأَمَّا الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمُ بِاللَّهِ، وَلَمْ يَسْأَلَهُمْ لِقَابَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَمَنْعُوهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْيَانِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللَّهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ. وَقَوْمٌ سَارُوا لِبَيْتِهِمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدِلُ بِهِ فَوَضَعُوا رُؤُسَهُمْ فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ. وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُغْضِبُهُمُ اللَّهُ: الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ، وَالْغَنِيُّ الظُّلُمُ»^(٤). وقال الله تعالى: (أَفَمِنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٢) سورة محمد: ٣٣.

(٣) سورة محمد: ٢٨.

(٤) انظر: سنن النسائي - كتاب قيام الليل وتطوع النهار - باب فضل قيام الليل في السفر، حديث رقم: ٢٣٦٢ (٣/ ٦٧) ضعفه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على صحيح ابن حبان: حديث صحيح. وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَمَا أَوْلَاهُ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٣٦﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ بِصِرِّهِمْ بَصِيرٌ ۖ يَمَّا يَعْمَلُونَ ^(١) من دلالة الآية الواضحة أن الاتباع أو الإعراض هما الطريقتان الموصلتان إلى إحدى النتيجتين: المحبة من الله أو السخط منه، ويمكن أن نعرفهما على الوجه الشرعي العام وفق ما يلي :

محاب الله: هي ما يرضاه الله تعالى ويحبه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة القائمة على الإخلاص والتوحيد ومتابعة سنة النبي ﷺ.

ومساخط الله: هي ما يبغضه الله تعالى ويسخطه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة القائمة على الشرك أو الكفر أو الفسوق أو العصيان والإعراض عن محابه.

أصل السخط من (سخط) أورد الجوهري في الصحاح: (السُّخْطُ والسَّخَطُ: خلاف الرضا. وقد سَخَطَ، أي غضب، فهو سَاخِطٌ. وَأَسْخَطَهُ، أي أغضبه. ويقال: تَسَخَّطَ عطاءه، أي استقله ولم يقع منه مَوْقِعاً) ^(٢) وفي لسان العرب ابن منظور: (السُّخْطُ والسَّخَطُ الكراهية للشيء وعدم الرضا به) ^(٣)

والمساخط هي المبالغ المنافية للمحبة، وقال ابن فارس في معجمه ^(٤): (الباء والغين والضاد أصل واحد، وهو يدل على خلاف الحب. يقال أَبْغَضْتُهُ أَبْغَضَةً).

يسير الإنسان في هذه الحياة على طريقين نحو المصير المحتوم - الجنة والنار - تحفه الملائكة بالخير والسكينة ليخرج بمحاب الله من الظلمات إلى النور، وتؤزّه الشياطين بالشر ليخرج بمساخط الله من النور إلى الظلمات، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ يَعْنِي مَنْ بَيْتِهِ إِلَّا بِيَدِهِ رَايَتَانِ رَايَةُ بَيْدِ مَلَكٍ، وَرَايَةُ بَيْدِ شَيْطَانٍ فَإِنْ خَرَجَ لَمْ يُحِبَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اتَّبِعَهُ الْمَلَكُ بِرَايَتِهِ فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ وَإِنْ خَرَجَ لَمْ يُسَخِّطْ اللَّهُ اتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ» ^(٥).

ومن أجل محاور البحث اللغوية الكثيرة في هذا المبحث وغيره، ونظراً لأهمية التأصيل اللغوي في فهم المعاني لمحاب الله و مساخطه وإدراك المقاصد الشرعية من خلال البيان الموسع فقد اعتمدت في دراستي هذه على ثلاثة من المراجع اللغوية العربية، هي عليها الاعتماد في غالب الدراسات العلمية الحديثة واكتفيت بتوثيقها

(١) سورة آل عمران: ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) الصحاح تاج العربية وصحاح اللغة، أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ٣، ص: ٣٦٧.

(٣) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، بيروت: دار صادر، ط ١، مادة (سخط).

(٤) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، مادة (بغض)، ج ١، ص: ٢٧٣.

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ٨٢٨٦ (١٤ / ٤١) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده حسن.

هنا في أول هذا الفصل منعاً للتكرار المخل وهي: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، والصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور، وقد جعلت أصل الكلمة بين قوسين () في محل ذكرها حال التعريف اللغوي؛ حتى يسهل الرجوع إليها في المصادر الموثقة هنا، وجعلت المعنى الصحيح في مقاصد الشرع منفصلاً من خلال شروح السنة وأقوال العلماء والمفسرين، وأشارت إلى ما ترجح لي صوابه في كل فقرة أو جزء من هذا البحث، والذي يتضمن مطلبين: مطلباً في محاب الله، ومطلباً في مساخطه، الواردة بلفظ الحب الصريح في الكتاب والسنة.

المطلب الأول

محاب الله في الكتاب والسنة

إن ما يحبه الله ويرضاه تقوم عليه سعادة الإنسان، وهو مطلب نجاة من شرك الشيطان وشركه في مرحلة الابتلاء التي يمر بها الناس على هذه الأرض، وإن السبيل الأوضح لمعرفة ما يحبه الله ويرضاه في الإسلام، كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهما مصدران شريعة الإسلام السمحة، الخاتمة لسائر الرسالات، وتوصف محاب الله فيهما بالتوحيد والحق والطيبات، ومحاسن الأخلاق وفضائل الأعمال والأقوال، وكل المأمورات محاب لله يقوم عليها صلاح الدنيا والدين، ومما يجب معرفته أن محاب الله لا تتلقى إلا من طريق الشرع ولا تحصل إلا بمتابعة الشارع، قال ابن القيم رحمه الله: (وللعبد في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب، والمحبة، والعبودية، والتوكل، والإنابة، والتسليم، والتفويض، والخوف والرجاء، وصدق اللجوء. وهجرة إلى رسوله ﷺ في حركاته وسكناته، الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفضيل محاب الله، ومراضاته، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه^(١)). وعلى هذا الوصف الإجمالي فقد قمت بتصنيف محاب الله الواردة في الكتاب والسنة بلفظ الحب وفق الذكر الصريح لها، إلى قسمين:

القسم الأول

محاب الله الواردة بلفظ الحب الصريح في القرآن الكريم

- (١) الإحسان، والله يحب المحسنين. (٢) القسط، إن يحب المقسطين. (٣) التقوى، إن يحب المتقين.
- (٤) التوبة، إن يحب التوابين. (٥) الطهر، والله يحب المطهرين. (٦) الصبر، والله يحب الصابرين.
- (٧) التوكل، وإن الله يحب المتوكلين (٨) القتال في سبيل الله، وإن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا.

القسم الثاني

محاب الله الواردة بلفظ الحب الصريح في السنة النبوية

أولاً: محاب الله العقدية الواردة في السنة بلفظ الحب

- (١) الحنيفية السمحة
- (٢) أصحاب النبي ﷺ
- (٣) المحبة في الله
- (٤) العبد التقي الغني الخفي
- (٥) أحب الأسماء إلى الله

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الدمام: دار ابن القيم، ط ٢،

ثانيا: محاب الله العبادية الواردة في السنة بلفظ الحب

- ١) أحب الأعمال الصالحة إلى الله ووقتها
- ٢) الوتر
- ٣) أحب الكلام إلى الله
- ٤) سؤال الله
- ٥) قطرتان وأثران في سبيل الله .
- ٦) العطاس وحمد الله بعده
- ٧) الأخذ بالرخص وإتيان العزائم.

ثالثا: محاب الله الأخلاقية الواردة في السنة بلفظ الحب

- ١) مكارم الأخلاق (حسن الخلق)
- ٢) الحياء والستر.
- ٣) العفو
- ٤) الجمال.
- ٥) المدح والعذروالغيرة والخيلاء

رابعا: محاب الله العملية الواردة في السنة بلفظ الحب

- ١) الرفق
- ٢) رؤية أثر النعمة على العبد
- ٣) اتقان العمل.
- ٤) سماحة البيع والشراء والقضاء

القسم الأول

محاب الله الواردة بلفظ الحب في القرآن الكريم

(١) الإحسان

الإحسان في اللغة:

الإحسان في اللغة من (حسن) وهو الإتيان بما هو حسن، والحُسْنُ: نقيض القُبْح؛ والجمع مَحاسِنُ، والإحسان مصدر من: أحسن يحسن إحساناً. وقال الراغب الأصفهاني: فعل ما ينبغي فعله من المعروف، وهو ضربان^(١):

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً.

وفي معجم مقاييس اللغة^(٢) لابن فارس: الحاء والسين والنون أصل واحد. فالْحُسْنُ ضدُّ القُبْح. يقال رجلٌ حسنٌ وامرأةٌ حسناءٌ وحُسَانَةٌ.

الإحسان في الاصطلاح الشرعي:

الإحسان في الشرع عرفه العلماء بما ورد في السنة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »)^(٣). وهذا الحديث أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع الكلم التي أوتيتها النبي ﷺ ومما يجب إثباته هنا أن الإحسان في حق الله تعالى يكون بحسن عبادته وذلك على مرتبتين الأولى (كأنك ترى الله) وهي العمل؛ لبلوغ الكمال والحسن في العبادة، والثانية (أن تعلم أن الله يراك) وهي تحسين العبادة باستحضار اليقين واستشعار رؤية الله للعبد. أما الإحسان في حق المخلوقين فيكون ببذل النفع الديني والدنيوي لهم على مبلغ الإخلاص واحتساب ذلك البذل من العبادة وتحقيق مرتبة الإحسان فيها.

(١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاي، مصر: شركة مكتبة الباي والخلي، ١٣٨١هـ، ص: ١١٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩هـ، مادة (حسن)، ج ٢، ص: ٥٧.

(٣) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر و علامة الساعة، حديث رقم: ١٠٢ (١/ ٢٨).

وعَدَّ العلماء^(١) الإحسان المرتبة الثالثة وهي الأعلى من مراتب الدين: الإسلام والإيمان والإحسان. والتحسين والتقبيح عند أهل السنة والجماعة، مرتبط بالمصالح والمفاسد وفق مقتضيات العقل وأدلة الشرع، ويفسر الإحسان بالإخلاص، والإخلاص إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن، ومنه كمال المتابعة، وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، وقد وصف شيخ الإسلام رحمه الله الإحسان بفعل المأمور، سواء كان الإحسان إلى الناس أو النفس، وجعل أعظمه الإيمان بالله وتوحيده، قال: "فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان"^(٢) ويرتفع الإحسان عن العدل وقد أمر الله تعالى بهما معاً. والإحسان فوق العدل حيث أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له. والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه وهنا فضل، ويأخذ أقل مما له وهنا فضل، فالإحسان زائد على العدل فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع. والإحسان في حق الله تعالى وصف لازم له تقديس سبحانه، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، والله محسن يحب المحسنين من عباده: واسم المحسن جل جلاله وتقدست أسماؤه، لم يرد في القرآن اسماً وإنما ورد فعلاً، وقد أثبتته المحققون عن طريق السنة من عدة أحاديث نبوية وأقوال السلف، ومن كتب التحقيق في أسماء الله الحسنى المعاصرة كتاب (معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى)^(٣). وهو محسن سبحانه ويحب المحسنين، وهنا أعرض الآيات الواردة في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح في محبة الله للمحسنين:

١ - محبة الله للمحسنين المنفقين في سبيله الناجين باتباع أمره:

قال الله تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)^(٤)، ذكر أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية روايتين^(٥):

(١) شرح ثلاثة الأصول، محمد بن صالح العثيمين، دار الشريعة للنشر، ط ٤، ١٤٢٤هـ، ص: ١١٨.

(٢) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحارثي، تحقيق: أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، ط ٣، ١٤٢٦هـ، ج ١٥، ص: ٢٨.

(٣) محمد بن خليفة بن علي التميمي، الرياض: أضواء السلف، ط ١، ١٤١٩هـ، ص: ١٦٥ - ١٦٦. قال ("الحسن دليله: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِذَا حَكَمْتُمْ فَأَعْدِلُوا وَإِذَا قُتِلْتُمْ فَأَحْسِنُوا، فَإِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ". أخرجه ابن أبي عاصم في الدييات ص ٥٦، وابن عدي في الكامل ٢/ ٢١٤٥، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/ ١١٣، والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد للهيثمي ٥/ ١٩٧. وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وكذا قال المناوي في الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي ١/ ٩٠، والألباني في السلسلة ١/ ٧٦١. وحديث: شداد بن أوس رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ اثنتين، قال: "إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ، يُحِبُّ الْإِحْسَانَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قُتِلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقَتْلَ...". رواه عبد الرزاق - في المصنف ٤/ ٤٩٢، ومن طريقه الطبراني في الكبير ٧/ ٣٣٢، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ١/ ١٢٩، والإرواء ٧/ ٢٩٣. وانظر: بحث المحسن في مجلة البحوث الإسلامية العدد ٣٦ ص ٣٦٣ للدكتور عبد الرزاق العباد. من ذكره: ١- جَمْعُ الْقُرْطُبِيِّ ٢- ابْنُ الْقَيْمِ ٣- العثيمين)

(٤) سورة البقرة: ١٩٥.

(٥) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٤هـ، ج ١، ص: ٢٠٣.

الأولى: أن النبي ﷺ لما أمر بالتجهز إلى مكة، قال ناسٌ من الأعراب: يا رسول الله! بماذا نتجهز؟ فو الله مالنا زاد ولا مال! فترلت. قاله ابن عباس.

الثانية: أن الأنصار كانوا ينفقون ويتصدقون، فأصابته سنة، فأمسكوا؛ فترلت، قاله أبو جبرة بن الضحاك^(١).

وفسرت الهلكة الحذر منها بعدة معان: أحدها: أنها ترك النفقة في سبيل الله، والثاني: أنها القعود عن الغزو شغلاً بالمال، والثالث: أنها الانهماك في المعاصي والقنوط من رحمة الله، والرابع: أنها عذاب الله. وقال القرطبي: (وقال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجهور الناس: المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفقه. وإلى هذا المعنى ذهب البخاري إذ لم يذكر غيره، والله أعلم)^(٢)

وفسر الأمر بالإحسان في الآية على ثلاثة أقوال^(٣):

أحدها: أحسنوا الإنفاق، وهو قول أصحاب من رأى أن سبب نزول الآية في أن النبي ﷺ لما أمر بالتجهز إلى مكة، قال ناسٌ من الأعراب: يا رسول الله! بماذا نتجهز؟ فو الله مالنا زاد ولا مال! فترلت.

والثاني: أحسنوا الظن بالله، قاله عكرمة^(٤)، وهما فيمن رأى أن الهلكة المنهي عنها تعني: القنوط.

والثالث: أن معناه: أدوا الفرائض.

قال الإمام الطبري في تفسير الآية: (فإذا كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: "ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكة" ولم يكن الله عز وجلّ خصّ منها شيئاً دون شيء، فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله نهي عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا، والاستسلام للهلكة - وهي العذاب - بترك ما لزمنا من فرائضه،

(١) أبو جبرة بن الضحاك بن خليفة الأنصاري الأشعري أخو ثابت بن الضحاك، ولد بعد الهجرة قال بعضهم له صحة، وقال بعضهم ليست له صحة، وهو كوفي روى عنه قيس بن أبي حازم والشعبي وابنه محمود ابن أبي جبرة. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٢ / ١٥). كتب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكره ابن خياط في تاريخه، قال: وكتبه على ديوان الكوفة أبو جبرة بن الضحاك الأنصاري. وانظر: تاريخ ابن خياط (١ / ٣٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ٢، ص: ٣٦٢.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ٥٩٥.

(٤) عكرمة مولى ابن عباس الهاشمي القرشي، أصله بربري من أهل المغرب، مقرر مع طاوس وسعيد بن جبير، كنيته أبو عبد الله من علماء الناس في زمانه بالقرآن والفقه. انظر رجال صحيح مسلم لأبي بكر الأصبهاني (٢ / ١٠٩). عن جابر بن زيد، قال: هذا عكرمة مولى ابن عباس هذا أعلم الناس، وقال أبو نعيم مات سنة سبع ومئة. انظر التاريخ الأوسط للبخاري (٣ / ١١٣). أحد أوعية العلم، تكلم فيه لرأيه لا لحفظه فاقم برأي الخوارج. وقد وثقه جماعة، واعتمده البخاري وأما مسلم فتجنبه، وروى له قليلا مقرونا بغيره، وأعرض عنه مالك و تحايده إلا في حديث أو حديثين. وقال قتادة: عكرمة أعلم الناس بالتفسير. انظر ميزان الاعتدال للذهبي (٣ / ٩٣).

فغيرُ جائز لأحد منا الدخول في شيء يكرهه الله منا، مما نستوجب بدخولنا فيه عذابه. غير أن الأمر وإن كان كذلك، فإن الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيها، فتهلكوا باستحقاقكم - بترككم ذلك - عذابي^(١).

٢) محبة الله للمحسنين المتقين المنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس: قال الله تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ^(٢)، أورد القرطبي في تفسير هذه الآية أربع^(٣) مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ) هذا من صفة المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وظاهر الآية أنها مدح بفعل المندوب إليه.

وقيل في السراء: اليسر والرخاء والصحة وفي الحياة وفي العرس والولائم، وقيل فيها النفقة التي تسركم مثل النفقة على الأولاد والقربات والضيافة والإهداء.

وقيل في الضراء: العسر والشدة والمرض والوصية لما بعد الموت، وفي النوائب والمآثم وقيل النفقة التي تضركم، مثل النفقة على الأعداء أو كل نفقة تضر.

المسألة الثانية: قال تعالى: (وَالْكََاظِمِينَ الْغَيْظَ) وكظم الغيظ رده في الجوف، يقال: كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه، وكظمت السقاء أي ملأته وسدّدت عليه، والكظامة ما يسد به مجرى الماء، ومنه الكظام للسير الذي يسد به فم الزق والقربة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) العفو عن الناس أجل ضرور فعل الخير، حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث ينتجه حقه. وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه. ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس، فقال ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)^(٤). وقال

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ٥٩٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ٤، ص: ٢٠٦.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب حديث رقم: ٦١١٤ (٢٨/٨) وانظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، حديث رقم: ٦٨٠٩ (٨/٣٠).

عليه السلام (ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعة غيظ في الله^(١)). وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: "وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ"، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) أي يشيهم^(٢) على إحسانهم. وأورد قول^(٣) أبي العباس الجماني في المبادرة بالإحسان:

ليس في كل ساعة وأوان *** تنهيا صنائع الإحسان

وإذا أمكنت فبادر إليها *** حذرا من تعذر الإمكان

٣) محبة الله للمحسنين في القتال مع الأنبياء وإخلاص الدعاء لله تعالى:

قال الله تعالى: (وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْخَاسِرِينَ^(٤).

القتال في سبيل الله هو ما كان لله مخلصا، ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وفق ضوابط الشريعة لهذه الشعيرة، التي هي ذروة سنام الإسلام، وبها تتحقق الشهادة في سبيل الله، بفضلها، وعلو منزلتها. ويناقضها من يقاتل من أجل الحمية لعصبة، أو نصرة لنفسه بظلم، أو يقاتل شجاعة وجرأة، فميته ميتة جاهلية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي »

(١) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - باب الحلم ، حديث رقم: ٤١٨٩ (٥/٢٨٢). قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره.

(٢) منهج أهل السنة والجماعة في إثبات صفات الله الإقرار بها والإيمان، وإثباتها بالدليل من الكتاب والسنة، وإمرارها كما جاءت على الحقيقة، من غير تحريف ولا تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تأويل باطل، يقولون: من أسمائه السميع، له صفة السمع، سمعا يليق بجلاله وعظمته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهكذا في سائر الصفات المثبتة، ويقصدونه ويترهونه عن كل عيب ونقص، له بصفاته الكمال والجمال والجلال، وله الأسماء والحسن والصفات العلى، ومن يفسر الحجة بإرادة الثواب، والغضب بإرادة العقاب والقدرة عليه؛ فهذا تأويل باطل، جرى عليه الأشاعرة ممن يثبت لله الأسماء، ويمضي في تأويل الصفات ويردها إلى سبع صفات، كما يقولون أصحاب هذا المذهب الخاطي: (له الحياة والكلام والبصر، سمع وإرادة علم اقتدر). فالله سبحانه وتعالى، كما أخبر عن نفسه وأخبر عنه النبي ﷺ (يحب) وله صفة الحجة والحب على الحقيقة، حجة تليق بجلاله وعظمته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير والله أعلم .

(٣) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ٤، ص: ٢٠٩.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨.

وَلَسْتُ مِنْهُ»^(١). ومن الإحسان المشروع في القتال، القتال مع الأنبياء والجهاد مع أتباعهم والسمع والطاعة في المعروف. وهذا هو الإحسان المحمود في الآية الكريمة، حيث يعد الجهاد من أعظم الأعمال الصالحة، حين يقدم المسلم أعلى ما يملك وهي نفسه لله تعالى نصرته لدينه. أورد الطبري في تفسيره عن ابن جريج^(٢) في قول الله تعالى: "فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا"، قال: النصر والغنيمة "وحسن ثواب الآخرة"، قال: رضوان الله ورحمته.

٤) محبة الله للمحسنين أهل العفو والصفح:

قال الله تعالى: (فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ^٣ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ^٤ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ^٥ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ^٦ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٣))

لقد أخذ الله العهد والميثاق على بني إسرائيل بالإيمان به وبرسله، ومناصرتهم واتباعهم بإقامة الشرائع، ولكن ما كان من أكثرهم إلا نقض العهد والميثاق، ووصفهم الله في القرآن (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ^(٤)) فحلت عليهم العقوبات من الله تعالى كما جاء في تفسير^(٥) الآية:

الأولى: أنا {لَعَنَّاهُمْ} أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا.

الثانية: قوله: {وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر.

الثالثة: أنهم {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل فيما أنزل إليهم من كتب وأحكام.

الرابعة: أنهم {نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظا منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك لما أمروا به.

(١) انظر: صحيح مسلم- كتاب الإمامة- باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ٤٨٩٢ (٦/٢٠).

(٢) ابن جريج عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ الحرم، أبو خالد، وأبو الوليد القرشي الأموي، المكي، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة. مولى أمية بن خالد. وقيل: كان جده جريج [عبدا] لأم حبيب بنت جبير زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي، فنسب ولاؤه إليه. وهو عبد رومي. حدث عن عطاء بن أبي رباح فأكثر وجود، وعن ابن أبي مليكة، ونافع مولى ابن عمر، وأخذ عن مجاهد حرفين من القراءات، وكان من بحور العلم. عن يحيى بن سعيد قال: كان ابن جريج صدوقا. مات سنة خمس مائة. وعاش سبعين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٥/٦).

(٣) سورة المائدة: ١٣.

(٤) سورة الحديد: ١٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٢٢٥.

الخامسة: الخيانة المستمرة المبينة في قوله تعالى { لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ } أي: خيانة الله وعباده المؤمنين.

وأورد الإمام الطبري في تفسير الآية عن الأمر بالعفو قول من قال بثبوت العفو كونه من الإحسان والله يحب المحسنين، وقول من قال بنسخ الآية حكماً بآية التوبة، فقال: (القول في تأويل قوله عز ذكره: { فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمداً ﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن ييسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جل وعز له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروهم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه. وكان قتادة^(١) يقول: هذه منسوخة. ويقول: نسختها آية "براءة": (قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ)^(٢))^(٣) ويبقى العفو من سمات المسلم العامة فيما يخصه من حقوق، وهو المندوب إليه في توجيهات الشريعة، ولولي أمر المسلمين، فيما كان تحت يده ومن حقه وأجازه له الشرع حق العفو أو العقوبة بما يرى فيه المصلحة للإسلام والمسلمين.

٥) محبة الله للمحسنين في المطعم المباح على إيمان وتقوى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ)^(٤) وقد ورد في سبب نزولها رواية واحدة: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُنْتُ سَاقِي الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ^(٥)، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ^(٦)، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: أَخْرِجْ فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ

(١) قتادة بن دعامه بن قتادة بن عزيز الحافظ العلامة أبو الخطاب السدوسي البصري الضريع الأكمه المفسر، قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس. قال معمر: سمعت قتادة يقول: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا. قال أحمد بن حنبل: قتادة عالم بالتفسير وباختلاط العلماء ووصفه بالحفظ والفقه، ومع حفظ قتادة وعلمه بالحديث كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، وكان قتادة معروفاً بالتدليس، وكان يرى القدر، مات بواسط في الطاعون سنة ثمان عشرة ومائة، وقيل، وله سبع وخمسون سنة. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٩٣/١)

(٢) سورة التوبة: ٢٩.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٠، ص: ١٣٤.

(٤) سورة المائدة: ٩٣.

(٥) أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهل بن الأسود، أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدرًا والمشاهد، روى عنه ابنه عبد الله وربيبه أنس بن مالك وابن عباس وعدة، مات سنة أربع وثلاثين. انظر: إسعاف المبطل برجال الموطن للسيوطي (٣٢/١).

(٦) الفضيخ من فضخ، والفضيخ: شراب يتخذ من البسر وحده من غير أن تمسه النار. انظر: الصحاح للجوهري (٤٢٩/١) والفضخ كسر كل شيء أجوف نحو الرأس والبطيخ، فَضَخَ يَفْضُخُهُ فَضْخًا وَافْتَضَخَهُ وَفَضَخَ رَأْسَهُ شَدْخَهُ، وَانْفَضَخَ سَنَامُ الْبَعْرِ انْشَدَخَ، وَأَفْضَخَ الْعَنْقُودُ حَانَ وَصَلَحَ أَنْ يَفْتَضَخَ وَيُعْتَصَرَ مَا فِيهِ، وَفَضَخَ الرُّطْبَةُ وَنَحْوَهَا مِنَ الرُّطْبِ يَفْضُخُهَا فَضْخًا شَدْخَهَا، وَالْفَضِيخُ عَصِيرُ الْعَنْبِ. انظر: لسان العرب لابن منظور (٤٥/٣)

بَعْضُ الْقَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ [لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا] (الآية) ^(١) قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره للقوم الذين قالوا إذ أنزل الله تحريم الخمر بقوله: "إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه": كيف بمن هلك من إخواننا وهم يشربونها؟ وبنا وقد كنا نشربها؟ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم حرج فيما شربوا من ذلك، في الحال التي لم يكن الله تعالى حرّمه عليهم "إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات"، يقول: إذا ما اتقى الله الأحياء منهم فخافوه، وراقبوه في اجتنابهم ما حرّم عليهم منه، وصدّقوا الله ورسوله فيما أمراهم ونهياهم، فأطاعوهما في ذلك كله "وعملوا الصالحات"، يقول: واكتسبوا من الأعمال ما يرضاه الله في ذلك مما كلفهم بذلك ربهم "ثم اتقوا وآمنوا"، يقول: ثم خافوا الله وراقبوه باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف أيضاً، فثبتوا على اتقاء الله في ذلك والإيمان به، ولم يغيروا ولم يبدّلوا "ثم اتقوا وأحسنوا"، يقول: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفهم الله إلى الإحسان، وذلك "الإحسان"، هو العمل بما لم يفرضه عليهم من الأعمال، ولكنه نوافل تقرّبوا بها إلى ربهم طلباً لرضاه، وهرباً من عقابه "والله يحب المحسنين"، يقول: والله يحب المتقربين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاها) ^(٢).

من أنواع الإحسان العامة التي أمر الشرع بها

١) الإحسان العام:

وهو الإحسان في كل شيء، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: ثَنَانٌ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلِيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» ^(٣). والإحسان هنا الأحكام والإكمال والتحسين في كل الأعمال المشروعة (على) بمعنى (في) كما في قوله تعالى: (وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ) ^(٤) ومنه القول: كان كذا على عهد فلان، أي في زمنه الذي عاش فيه.

٢) الإحسان العقدي بالتمسك بالعروة الوثقى وهي لا إله إلا الله:

قال الله تعالى: (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَنَقَبَةُ الْأُمُورِ) ^(٥) أي عمل بإخلاص لله تعالى، متبعاً لسنة النبي ﷺ، مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وهو الإسلام. قال مجاهد: {فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام وقال سعيد بن جبير والضحاك:

(١) انظر: صحيح البخاري-كتاب المظالم-باب صب الخمر في الطريق، حديث رقم: ٢٤٦٤ (٣/ ١٣٢)

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ج ١٠، ص: ٥٧٦.

(٣) انظر: صحيح مسلم - كتاب الصيد والذبائح - باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، حديث رقم: ٥١٦٧ (٦/ ٧٢).

(٤) سورة البقرة: ١٠٢.

(٥) سورة لقمان: ٢٢.

يعني لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: {بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}: القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد^(١) قال: هو الحب في الله والبغض في الله. وكل هذه الأقوال^(٢) صحيحة ولا تنافي بينها.

٣) الإحسان إلى الوالدين:

قال الله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)^(٣) إن الإحسان إلى الوالدين في حال الحياة برهما وحفظهما، وصيانتهم وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما، والنفقة عليهما معروفًا، وحين الطلب والحاجة واجبًا، أما الإحسان إليهما بعد الموت فيتضح من جواب النبي ﷺ عندما سئل عن ذلك، عن أبي أسيد^(٤) مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه، قال: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذَا جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٍ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: «نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا»^(٥).

٤) الإحسان في القول وتميز الدعاة إلى الله برفيع المقام في ذلك، قال الله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(٦) قال الإمام الطبري في تفسيره: (يقول تعالى ذكره: ومن أحسن أيها الناس قولاً ممن قال ربنا الله ثم استقام على الإيمان به، والانتهاء إلى أمره ونهيهِ، ودعا عباد الله إلى ما قال وعمل به من ذلك)^(٧)

(١) سالم بن أبي الجعد، أحد ثقات التابعين، ذكره بعضهم في المخضرمين معتمداً على ما حكاه بن زبر أنه مات سنة تسع وتسعين، وله مائة وخمس عشرة سنة، فيكون أدرك من الحياة النبوية ستاً وعشرين سنة، وهذا باطل، فقد جزم أبو حاتم الرازي بأنه لم يسدرك ثوبان ولا أبا الدرداء ولا عمرو بن عبسة، فضلاً عن عثمان، فضلاً عن عمر، فضلاً عن أبي بكر. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣/٢٧٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٦٨٤.

(٣) سورة الأحقاف: ١٥.

(٤) أبو أسيد الساعدي، اسمه مالك بن ربيعة وقيل هلال بن ربيعة، والأكثر يقولون مالك بن ربيعة بن البدن، شهد بدرًا يعد في الحجازيين وروى عقيل عن ابن شهاب قال: قال أبو حازم عن سهل ابن سعد: قال لي أبو أسيد الساعدي بعد ما ذهب بصره: يا بن أخي لو كنت أنت وأنا بيدك ثم أطلق الله لي بصري لأريتك الشعب الذي خرجت علينا منه الملائكة غير شك ولا تمار. وكان رضي الله عنه قصيراً كثير شعر الرأس لا يغير شعر لحيته وقيل بل كان يصفرها. واختلف في وقت وفاته اختلافاً متبايناً ف قيل توفي سنة ثلاثين وهذا عندي وهم والله أعلم، وقيل بل توفي سنة ستين قاله المدايني. وقيل توفي سنة خمس وستين، وهو آخر من مات من البدرين، وقيل مات وهو ابن ثمان وسبعين. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/٦٥٧).

(٥) انظر: سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في بر الوالدين، حديث رقم: ٥١٤٤ (٤/٥٠٠)، انظر: سنن ابن ماجه - كتاب الأدب - باب صل من كان أبوك يصل، حديث رقم: ٣٦٦٤ (٥/٤١٧)، وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند المكين - حديث أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه، حديث رقم: ١٦٠٥٩ (٢٥/٤٥٧). ضعف إسناده الألباني في سنن أبي داود وسنن ابن ماجه. وتعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف لجهالة حال علي بن عبيد، فقد انفرد بالرواية عنه ابنه أسيد بن علي ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان. قلت: ومعنى الحديث متوافق مع مقاصد الشريعة وأحكام الدين الواردة في الكتاب وصحيح السنة.

(٦) سورة فصلت: ٣٣.

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١، ١٤٢٠هـ، ج ٢١، ص: ٤٦٨.

٥) الإحسان في عموم الأعمال المشروعة، قال الله تعالى:

﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لِحَسَنِيَّ وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)، أورد الإمام ابن كثير يرحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: (يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح؛ أبدله الحسن في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَزِيَادَةً﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلته ورحمته وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهم من السلف والخلف^(٣).

٦) الإحسان في العلاقات الزوجية، قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٤) أَلْطَلَّقَ مَرَّتَانِ فَمَسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنِ^(٥). قال القرطبي في تفسيره: (وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم: "المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق، أي من طلق اثنتين فليترك الله في الثالثة، فإذا تركها غير مظلومة شيئا من حقها، وإما أمسكها محسنا عشرتها، والآية تتضمن هذين المعنيين")^(٥).

٧) الإحسان في العلاقات العامة والمكافأة بالمثل وزيادة:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾^(٦) قال البغوي: (أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. وقال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟)^(٧) بل إن أوامر الشريعة ونظم الإسلام جميعها، تدل وتحث على المعروف والإحسان للمحسن

(١) سورة يونس: ٢٦.

(٢) سورة الرحمن: ٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤هـ، ج ٤، ص: ٢٦٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ٣، ص: ١٢٦.

(٦) سورة الرحمن: ٦٠.

(٧) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧هـ، ج ٧، ص: ٤٥٥.

وللمسيء، وهي وسيلة في توثيق العلاقات وصفاء النيات، وبين الله تعالى أن من صفات المؤمنين أنهم يدرؤون السيئة بالحسنة، ووعدهم العاقبة الحسنة جنات تجري من تحتها الأنهار. وقال الله تعالى: (وَإِذَا حُيِّمُ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)^(١) وهذا الأمر بالمكافأة أو الزيادة في الخير من عظيم شمائل الإسلام، وهنا ورد الأمر في السلام تحية أهل الإسلام، وهي في الحكم الشرعي سنة وردها واجب على قول جمهور العلماء، وهي مفتاح العلاقات بين الناس، ومبتدأ اللقاء بالطمأنينة والأمن والسلام، والأمر فيها بالمكافأة والإحسان فيه تأكيد أن غيرها من الخير يكون مثلها، أو أحق بالإحسان في الرد.

(٢) القسط

القسط في اللغة:

القسط في اللغة من (قسط)، أورد ابن قتيبة في أدب الكاتب معنيين في لفظ " قَسَطَ " ^(٢)

(١) في الجور قَسَطَ فهو قَاسِطٌ.

(٢) في العدل أَقْسَطَ " فهو مُقْسِطٌ.

وفي أساس البلاغة عند الزمخشري: (وتقول: فلان يقيس الأمر بمقياسه، ويزنه بقسطاسه. وبرجله قسط: اعوجاج، وساق قسطاء. وأقسطت الريح العيدان: أيسستها)^(٣).

وأورد ابن دريد^(٤) في الاشتقاق: (واشتقاق قاسط من قولهم: قَسَطَ علينا، أي جار علينا وفي التزيل: " وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ". أي الجائرون، والله عز وجل أعلم. والمُقْسِط: العادل. والقُسْط: النصيب من الشيء، والجمع أقساط)^(٥) و أورد الجوهري في الصحاح (القُسْط بالكسر: العدل. تقول منه: أقسَطَ الرجلُ فهو مُقْسِطٌ. ومنه قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ". والقُسْطُ أيضاً: مكيال، وهو نصف صاع. والقُسْطُ: الحِصَّة والنصيب)^(٦). في تهذيب اللغة للأزهري: (القُسْطُ:

(١) سورة النساء: ٨٦.

(٢) أدب الكاتب، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مصر: المكتبة التجارية ط ٤، ١٩٦٣ م، ص: ٣٩٨.

(٣) أساس البلاغة، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مصر: مركز تحقيق التراث، ط ٢، ١٩٧٣ م، ج ٢، ص: ٢٥١.

(٤) العلامة، شيخ الأدب، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي، البصري، صاحبُ التَّصَانِيفِ، تَنَقَّلَ فِي فَارَسَ وَجَزَائِرِ الْبَحْرِ يَطْلُبُ الْأَدَبَ وَلِسَانِ الْعَرَبِ، فَفَاقَ أَهْلَ زَمَانِهِ، ثُمَّ سَكَنَ بَغْدَادَ. كَانَ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ فِي قُوَّةِ الْحِفْظِ. قَالَ ابْنُ شَاهِينَ: كُنَّا نَدْخُلُ عَلَيْهِ فَنَسْتَحِيهِ مِمَّا نَرَى مِنَ الْعِيدَانِ وَالشَّرَابِ، وَقَدْ شَاخَ. وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْأَزْهَرِيُّ: دَخَلْتُ فَرَأَيْتُهُ سَكَرَانَ فَلَمْ أَغْدُ إِلَيْهِ. وَقَالَ الدَّارِقُطِيُّ: تَكَلَّمُوا فِيهِ: وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَسَدِيُّ: كَانَ يُقَالُ: ابْنُ دُرَيْدٍ أَعْلَمُ الشُّعْرَاءِ، وَأَشْعَرُ الْعُلَمَاءِ. تُوفِّيَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ، وَلَهُ ثَمَانٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً، عَفَا اللَّهُ عَنْهُ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩ / ٩٢).

(٥) الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٣، ص: ٣٣٤.

(٦) الصحاح تاج العربية وصحاح اللغة، أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: إميل بدیع يعقوب ومحمد نبيل طريفي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ٣، ص: ٤٢.

عودٌ يجاء به من الهند يجعل في البخور والدواء^(١). وفي لسان العرب لابن منظور: (يقال أَقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إذا عدَلَ، وقَسَطَ يُقْسِطُ فهو قَاسِطٌ إذا جَارَ، فكأنَّ الهمزة في أَقْسَطَ للسَّلْبِ كما يقال شَكَا إليه فَأَشْكَاهُ)^(٢) وأورد ابن فارس في معجمه معنى القِسْطَاس والقُسْط، قال: (والقِسْطَاس: الميزان. قال الله سبحانه:) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ^(٣)) ومما ليس من هذا القُسْط: شيءٌ يُتَبَخَّرُ به، عربيٌّ^(٤).

القسط في الاصطلاح الشرعي:

وهو إقامة العدل ورفع الجور ودفعه، في حق النفس ومع الآخرين بموجب ما أمر الله به، قال الله تعالى: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)^(٥). وهذا التعريف جاء من منطلق المعنى اللغوي ، ومستنبط من الدلالة الواضحة من الآيات، والمتوافق عليه، دون أدنى علة في المفهوم . ومعنى العدل: الميل، وسمي بذلك لما غلب أن الإنسان فطرة وعقلا وشرعا لا يميل إلا إلى الحق، فرغبه الناس واتفقوا على ما مالوا إليه وهو الحق، وأسموه العدل، لما عدلوا إليه. والمُقْسِطُ^(٦) هو العادلُ، والمقسط ورد في أسماء الله تعالى الحسنى، من حديث أبي هريرة عند الترمذي في سننه، وضعفه^(٧) العلماء سندا وفي بعض الأسماء الله الحسنى متنا.

القُسْط: العدل إلى الحق باتباعه والحكم به ونتيجته الوفاء في الجزاء والإنصاف.

والمُقْسِطون: وهم العادلون مع أنفسهم وبين الناس وهو خلاف القُسْط. حيث القُسْط: العدل عن الحق بتركه والحكم بغيره ونتيجته الجور والظلم. القاسطون: وهم الجائرون على أنفسهم وحقوق غيرهم.

والله عدل، ولا يظلم ربك أحدا، فقد أمر بالعدل و رفع الجور، ويجزي بالقسط يوم القيامة، يقول الحق سبحانه وتعالى : (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ)^(٨) أي: جزاء منه بالعدل، لأنهم عدلوا في العقيدة والعبادة، والأقوال والأفعال واتبعوا منهج الله

(١) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب بيروت: دار إحياء التراث العربى ، ط ١، ٢٠٠١ م ، ج ٨، ص: ٢٩٨.

(٢) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، بيروت: دار صادر، ط ١، باب حرف الباء، فصل الحاء، مادة (قسط)، ج ٧، ص: ٣٧٧.

(٣) سورة الإسراء: ٣٥. وسورة الشعراء: ١٨٢.

(٤) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩ هـ — ، مادة (قسط)، ج ٥. ص: ٨٥.

(٥) سورة الأعراف: ٧٩.

(٦) المقسط لم يرد في القرآن أو السنة الصحيحة اسما لله تعالى، ولكن الذي أدرجه — على حد قول من قال أن الأسماء الواردة في الحديث مدرجة من قول الرواة — استند إلى أمره تعالى بالقسط ومحبه للمقسطين و جزاؤه بالقسط وأنه عدل، ولا يظلم ربك أحدا .

(٧) سيرد الحديث كاملا وحكم العلماء عليه، في هذا الباب — الفصل الثالث — المبحث الأول — المطلب الأول: تحقيق التوحيد .

(٨) سورة يونس: ٤ .

وطريق الأنبياء والمرسلين، فالعدل هنا يسير على مقتضى التشريع، وهم قد أخذوا المنهج بدون ظلم فكانوا من المقسطين. وعند الإمام مسلم في صحيحه: (عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النَّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »^(١). قال النووي يرحمه الله: ((يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)) فَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاض^(٢): قَالَ الْهَرَوِيُّ: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ^(٣) الْقِسْطُ الْمِيزَانُ، وَسُمِّيَ قِسْطًا؛ لِأَنَّ الْقِسْطَ: الْعَدْلُ، وَبِالْمِيزَانِ يَقَعُ الْعَدْلُ، قَالَ: وَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ بِمَا يُوزَنُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُتَرَفِّعَةِ^(٤) وعند مسلم أيضا (وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ^(٥) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ الْمُقْسَطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا »^(٦). وعلى رأس الولاية الإمام العادل، وله مقام عظيم يوم القيامة، حيث هو من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وذلك ثابت في السنة الصحيحة، وإن الأمر بالعدل هنا وفي غيره من نصوص الشرع هو نهي عن الظلم والجور فلا يأمر الشارع بشيء إلا وينهى عن ضده وكذلك لا ينهى عن شيء إلا ويأمر بضده. قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)^(٧) وقد حكم أهل الحديث بضعف

(١) انظر صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب في قول عليه السلام (إن الله لا ينام) حديث رقم: ٤٦٣ (١ / ١١١).

(٢) سبقت ترجمته. انظر: فهرس الأعلام.

(٣) أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل: المروزي، الكاتب، صاحب التصانيف. نزل بغداد، وصنف وجمع، وبعد صيته. قال أبو بكر الخطيب: كان ثقة دينا فاضلا، من تصانيفه: "غريب القرآن"، "غريب الحديث"، "كتاب المعارف"، "كتاب مشكل القرآن"، "كتاب مشكل الحديث"، "كتاب أدب الكاتب"، "كتاب عيون الأخبار"، "كتاب طبقات الشعراء"، "كتاب أدب القاضي"، "كتاب الرد على من يقول بخلق القرآن"، "كتاب إعراب القرآن"، "كتاب القراءات"، "كتاب الأنواء"، "كتاب التسوية بين العرب والعجم"، "كتاب الأشربة". وقد ولي قضاء الدينور، وكان رأسا في علم اللسان العربي، والأخبار وأيام الناس. وقال أبو بكر البيهقي: كان يرى رأي الكرامية. ونقل صاحب "مرآة الزمان"، بلا إسناد عن الدارقطني، أنه قال: كان ابن قتيبة يميل إلى التشبيه. عن حماد الحارثي أنه سمع السلفي ينكر على الحاكم في قوله: لا تجوز الرواية عن ابن قتيبة. ويقول: ابن قتيبة من الثقات، وأهل السنة. مات أبو محمد بن قتيبة في شهر رجب، سنة ست وسبعين ومنتين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣ / ٢٩٦).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ٣، ص: ١٣.

(٥) زهير بن حرب بن شداد أبو خيثمة النسائي، سكن بغداد، قال أبو بكر: إنما هو ابن حرب بن أشتال فعرب فقيلا شداد، أخرج البخاري في الحج والبيوع وغير موضع عنه، مات ببغداد في شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين ومائتين قاله البخاري. قال أبو حاتم الرازي: هو صدوق. انظر التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (٣ / ٥٩٤).

(٦) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم: ٤٨٢٥ (٦ / ٧).

(٧) سورة النساء: ٥٨.

حديث أن الإمام العادل أحب الناس إلى الله يوم القيامة، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا، إِمَامٌ عَادِلٌ. وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ»^(١). وهذا الحديث مع ضعفه فهو يشمل من المعنى ما يوافق الصحيح فإن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه وعلى عباده، وبين أنه يحب المقسطين وأعد لهم مقام رفعة يوم القيامة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا.^(٢) وعن يزيد بن عُميرة وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَخْبَرَ عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه: كَانَ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ اللَّهُ حَكَمَ قِسْطُ هَٰلِكَ الْمُرْتَابُونَ^(٣).

وما ورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح من محبة الله للمقسطين:

(١) محبة الله للمقسطين في الحكم بين أهل الكتاب:

قال الله تعالى: (سَمِعُوتَ لِكَذِبٍ أَكْثَلُونَ لِلْحَيَّةِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)^(٤) وذكر في سبب نزول هذه الآية ثلاث^(٥) روايات، أوردها كما أوردها أهل التفسير:

الأولى: قيل: أنها نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلًا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

الثانية: قال الإمام ابن كثير: والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحسن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم^(٦) فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون

(١) انظر: سنن الترمذي - كتاب الأحكام عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في الإمام العادل، حديث رقم: ١٣٧٩ (٣/٦١٧)، وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، حديث رقم: ١١٥٢٥ (١٨/٨٥). ضعف إسناده الألباني في سنن الترمذي. وتعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، حديث رقم: ٦٤٨ (١١/٢٤). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب السنة - باب لزوم السنة، حديث رقم: ٤٦١٣ (٤/٣٣١). قال الألباني: صحيح الإسناد موقوف. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٤) سورة المائدة: ٤٢.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٠، ص: ٣٢٥.

(٦) أي تسويد الوجه بصبغه بالسواد.

نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك. وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع^(١)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامراًة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟" فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. وأخرجاه وهذا لفظ البخاري^(٢) (٣).

الثالثة: عن ابن عباس رضي الله عنهما: « في قوله عز وجل: {فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} قال: كان بنو النضير إذا قتلوا قتيلاً من بني قريظة أدوا إليهم نصف الدية، وإذا قتل بنو قريظة من بني النضير قتيلاً أدوا إليهم الدية كاملة، فسوى رسول الله ﷺ بينهم الدية »^(٤).

٢) محبة الله للمقسطين في الصلح بين المؤمنين المتقاتلين:

قال الله تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتْلَةُ الَّتِي تَبَنَّىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (٥).

وذكر في سبب نزول هذه الآية ثلاث^(٦) روايات:

(١) أبو عبد الله نافع مولى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهم؛ كان ديلمياً، وأصابه مولاة عبد الله بن عمر في غزاته، وهو من كبار الصالحين التابعين، سمع مولاة وأبا سعيد الخدري، وروى عنه الزهري وأيوب السخيتي ومالك بن أنس، رضي الله عنهم. وهو من المشهورين بالحديث، ومن الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به، ومعظم حديث ابن عمر عليه دار. وقال مالك: كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمع من أحد، وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة. وأخبار نافع كثيرة؛ وتوفي سنة سبع عشرة، وقيل سنة عشرين ومائة. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٥ / ٣٦٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب قول الله تعالى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، حديث رقم: ٦٨٤١ (٨ / ١٧٢)، وانظر: صحيح مسلم - كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، حديث رقم: ٤٥٣٣ (٥ / ١٢١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ١١٣ - ١١٤.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند بني هاشم رضي الله عنهم، حديث رقم: ٣٤٣٤ (٥ / ٤٠١). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حسن.

(٥) سورة الحجرات: ٩.

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٢٢، ص: ٢٩٣ - ٢٩٤.

الأولى: عن معتمر^(١) قال: سمعت أبي يقول: إن أنسًا قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاقما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما"^(٢). وأنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ، فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض.

الثانية: قال قتادة^(٣): نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لاأخذن حقي منك عنوة، لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبي الله ﷺ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال بالسيوف.

الثالثة: عن السدي^(٤): كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد تحت رجل، وكان بينها وبين زوجها شيء فرقى بها إلى غلية وحبسها، فبلغ ذلك قومها فجأؤوا، وجاء قومهم فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فأنزل الله عز وجل: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما"

وعلق ابن حجر على أسباب النزول واستشكاه على بعض العلماء بقوله: ((وقد استشكل ابن بطال نزول الآية المذكورة، وهي قوله وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا في هذه القصة، لأن المخاصمة وقعت بين من كان مع النبي ﷺ من أصحابه، وبين أصحاب عبد الله بن أبي، وكانوا إذ ذاك كفارا. فكيف يتزل فيهم طائفتان من المؤمنين، ولا سيما إن كانت قصة أنس وأسامة متحدة؛ فإن في رواية أسامة فاستب المسلمون والمشركون، قلت: يمكن أن يحمل على التغليب مع أن فيها إشكالا من جهة أخرى، وهي أن حديث أسامة صريح في أن ذلك كان قبل وقعة بدر وقبل أن يسلم عبد الله بن أبي وأصحابه، والآية المذكورة في الحجرات ونزولها متأخر جدا، وقت مجيء الوفود، لكنه يحتمل أن تكون آية الإصلاح نزلت قديما، فيندفع

(١) معتمر بن سليمان بن طرخان أبو محمد المري مولاهم، ويعرف بالتمي لأنه كان نازلا فيهم، البصري أخرجه البخاري له في العلم وغير موضع، قال البخاري: حدثني محمد بن محبوب مات سنة سبع وثمانين ومائة، قال أبو حاتم: هو ثقة صدوق، وعن يحيى بن سعيد يقول: إذا حدثكم المعتمر بن سليمان بشيء فاعرضوه فإنه سيء الحفظ. انظر: التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (٢ / ٧٦٣). قال الغلابي عن ابن حنبل ولد سنة ست ومائة، وذكر أبو داود أن معتمرا مات في صفر سنة ١٨٧. انظر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والساد لأبي نصر البخاري الكلاباذي (٢ / ٧٤٠).

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب الصلح - باب ماجاء في الإصلاح بين الناس، حديث رقم: ٢٦٩١ (٣ / ١٨٣). وانظر صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، حديث رقم: ٤٧٦٢ (٥ / ١٨٣).

(٣) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام.

(٤) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الأعور مولى زينب بنت قيس بن مخزومة، أصله حجازي يعد في الكوفيين روى عن أنس بن مالك. انظر: الجرح والتعديل لابن المنذر التميمي الرازي (٢ / ١٨٤). كوفي ثقة، روى عنه سفيان وشعبة وزائدة عالم بتفسير القرآن راوية له. انظر: معرفة الثقات للعجلي (١ / ٢٢٧).

الإشكال^(١) وهذا السبب الذي منه تأكد وجوب حفظ العلاقات المستقيمة بين المسلمين والحث على السلم وإقامة العدل، وكف المعتدي، وأيضا، كانت آياته دليلا في إثبات حقيقة الإيمان وأنه اعتقاد وقول وعمل ورد على من قال أن الكبيرة تخرج من الإيمان وتخلد صاحبها في النار^(٢)، أورد الإمام ابن كثير: (يقول تعالى أمرا بالإصلاح بين المسلمين الباغيين بعضهم على بعض: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا} فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: "إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"^(٣). فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة^(٤). والعدل لا يكون إلا بحكم الله المتزل على رسوله ﷺ، أورد الإمام الطبري في تفسيره: (وقوله (وَأَقْسِطُوا) يقول تعالى ذكره: واعدلوا أيها المؤمنون في حكمكم بين من حكمتم بينهم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم رسوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) يقول: إن الله يحب العادلين في أحكامهم، القاضين بين خلقه بالقسط)^(٥) ومما يحصل من الخلاف بين المسلمين ما يؤدي إلى الكبائر ومنها الاقتتال، وجعل الله وجوب الحكم بينهم بالقسط، وإن أحكام القتال بين المؤمنين في مجملها هي مجمع اتفاق بين علماء أهل السنة والجماعة، وذلك للدلالة الواضحة لها من هذه الآية وغيرها، قال القرطبي في ثمانية المسائل^(٦) الاستفادة من الآية الكريمة: (قال العلماء: لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا أو لا. فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويشمر المكافة والمودعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهم. وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداها باغية على الأخرى، فالواجب أن

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ، ج ٥، ص: ٢٩٩.

(٢) الخوارج والجهمية ومن تبعهم.

(٣) انظر: صحيح البخاري- كتاب الصلح- باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين حديث رقم: ٢٧٠٤ (٣/ ١٨٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ج ٧، ص: ٣٧٤.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ٢٢، ص: ٢٩٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤ هـ، ج ١٦، ص: ٣١٧- ٣١٨.

تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل. فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاها عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مرأش الحق. فإن ركبنا متن اللجاج ولم تعملنا على شاكلة ما هديتنا إليه ونصحتنا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم.

الثالثة- في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغياها على الإمام أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين، واحتج بقوله عليه السلام: (قتال المؤمن كفر) ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصديق رضي الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة، وأمر ألا يتبع مؤلّ، ولا يجيز على جريح، ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله^(١) عليه السلام: خذوا على أيدي سفهائكم.

الرابعة- قال القاضي أبو بكر بن العربي^(٢): هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عني النبي ﷺ بقوله^(٣): تقتل عمارا الفئة الباغية. وقوله عليه السلام^(٤) في شأن الخوارج: يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة، والرواية الأولى أصح، لقوله عليه السلام: تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق. وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه).

(١) الظاهر أنه من قول النعمان بن بشير هكذا في شرح السنة للبيهقي: قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ عَلَى الْمُنْبَرِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ قَوْمًا رَكِبُوا الْبَحْرَ فِي سَفِينَةٍ، فَأَقْسَمُوا، فَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مَكَانًا... الحديث) انظر: شرح السنة للبيهقي (٣٤٣/١٤). وعند البيهقي في شعب الإيمان (كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) عَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خُذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ". انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٦٥/١٠).

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الحافظ، أحد الأعلام ولد في شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، ورحل مع أبيه إلى المشرق، ودخل الشام فتفقه بأبي بكر الطرطوشي، ولقي بها جماعة من العلماء والحدثين، ودخل بغداد فسمع بها من طراد الزيني، ونصر بن البطر وجماعة، وأخذ الأصولين عن أبي بكر الشاشي والغزالي، والأدب عن أبي زكريا التبريزي، ورجع إلى مصر والإسكندرية فسمع بهما من جماعة، وعاد إلى بلده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، مقدما في المعارف كلها، أحد من بلغ رتبة الاجتهاد، وأحد من انفرد بالأندلس بعلوم الإسناد، ثاقب الذهن، ملازما لنشر العلم، صارما في أحكامه، هيوبا على الظلمة، صنف التفسير وأحكام القرآن، وشرح الموطأ وشرح الترمذي وغير ذلك وولي القضاء ببلده، مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي (٩٤ / ١).

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب الصلاة - باب التعاون في بناء المسجد، حديث رقم: ٤٤٧ (٩٧ / ١).

(٤) انظر صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٦١٦٣ (٣٨/٨)، وانظر صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب ذكر الخوارج وصفاتهم حديث رقم: ٢٥٠٥ (١١٢/٣).

٣) محبة الله للمقسطين في أهل السلم من العدو المقاتل:

قال الله تعالى: (لَا يَتَهَنَّكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ^(١).

ذكر في سبب نزول هذه الآية روايتان ^(٢):

الأولى: قال ابن عباس: نزلت في خزاعة ^(٣)، كانوا قد صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخص الله في برهم.

الثانية: قال عبد الله بن الزبير: نزلت في أسماء بنت أبي بكر، وذلك أن أمها قتيلة بنت عبد العزى قدمت عليها المدينة بمدايا، ضياباً ^(٤) وأقطاً ^(٥) وسمناً، وهي مشركة، فقالت أسماء: لا أقبل منك هدية ولا تدخلني عليّ بيتي حتى أستأذن رسول الله ﷺ فسألت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها مزلها وتقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها.

وأورد البغوي في تفسيره: (قال مقاتل ^(٦)): فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار؛ عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة. ويعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَّوَدَّةً) أي: من كفار مكة {موددة} ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وإخواناً، وخالطوهم وناكحوهم {وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ثم رخص الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوه فقال: (لَا يَتَهَنَّكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ

(١) سورة الممتحنة: ٨.

(٢) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ هـ، ج ٨، ص: ٩٥ - ٩٦.

(٣) خزاعة من ولد قمعة بن إلياس بن مضر بلا شك، وليس لأحد مع مثل هذا كلام. وأسلم إخوة خزاعة بلا شك عند أحد من النسابين. قال علي: فولد قمعة بن إلياس: عامر بن قمعة. فولد عامر بن قمعة أقصى، وربيعة، وهو لحي، ابنا عامر بن قمعة، فولد لحي: عامر بن لحي. فولد عامر ابن لحي: عمرو بن عامر بن لحي، وهو عمرو بن لحي نسب إلى جده؛ وهو أول من غير دين إسماعيل - عليه السلام - ودعا العرب إلى عبادة الأوثان. وبهذا أثبت أهل النسب نسب خزاعة وبطونها من بني قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعليه فإن خزاعة من مضر ومضر عدنانية من ذرية إسماعيل عليه السلام. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي (٢٣٥/١).

(٤) الضَّبُّ ذُوَيْبَةٌ من الحشرات معروف، وهو يشبه الوزَّالَ والجمع أَضْبٌ مثل كَفٍّ وَأَكْفٌ وضيَابٌ وضيَابٌ. انظر: لسان العرب لابن منظور (٥٣٨/١) وضياب البلد وأضب أيضاً، أي كثرت ضيابه. وأرض ضيبة: كثيرة الضباب. انظر: الصحاح للجوهري (١٦٧/١).

(٥) الْأَقِطُ وَالْإِطُ وَالْأَقِطُ وَالْأَقِطُ شَيْءٌ يَتَّخِذُ مِنَ اللَّبَنِ الْمَخِيضِ يَطْبَخُ ثُمَّ يَتْرَكَ حَتَّى يَمُصَّلَ وَالْقِطْعَةُ مِنْهُ أَقِطَةٌ. انظر: لسان العرب لابن منظور (٢٥٧/٧).

(٦) أبو الحسن، مقاتل بن سليمان البلخي. من كبار المفسرين، يروي عن: مجاهد، والضحاك، وابن بريدة، وعطاء، وابن سيرين، وعمرو بن شعيب، وشرحبيل بن سعد، والمقبري، والزهري، وعدة. وعنه: سعد بن الصلت، وبقية، وعبد الرزاق، وحرمي بن عمار، وشبابة، والوليد بن مزيد، وخلق آخرون. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة! قال وكيع: كان كذاباً. وعن أبي حنيفة قال: أنا من المشرق رأيان خيشان: جهنم معطل، ومقاتل مشبه. قال البخاري: مقاتل لا شيء البتة. قال الذهبي: أجمعوا على تركه. مات سنة نيف وخمسين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠١/٧).

أَنْ تَبْرُوهُمْ) أي: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم {وَتَقْسُطُوا إِلَيْهِمْ} تعدلوا فيهم بالإحسان والبر {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (١).

إن الأمر بالعدل والعمل به واجب شرعي في كل أمر، ومع أن العدل ثقیل على النفوس المريضة، وبخاصة مع المخالفين، لكنه على النفوس الزكية خفيف المحمل بل سبيل رضا وطلبة للمتقين، فيجب على المسلمين تحقيق الإنصاف وأن يجعل كل مسلم نصب عينيه قول الله تعالى: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) (٢) والعدل في قول الحق والحكم به، والقوة في اتباع الحق والصدق فيه، و كما قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: (لِيَكُنْ مَرْجِعُكَ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْزَعُكَ إِلَى الصِّدْقِ، فَالْحَقُّ أَقْوَى مُعِينٌ، وَالصِّدْقُ أَفْضَلُ قَرِينٌ) (٣)، ومن الحق في هذا الدين العظيم أنه عدل في أهله، ومع أهل الأديان والملل الأخرى، قال الإمام الطبري: (عن قتادة، في قوله: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ... الآية) (٤)، قال: نسختها (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) (٥). وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: غني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرؤهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عم بقوله: (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) جميع من كان ذلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهى عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح. قد بين صحة ما قلنا في ذلك، الخبر الذي ذكرناه (٦) عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها (٧) وحقيقة الإسلام في جميع تشريعاته قام على العدل، وهو واجب المسلمين بعضهم مع بعض، ومع أعداء الدين الحق في الحرب والسلام، وأعظم ثماره انتشار الإسلام وأن الله يحب المقسطين .

(١) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ هـ، ج ٨، ص: ٩٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٢.

(٣) أدب الدنيا والدين، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، القاهرة: دار الفكر للنشر، ص: ٢٥٥.

(٤) سورة الممتحنة: ٨.

(٥) سورة التوبة: ٥.

(٦) من كلام المؤلف يرحمه الله، وقد أوردتُ القصة حسب روايتها عند ذكر سبب نزول الآية.

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ٢٣، ص: ٣٢٣.

(٣) التقوى

التقوى في اللغة:

التقوى في اللغة من (وقي) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره. ووقَّيته أقيه وقياً. والوقاية: ما يقي الشيء. وأتق الله: توقَّه، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية. قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"، وكأَنه أراد: اجعلوها وقايةً بينكم وبينها).

أورد الجوهري في الصحاح: ووقاه الله وقايةً، أي حفظه.

وفي لسان العرب لابن منظور: (ووقاه الله وقايةً بالكسر أي حفظه والتوقيه الكلاءة والحفظ).

التقوى في الاصطلاح الشرعي:

إن للتقوى معنى شاملاً في حياة العبد ومعنى محصوراً في أمر أو فمي معين ضمن نطاق المعتقدات والأفعال والأقوال الشرعية، وهو جزء من المعنى الشامل. ومن تقرير السلف الصالح لمعنى التقوى الشرعي الشامل: هو أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من غضب الله وسخطه وقاية، تقيه من ذلك بفعل طاعاته واجتناب معاصيه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) ^(١) قال: (أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر) ^(٢).

وتظهر أهمية التقوى من كونها وصية الله للأولين والآخرين من عباده، قال عز وجل: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) ^(٣) وهي أيضاً: وصية الرسول ﷺ لأئمة، عن أبي أمامة صُدي بن عجلان الباهلي ؓ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع، فقال: {اتقوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم} ^(٤). وكان من سنته ﷺ إذا بعث بعثاً أو صاهم بتقوى الله، (وقال ابن عباس: المتقون الذين يحدرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به، وقال الحسن: المتقون اتَّقُوا ما حُرِّمَ عليهم، وأدُّوا ما افْتَرَضَ عليهم وقال عُمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حُرِّمَ الله،

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: مركز هجر للبحوث، مصر: دار هجر، ١٤٢٤هـ، ج ٣، ص: ٧٠٦.

(٣) سورة النساء: ١٣١.

(٤) انظر: سنن الترمذي - كتاب الصلاة - باب منه، حديث رقم: ٦١٦ (٢/ ٥١٦). وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنهم حديث رقم: ٢٢١٦١ (٣٦/ ٤٨٦). صححه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وأداء ما افترض الله، فمن رُزِقَ بعد ذلك خيراً، فهو خيرٌ إلى خير. وقال طلق بن حبيب^(١): التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله. وعن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (٢) فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله، ولا شيئاً من الشر أن تتقيه. وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام (٣) ومن دلائل السنة الكثيرة في الدعوة إلى معاني التقوى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَكْرَمَ النَّاسِ؟ قَالَ « أَتْقَاهُمْ ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ « فَيُؤَسِّفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ ». قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي! خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا » (٤). وقد كان النبي ﷺ يطلب في دعائه التقى وأمر المسلم بالتقوى حيثما كان، وحذر أمته من فتنة الدنيا والنساء بلزوم التقوى. وأحب الله المتقين، وهنا أعرض ما ورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح من محبة الله للمتقين:

(١) قال الله تعالى: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (٥) أورد الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: (قول: بلى من أوفى بعهد الله الذي عاهده في كتابه، قامن بمحمد ﷺ وصدق به وبما جاء به من الله، من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها، وغير ذلك من أمر الله ونهيه "واتقى"، يقول: واتقى ما نهاه الله عنه من الكفر به، وسائر معاصيه التي حرّمها عليه، فاجتنب ذلك مراقبة وعيد الله وخوف عقابه "فإن الله يحب المتقين"، يعني: فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم، ويطيعونه فيما أمرهم به. وقد روى عن ابن عباس أنه كان يقول: هو اتقاء الشرك) (٦).

(١) طلق بن حبيب العنزي، بصري، زاهد كبير، من العلماء العاملين. وكان طيب الصوت بالقرآن، برّاً بالدين. عن بكر المزني، قال: لما كانت فتنة ابن الأشعث، قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى. قال ابن الأعرابي: كان يقال: فقه الحسن، وورع ابن سيرين، وحلم مسلم بن يسار، وعادة طلق، وكان طلق يتكلم على الناس ويعظ، قال أبو زرعة: طلق: سمع من ابن عباس، وهو ثقة، مرجئ. مات طلق: قبل المائة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٦٠١).

(٢) سورة الزلزلة: ٧ - ٨.

(٣) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب الحنبلي، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٢، ١٤١٠ هـ، ص: ١٥٨.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)، حديث رقم: ٣٣٥٣ (٤/١٤٠). وانظر: صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب من فضائل يوسف عليه السلام، حديث رقم: ٦٣١١ (٧/١٠٣).

(٥) سورة آل عمران: ٧٦.

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١، ١٤٢٠ هـ، ج ٦، ص: ٥٢٦.

(٢) قال الله تعالى: (وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ^(١))

أورد الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله، أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عاهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: "ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعاهده إلى مدته" وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحدا، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بدمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرص الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} أي: الموفين بعهدهم)^(٢).

(٣) قال الله تعالى: (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)^(٣))

ومما ورد في تفسير ابن كثير لهذه الآية قوله: (يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرفف أين تقفوا، فقال تعالى: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ} وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَنْبَغَ مَحَلُّهُ} الآية^(٤))، {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين {فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمين، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالتوا لحلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضا، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، والله الحمد والمنة^(٥)).

(١) سورة التوبة: ٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٤، ص: ١١٠.

(٣) سورة التوبة: ٧.

(٤) سورة الفتح: ٢٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٤، ص: ١١٤.

(٤) التوبة

التوبة في اللغة:

التوبة في اللغة من (توب) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (التاء والواو والباء كلمة واحدة تدلُّ على الرجوع. يقال تاب من ذنبه، أي رجع عنه يتوب إلى الله توبةً ومتاباً، فهو تائب. والتَّوبُ التَّوْبَةُ. قال الله تعالى: (وَقَابِلِ التَّوْبِ)^(١))

أورد الجوهري في الصحاح: (وقال الأخفش: التَّوبُ جمع توبة) وفي لسان العرب لابن منظور: (وتَوْبَةٌ و متَاباً أَنَابَ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ). التوبة في الاصطلاح الشرعي:

التوبة: هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته. ويشترط لها خمسة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص وهو شرط في كل عبادة، والتوبة من العبادات.

الشرط الثاني: الندم على ما حصل: وهو انكسار الإنسان أمام الله عز وجل أن فعل ما فني عنه، أو ترك ما أوجب عليه. وقال بعض أهل العلم: إن الندم ليس بشرط؛ لصعوبة معرفته؛ ولأن العبد إذا أفلح فإنه لم يقلع إلا وهو نادم، وإلا لاستمر. لكن أكثر أهل العلم -يرحمهم الله - على أنه لابد أن يكون في قلبه ندم.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية التي تاب منها: فإن كانت المعصية ترك واجب وجب عليه أن يقوم بالواجب، كما لو أذنب الإنسان بمنع الزكاة، فإنه لابد أن يؤدي الزكاة، أو كان على فعل محرم، مثل أن يسرق لشخص مالا ثم يتوب، فالمال في ذمته يؤديه لصاحبه، وإن ترك السرقة.

الشرط الرابع: العزم على أن لا يعود: فإن التائب من الذنب إن كان من نيته أن يعود إليه متى سحت له الفرصة فليس بتائب، ولكن لو عزم أن لا يعود ثم سؤلت له نفسه فعاد فالتوبة الأولى لا تنقضي، لكن يجب أن يجدد توبة للفعل الثاني. ولهذا يجب أن نعرف الفرق بين أن نقول: من الشرط أن لا يعود، وأن نقول: من الشرط العزم على أن لا يعود.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة وقت قبول التوبة وهو نوعان:

النوع الخاص: إذا حضر الإنسان أجله فإن التوبة لا تنفع، لقول الله عز وجل: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)^(٢) وفي قصة فرعون مع موسى عليه السلام آمن فرعون في حال الاستغراق والغرغرة والموت المحتم وهي حال لا تنفع معها التوبة ولا الإيمان قال الله تعالى: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا

(١) سورة غافر: ٣.

(٢) سورة النساء: ١٨ .

أَدْرَكَهُ الْغَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾ ءَالْقِنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ^(١). أي الآن تسلم، ومع ذلك لم ينفعه.

وأما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من المغرب آمن الناس كلهم بالساعة، ولكن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ولهذا قال النبي ﷺ: "لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"^(٢)

فهذه هي شروط التوبة، وأكثر العلماء - يرحمهم الله - يقولون: شروط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. وإن الإنسان إذا أذنب ذنباً عظيماً ثم لقي الله لا يشرك به شيئاً غفر الله له. ولكن هذا ليس على عموميه فهو مقيد بمشيئة الله لقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)، وفي كثير من الآيات أبان الله تعالى أن التوبة الصادقة سبب لتكفير السيئات.

وهنا أعرض ماورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح، من محبة الله للتوابين وفق ما يلي:
قال الله تعالى: (وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا النَّسَاءُ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)^(٣)

إن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وهنا في الآية الكريمة إن الله يحب التوابين، ومنها يتحقق أن من أساء الله الحسنى التواب الرحيم، وهذا اللفظ في عموم التائبين لله تعالى عن معاصيه ومن أعظمها الشرك ومن أذناها القيام بدقائق عفوية مضرة للآخرين من بصاق أو نظرة أو لفظة أو حركة، وعليه فإن التوبة عمل مطلوب شرعا في كل حين لأن الإنسان خطاء وكان النبي ﷺ كثير التوبة في مجلسه وعبادته، وقد وعد الله تعالى بقبول توبة التائبين فلا يحول بين الله وتوبة عبده شيء، قال الله تعالى: (قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٤) وفي السنة دلائل كثيرة تحت على التوبة وعلى محبة الله للتوابين وأن الله تعالى يفرح بتوبة التائبين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهُ لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولُ »^(٥) وما ورد في محبة الله للعبد المؤمن المفتن التواب فحديث ضعيف جدا كما قرر أهل الحديث^(٦).

(١) سورة يونس: ٩٠ - ٩١ .

(٢) انظر: سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في الهجرة هل انقطعت، حديث رقم: ٢٤٨١ (٢/ ٣١٢). وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند الشاميين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٦٩٠٦ (٢٨/ ١١١). صححه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حسن لغيره.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٤) سورة الزمر: ٥٣.

(٥) انظر: صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب في الحز على التوبة والفرح بها، حديث رقم: ٧١٢٨ (٨/ ٩١).

(٦) عن محمد بن الحنفية عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب) رواه أحمد في مسنده: مسند علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدا ، شبه موضوع.

(٥) الطهارة

الطهارة في اللغة:

الطهارة في اللغة من (طهر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الطاء والهاء والراء أصل واحدٌ صحيح يدلُّ على نقاء وزوالِ دَنَسٍ. ومن ذلك الطُّهْرُ: خلاف الدَّنَسِ. والتطَهَّرُ: التَّنَزُّهُ عن الذَّمِّ وكلِّ قبيح. وفلانٌ طاهر الثَّياب، إذا لم يدنَّس. قال:

ثيابُ بني عوفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ *** وأَوْجُهُهُمْ عندَ الْمَسَافِرِ غُرَانُ)

أورد الجوهري في الصحاح: (والمُطَهَّرَةُ والمُطَهَّرَةُ: الإِدْوَاءُ، والفتح أعلى، والجمع المَطَاهِرُ. ويقال: السواك مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ). وفي لسان العرب لابن منظور: (وتَطَهَّرَتِ المرأةُ اغتسلت، وَطَهَّرَهُ بالماءِ غَسَلَهُ واسمُ الماءِ الطَّهُّورُ وكلُّ ماءٍ نظيفٍ طَهُورٌ، وماء طَهُورٍ أي يُتَطَهَّرُ به، وكلُّ طَهُورٍ طاهرٌ وليس كلُّ طاهرٍ طَهُوراً)

الطهارة في الاصطلاح الشرعي:

الطهارة في الإسلام هي التزاهة المعنوية والمادية في أمر الباطن والظاهر من كل ما فيه أذى، ومن ثمراتها العظيمة حب الله للمتطهرين، قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) ^(١) فالطهر طهر بالماء من الحدث، فإن انعدم وجوده أغنى التيمم بالصعيد الطيب، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، ولما كانت أطراف الإنسان هي محل الكسب والعمل، وكانت هذه الأطراف أبواب المعاصي والذنوب في غالب حال المذنب، منها ما يكون في الوجه كالسمع والبصر، واللسان والشم والذوق، وكذا الأمر في سائر الأعضاء، كان الطهور - الوضوء - مكفراً للذنوب كلها. ومن السنة الوضوء لكل صلاة وهو أيضاً مقدمة الغسل من الحدث الأكبر، عن عبد الله الصنابحي ^(٢) عن رسول الله ﷺ قال: من توضأ فمضمض واستنشق خرجت خطاياه من فيه وأنفه، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، حتى يخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت خطاياه من يديه، فإذا مسح برأسه خرجت خطاياه من رأسه، حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجله خرجت خطاياه من رجله، حتى تخرج من تحت أظفار رجله، وكانت

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٢) عبد الرحمن بن عسيلة بن عسل بن عسال المرادي أبو عبد الله الصنابحي البماني، نزيل الشام وفد على النبي ﷺ فوجدته قد مات، فصلى خلف أبي بكر، وروى عنه وعن عمر وعلي وآخرون، قال ابن سعد: ثقة، قليل الحديث، وقال ابن يونس: شهد فتح مصر، وقال العجلي: تابعي ثقة، ونحوه ابن حبان، وقال ابن معين: تأخر إلى زمان عبد الملك، وذكره البخاري فيمن مات ما بين السبعين إلى الثمانين. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٠٥/٥). يقال عنه عبد الله الصنابحي ويقال أبو عبد الله مختلف في صحبته، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعادة بن الصامت، روى عنه عطاء بن يسار، قال البخاري: وهم مالك في قوله عبد الله الصنابحي إنما هو أبو عبد الله واسمه عبد الرحمن بن عبله، ولم يسمع من النبي ﷺ وكذا قال غير واحد، وقال يحيى بن معين: عبد الله الصنابحي يروي عنه المدنيون يشبه أن تكون له صحبة. انظر: إسعاف المبطل برجال الموطأ للسيوطي (١٨/١).

صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة^(١)؛ لذا كره بعض العلماء^(٢) مسح فضل الوضوء من أجل أن تطول مدة خروج الذنوب، ولأنه فضلة عبادة، وقد جاءت إحدى زوجات النبي ﷺ بمنديل للنبي ﷺ لما انتهى من وضوئه فرده وأخذ ينفذ بيديه^(٣)، فالظهور إذاً مكفر للذنوب بشرط الإسباغ. (قال محمد^(٤) بن كعب القرظي: إتمام النعمة تكفير الخطايا بالوضوء كما قال الله تعالى: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" (سورة الفتح: ٢) فجعل تمام نعمته غفران ذنوبه)^(٥) والله تعالى يحب المتطهرين.

وهنا أعرض ما ورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح، من محبة الله للمتطهرين وفق ما يلي:

(١) قال الله تعالى: «وَسَعَلُواكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(٦). وفي الطهر والتطهر اختلاف بين العلماء في المدة والكيفية، مع اتفاق في المعنى المقصود. أما أصلهما فمن الطهر وهو النقاء من الدنس والنجس والعيب. (عن عكرمة^(٧) في قوله: "ولا تقربوهن حتى يطهرن"، قال: حتى ينقطع الدم. وأما الذين قرءوا ذلك بتشديد "الهاء" وفتحها، فإنهم عنوا به: حتى يغتسلن بالماء. وشددوا "الطاء" لأنهم قالوا: معنى الكلمة: حتى يتطهرن، أدغمت "التاء" في "الطاء" لتقارب^(٨) مخرجيهما^(٩). قال الإمام الطبري: (وأولى

(١) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب الطهارة وسننها - باب ثواب الطهور، حديث رقم: ٢٨٢ (٣١٥/١). صححه الألباني.

(٢) ترك التشيف بالمنديل عند الحنفية والحنابلة وفي الأصح عند الشافعية: إبقاء لأثر العبادة، ولأنه صلى الله عليه وسلم «بعد غسله من الجنابة أتته ميمونة بمنديل، فرده، وجعل يقول بالماء: هكذا، ينفضه». وقال المالكية: المسح بالمنديل جائز، لحديث قيس بن سعد، قال: «زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا، فأمر له سعد بغسل، فوضع له فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران، أو ورس، فاشتمل بها». وعبارة الجنابة: يباح للمتطهر تشيف أعضائه، وتركه أفضل. وهذا هو الراجح. وترك النفض للماء في الأصح عند الشافعية والحنابلة؛ ويكره النفض عند بعض الحنابلة، وخلاف الأولى عند الشافعية، لحديث أبي هريرة: «إذا توضأت فلا تنفضوا أيديكم، فإنها مراوح الشيطان»، والأظهر عند الحنابلة أنه لا يكره وفاقاً للأئمة الثلاثة. انظر: الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي (٣٥٥/١).

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب الغسل - باب المضمضة والاستنشاق في الجنابة، حديث رقم: ٢٥٨ (٦٠/١)، وانظر: صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب صفة غسل الجنابة، حديث رقم: ٧٥٠ (١٧٥/١).

(٤). مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ حَلِيفُ الْأَوْسِ، أَبُو حَمْزَةَ الْمَدِينِيُّ، سَمِعَ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، رَوَى عَنْهُ الْحَكَمُ بْنُ عَتِيَّةٍ فِي تَفْسِيرِ (سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ) وَقَالَ أَبُو نَعِيمٍ: مَاتَ سَنَةَ ثَمَانَ وَمِائَةٍ، قَالَ الْبُخَارِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْهُ، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: مَاتَ سَنَةَ ثَمَانَ وَمِائَةٍ وَسَمِعْتُ قُتَيْبَةَ بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ بَلَّغَنِي أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرْظِيَّ وَلِدَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الْوَائِدِيُّ تَوَفَّى بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ١١٧ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ وَسَبْعِينَ سَنَةً. انظر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الفقه والسداد لأبي نصر البخاري الكلاباذي (٦٧٥/٢).

(٥) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ هـ، ج ٣، ص: ٢٥.

(٦) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٧) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام.

(٨) يخرج حرف التاء من طرف اللسان مع ما يحاذيه من أصول الثنايا العليا ومن صفاته الهمس والشدة والاستفال والانفتاح والإصمات، ويخرج حرف الطاء من طرف اللسان مع ما يحاذيه من أصول الثنايا العليا، قريب من مخرج التاء، وصفاته الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والإصمات والقلقلة. قال ابن الجزري في متن المقدمة:

وَالنُّونُ مِنْ طَرَفِهِ تَحْتَ جَعْلُوا *** وَالرَّاءُ يَذَانِيهِ لَظْهَرُ أَدْخُلُ
وَالطَّاءُ وَالذَّالُ وَتَا مِنْهُ وَمِنْ *** غَلِيَا الثَّنَايَا وَالصَّفِيرُ مُسْتَكِرُ

انظر: دروس مهمة في شرح الدقائق احكامية في شرح المقدمة الجزرية في الأحكام التجويدية، سيد لاشين أبو الفرج ص ٦٢.

(٩) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ٤، ص: ٣٨٤.

القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ: (حَتَّى يَطْهَرْنَ) بتشديدها وفتحها، بمعنى: حتى يغتسلن - لإجماع الجميع على أن حراماً على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تطهر^(١) وهذا الذي عليه أغلب أهل الفقه أن الغسل للحائض واجب ولا يجوز وطأها قبل الغسل، قال ابن قدامه في المغني (وَجُمْلَتُهُ أَنَّ وَطْءَ الْحَائِضِ قَبْلَ الْغُسْلِ حَرَامٌ، وَإِنْ انْقَطَعَ دَمُهَا فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ. قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ^(٢): هَذَا كَالْإِجْمَاعِ مِنْهُمْ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُرُودِيُّ^(٣): لَا أَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافاً^(٤)). وقد فصل ابن قدامة صاحب المغني أقوال أئمة الفقه في هذه المسألة على نحو ما يلي: وقد ورد الخلاف بين أهل الفقه في "التطهر" الذي به يحل الجماع: فقال بعضهم: هو الاغتسال بالماء، لا يحل لزوجها أن يقربها حتى تغسل جميع بدنهما. وقال بعضهم: هو الوضوء للصلاة. وقال آخرون: بل هو غسل الفرج، فإذا غسلت فرجها، فذلك تطهرها الذي يحل به لزوجها غشائها. (ويرى أبو حنيفة جواز أن تؤتى المرأة إذا انقطع دم الحيض بعد انقضاء أكثر مدة الحيض ولو لم تغتسل. وقال مالك وأحمد: لا تحل حتى ينقطع الحيض وتغتسل بالماء غسل الجنابة)^(٥). عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح". فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما.^(٦) وقوله تعالى: (فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) إجماعاً قال المفسرون في الاعتزال: يعني الجماع في الفرج، لقوله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلا

(١) المرجع السابق، ج ٤، ص: ٣٨٤..

(٢) محمد بن إبراهيم بن المنذر الإمام أبو بكر النيسابوري، نزيل مكة، أحد أعلام هذه الأمة وأخبارها، كان إماماً مجتهداً حافظاً ورعاً، وله التصنيف المفيدة السائرة: كتاب الأوسط وكتاب الإشراف في اختلاف العلماء وكتاب الإجماع والتفسير وكتاب السنن والإجماع والاختلاف، قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي توفي ابن المنذر سنة تسع أو عشر وثلاثمائة، قال الذهبي وهذا ليس بشيء لأن محمد بن يحيى بن عمار لقيه سنة ست عشرة وثلاثمائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (٣/ ١٠٢).

(٣) أحمد بن محمد الحجاج أبو بكر المعروف بالمرودي صاحب أحمد بن حنبل ذكر أبو الحسين بن المنادى أن أمه كانت مرذوبة وكان أبوه خوارزميا وهو المقدم من أصحاب أحمد لورعه وفضله وكان أحمد يأنس به وينبسط إليه. انظر تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب (٤/ ٤٢٣). لزم أحمد دهرًا. وأخذ عنه العلم والعمل، قال إسحاق بن داود: لا أعلم أحدا أقوم بأمر الإسلام من أبي بكر المروذي. وقال أبو بكر بن صدقة: ما علمت أحدا أذب عن الدين من المروذي. قال الخلال: خرج المروذي للغزو فشيوعه إلى سامرا وجعل يردهم فلا يرجعون فحز من وصل معه إلى سامرا نحو خمسين ألف إنسان. مات في جمادى الأولى في سنة خمس وسبعين ومائتين، وغيره أكثر تحصيلاً لفنون الحديث ولكنه كان إماماً في السنة شديد الاتباع، له جلاله عظيمة. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/ ١٥٣).

(٤) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤٠٥هـ، ج ١، ص: ٣٨٧.

(٥) المرجع السابق، ج ١، ص: ٣٨٧.

(٦) انظر: صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سورها والانتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، حديث رقم: ٧٢٠ (١/ ١٦٩).

النكاح" ^(١)؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج ^(٢) عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً، ألقى على فرجها ثوباً ^(٣). وأن مسروقاً ^(٤) ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبي وعلى أهله. فقالت عائشة: أبو عائشة! مرحباً مرحباً. فأذنوا له فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحي. فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها. ^(٥).

٢) قال الله تعالى: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) ^(٦) قال الإمام الطبري: (قول تعالى ذكره: في حاضري المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، رجال يحبون أن يتطهروا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط، والله يحب المتطهرين بالماء) ^(٧) وقال القرطبي: (أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة، وهي مروءة آدمية ووظيفة شرعية) ^(٨).

اختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء، يروى عن ابن عباس

(١) انظر: صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، حديث رقم: ٧٢٠ (١/ ١٦٩)

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٥٨٥.

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب الطهارة - باب في الرجل يصيب منها مادون الجماع، حديث رقم: ٢٧٢ (١/ ١١١). صححه الألباني.

(٤) مسروق بن الأجدع، الإمام، القدوة، العلم، أبو عائشة الوادعي، الهمداني، الكوفي. وهو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله بن مر بن سلمان بن معمر، الهمداني، وعداده في كبار التابعين وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ. قال أبو داود: كان أبو الأجدع أفرس فارس باليمن. وقال الكلبي: شلت يد مسروق يوم القادسية. وقال أحمد بن حنبل، قال ابن عيينة: بقي مسروق بعد علقمة لا يفضل عليه أحد. وقال يحيى بن معين: مسروق ثقة، لا يسأل عن مثله. وقال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحد من أصحاب عبد الله صلى خلف أبي بكر ولقي عمر وعلياً، ولم يرو عن عثمان شيئا وقال العجلي: تابعي ثقة، كان أحد أصحاب عبد الله، الذين يقرئون ويفتون. وكان يصلي حتى ترم قدماه. وقال ابن سعد: كان ثقة له أحاديث صالحة. وعن الشعبي، قال: غشي على مسروق في يوم صائف، وكانت عائشة قد تبنته، فسمى بنته عائشة. لا يعصي ابنته شيئاً. قال: فزلت إليه، فقالت: يا أبتاه أفطر واشرب. قال: ما أردت بي يا بنية؟ قالت: الرفق، قال: يا بنية إنما طلبت الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. قال أبو نعيم: مات سنة اثنتين وستين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٦٣).

(٥) أورده الطبري عند تفسير الآية (٢٢٢) من سورة البقرة، عن كتاب أبي قلابة. وروى البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَتْ إِحْدَانَا إِذَا كَانَتْ حَائِضًا فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبَاشِرَهَا أَمَرَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ فِي فَرْجِ حَيْضَتِهَا ثُمَّ يَبَاشِرَهَا، قَالَتْ: وَأَيْكُمْ يَمْلِكُ إِرْبَهُ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْلِكُ إِرْبَهُ.

(٦) سورة التوبة: ١٠٨.

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٤، ص: ٤٨٢.

(٨) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ٨، ص: ٢٦١.

والضحاك^(١) والحسن. وتعلقوا بقوله: "مَنْ أَوَّلَ يَوْمٍ"، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أول يوم، فإنه بني قبل مسجد النبي ﷺ، قاله ابن عمر وابن المسيب، ومالك. وقالت طائفة هو مسجد النبي ﷺ، روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ: قال تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل هو مسجد قباء، وقال آخر هو مسجد النبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: (هو مسجدي هذا)^(٢). قال حديث صحيح. وبالنظر إلى القول الأول فقد قالت العلماء هو أليق بالقصة، لقوله: "فيه" وضمير الطرف يقتضي الرجال المتطهرين، فهو مسجد قباء. والدليل على ذلك حديث أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء {فِيهِ رِجَالٌ مُّطَهَّرُونَ} أن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ، قال: كانوا يستنجون بالماء فترلت فيهم هذه الآية^(٣). وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ، فَمَا طَهُرُكُمْ؟ قَالُوا: نَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، وَنَعْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَنَسْتَنْجِي بِالْمَاءِ، قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ، فَعَلَيْكُمْوه^(٤). ومع أن حديث أبي سعيد الخدري نص فيه النبي ﷺ على أنه مسجده فمع ثبوت الحديث لا نظر معه في غيره هنا، فهو مقدم في الحكم، وإذا علمنا أن أهل قباء يتزلون إلى مسجد النبي ﷺ ويحضرون الصلاة ويتلقون العلم ويشهدون المواقف، فإن لفظة (فيه) تعود على أهل قباء الذين يصلون في مسجد النبي ﷺ وهم من الأنصار. وعموم حديث أبي أيوب (بامعشر الأنصار) يتقرر به أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد النبي ﷺ وفيه جمع بين الأحاديث الواردة في ذلك. ولمسجد قباء مكانته في الإسلام ولأهله فضل استقبال الرسول ﷺ واستضافته، ففي صحيح السنة ما يبين هذه المكانة، عن أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ^(٥). وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِيًا وَرَاكِبًا، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَفْعَلُهُ^(٦).

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد، وقيل أبو القاسم، صاحب التفسير. كان من أوعية العلم، وليس باخود لحديثه، وهو صدوق في نفسه، وكان له أخوان: محمد ومسلم، وكان يكون ببلخ وبسمرقند. حدث عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر، وأنس بن مالك، وعن الأسود، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاووس، وطائفة. وبعضهم يقول: لم يلق ابن عباس. وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما. وحديثه في السنن لا في الصحيحين. وقد ضعفه يحيى بن سعيد. وقيل: كان يدلس. وله باع كبير في التفسير والقصص. قال سفيان الثوري: كان الضحاك يعلم ولا يأخذ أجرا. وروى ميمون أبو عبد الله عن الضحاك، قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها. وتلا قول الله: (كونوا ربايين بما كنتم تعلمون الكتاب) [آل عمران: ٧٩]. نقل غير واحد وفاة الضحاك في سنة اثنتين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٩٨/٤).

(٢) انظر: سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ - باب ومن سورة التوبة، حديث رقم: ٣٠٩٩ (٢٨٠/٥). وانظر: سنن النسائي - كتاب المساجد - باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، حديث رقم: ٧٧٨ (٣٨٧/١) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، حديث رقم: ١١٨٤٦ (٣٥٨/١٨). صححه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: صحيح.

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب الطهارة - باب في الاستنجاء بالماء، حديث رقم: ٤٤ (١٦/١). وانظر: سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ - باب من سورة التوبة، حديث رقم: ٣١٠٠ (٢٨٠/٥). صححه الألباني.

(٤) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب الطهارة - باب الاستنجاء بالماء، حديث رقم: ٣٥٥ (٣٨٧/١). صححه الألباني.

(٥) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، حديث رقم: ١٤١١ (٤١٦/٢). صححه الألباني.

(٦) انظر: صحيح البخاري - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة - باب مسجد قباء، حديث رقم: ١١٩٤ (٦١/٢). وانظر: صحيح مسلم - كتاب الحج - باب فضل مسجد قباء والصلاة فيه وزيارته، حديث رقم: ٣٤٥٩ (١٢٧/٤).

(٦) الصبر

الصبر في اللغة:

الصبر في اللغة من (صبر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الصاد والباء والراء أصول ثلاثة، الأول الحَبَس، والثاني أعالي الشيء، والثالث جنسٌ من الحجارة).

أورد الجوهري في الصحاح: وقال الأصمعي: الصَّبْرُ السحاب الأبيض الذي يُصْبِرُ بعضُهُ فوق بعض دَرَجًا. والجمع صُبْرٌ. والصَّبْرُ: هذا الدواء المرُّ، والصَّبْرَةُ: واحدة صُبْرٍ الطعام.

وفي لسان العرب لابن منظور: (وأصل الصَّبْر الحَبَس وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَهُ).

الصبر في الاصطلاح الشرعي:

عرف ابن قيم الجوزية يرحمه الله الصبر بقوله: (خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها)^(١). عن صهيب رضي الله عنه قال: «بيننا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك فقال: «ألا تسألوني مم أضحك؟». قالوا: يا رسول الله، ومم تضحك؟ قال: «عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خيرٌ إلا أصابه ما يُحبُّ حمد الله وكان له خيرٌ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خيرٌ، وليس كلُّ أحدٍ أمره كله له خيرٌ إلا المؤمن»^(٢). ومنه نعلم أن من الصبر حبس النفس عن الجزع مما أصابها من المكارة، وقد قسم أهل العلم الصبر، إلى ثلاثة أنواع:

(١) صبر على فعل الطاعة:

إن العبد لا بد له من مجاهدة لعدوه الظاهر والباطن، وبحسب هذا الصبر يكون أدأؤه للمأمورات وفعله للمستحبات. وهو ما يسمى بصبر الطاعة.

النوع الثاني: صبر عن المعصية:

إن النفس ودواعيها وتزيين الشيطان وقرناء السوء تأمره بالمعصية، وتجرئه عليها، فبحسب قوة الصبر يكون تركه لها. وهنا تظهر قوة النفس من ضعفها، فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلا الصابرون الذين امتازوا بالحلم الذي جمع لهم أنواع الصبر، وبه تميز الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون (قال عبيد^(٣) بن الأبرص:

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، بيروت: دار ابن كثير، ط ٣، ١٤٠٩ هـ، ص: ٤.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٣٩٣٠ / ٣٩ / ٣٥٠. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، أبو زياد، من مضر. شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، وهو أحد أصحاب الجمهرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات. عاصر امرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ١١٩).

صَبَرَ النَّفْسَ عِنْدَ كُلِّ مُلِمٍّ.... إِنَّ فِي الصَّبْرِ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ
لَا تُضَيِّقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقَدْ.... تُكْشِفُ غَمَاؤَهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ
رَبِّمَا تَجَزَّعَ النَّفْسُ مِنْ الْأَمْرِ.... لَهُ فُرْجَةٌ كَحِلِّ الْعِقَالِ

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي كِتَابِ الْيَتِيمَةِ: الصَّبْرُ صَبْرَانِ: فَاللَّتَامُ أَصْبَرُ أَجْسَامًا، وَالْكَرَامُ أَصْبَرُ نُفُوسًا. وَلَيْسَ الصَّبْرُ الْمَمْدُوحُ صَاحِبُهُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ قَوِيَّ الْجَسَدِ عَلَى الْكَدِّ وَالْعَمَلِ؛ لَأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْحَمِيرِ، وَلَكِنْ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ غُلُوبًا، وَلِلْأُمُورِ مُتَحَمِّلًا، وَلِجَاشِهِ عِنْدَ الْحِفَاطِ مُرْتَبِطًا^(١).

النوع الثالث: الصبر على ما يُصيبه من المصائب، وهي نوعان:

١- نوع لا اختيار للخلق فيه، كالأُمراضِ وغيرها من المصائب السماوية النازلة، فهذه يسهل الصبر فيها، لأن العبد المؤمن يشهد فيها قضاء الله وقدره، فيصبر إما اضطراراً وإما اختياراً. ومن صبر له الأجر والظفر ومن سخط كان عليه الوزر ولم ينج من حصول القدر المقدر، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا الله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، قد قَدَرَنِي الناس. قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطني لوناً حسناً وجِلداً حسناً. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل - أو قال: البقر - هو شك في ذلك: إن الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر - فأعطني ناقه عُسراء، فقال: يُبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شَعْرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ هَذَا عَنِّي، قد قَدَرَنِي الناس. قال: فمسحه فذهب، وأعطني شعراً حسناً. قال: فأني المال أحب إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يُبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأُبْصِرَ بِهِ الناس. قال: فمسحه، فردَّ الله إليه بصره. قال: فأني المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداء، فأنج هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجلٌ مَسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِهِ الْحَبَالُ فِي سَفَرِهِ فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أسألك - بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بغيراً أتبلغ به في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابراً عن كابر. فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فردَّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ السَّبِيلِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِ الْحَبَالُ فِي سَفَرِهِ، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرَكَ شاةً أتبلغ بها في سفري. وقال له: قد كنت أعمى فردَّ الله

(١) أدب الدنيا والدين، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، القاهرة: دار الفكر للنشر، ص: ٢٧٧.

بصري وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهّدك اليوم بشيء أخذته الله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبك»^(١).

٢- ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه ويشتد، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصدّيقون وأتباعهم. وكان نبينا ﷺ إذا أُوذي يقول: "يرحم الله موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر"^(٢) وعلى هذا فإن أنواع الصبر ثلاثة أقسام أوضحها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله في الفتاوى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}^(٣). وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: اصْبِرْ لِمَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَيْكَ وَقِيلَ اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ لِقَضَاءِ رَبِّكَ الَّذِي هُوَ آتٍ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَحُكْمُ اللَّهِ نَوْعَانِ: خَلْقٌ وَأَمْرٌ. (فَالْأَوَّلُ): مَا يُقَدَّرُ مِنَ الْمَصَائِبِ. وَ (الثاني) مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ لِمَا أُمِرَ بِهِ وَلِمَا نُهِيَ عَنْهُ فَيَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ لِمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ (٤).

ومن الأمور المعينة على الصبر يجب على العبد أن ينظر في حال الطاعة إلى من هو أحسن منه طاعة؛ فيصطبر على الطاعة، ولينظر في حال المعصية إلى من عصى وعظمه الله ونعمته وحلمه عليه، ويطلع على حال الشاكرين ونزاهة الصديقين، وإن كان في حال ابتلاء ومصيبة يجب على العبد أن يشهد ذنوبه ويمحص حاله، وينظر إلى حال المبطلين غيره الذين هم أشد منه بلاء فيتصبر، وفي حال الأذى فلينظر إلى الذي سَلَطَهم عليه وبه يستجير، ولا ينظر إلى فعلهم به فبذلك يستريح من الهم والغم، والصابر الأبواب يشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي كانت سبباً، قال علي بن أبي طالب عليه السلام: لا يرجون عباداً إلا ربّه، ولا يخافون عباداً إلا ذنبه^(٥)، ورؤي عنه أيضاً: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة^(٦). وعلى العبد أن يشهد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر، وقال عمر، رضي الله عنه: (نعم العبدان

(١) انظر: صحيح البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء- باب أبرص وأعمى وأقرأ في بني إسرائيل حديث قم: ٣٤٦٤ (١٧١/٤)، وانظر صحيح مسلم- كتاب الزهد والرقائق- حديث رقم: ٧٦٢٠ (٨/٢١٣).

(٢) انظر: صحيح البخاري- كتاب الدعوات- باب قول الله تعالى (وصل عليهم) ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه، حديث رقم: ٦٣٣٦ (٧٣/٨). وانظر: صحيح مسلم- كتاب الزكاة- باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، حديث رقم: ٢٤٩٤ (٣/١٠٩).

(٣) سورة القلم: ٤٨.

(٤) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحارثي، تحقيق: أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، ط ٣، ١٤٢٦ هـ، ج ٨، ص: ٣٢٥.

(٥) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب الحنبلي، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٢، ١٤١٠ هـ، ص: ٢٣٠.

(٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٨ هـ، ص: ٧٤.

وَنِعَمَ الْعِلَاوَةُ (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ﴿١٦٦﴾ أَوْلَيْكَ هُمْ أَلْمَهْتَدُونَ (١) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (٢) (٣).

وعلى العبد المبتلى من الخلق أن يعلم أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش والغلّ وطلب الانتقام وإرادة الشرّ، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الوهمية الحاصلة له بالانتقام، ويدخل في قوله تعالى: والله يحبّ الْمُحْسِنِينَ، وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شرّ عَجَزَ صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهبت نفوس ومصالح ومنافع بسبب الانتقام. ولو يعلم الصابر أنّ هذه المَظْلَمَةَ التي ظَلَمَهَا هي سبب إمّا لتكفير سيئته، أو رفع درجته؛ لأحسن الصنيع ولم ينتقم، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مُكْفَرَةً لسيئته ولا رافعةً لدرجته، فإن المنفعة الحقيقية في الحرص على الصبر، بل على الصبر الجميل، حيث هو سبيل الأنبياء والصديقين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإنّ الله أمر نبيه بالهَجْرِ الْجَمِيلِ وَالصَّفْحِ الْجَمِيلِ وَالصَّبْرِ الْجَمِيلِ "فَالْهَجْرُ الْجَمِيلُ" هَجْرٌ بَلَا أذى وَ"الصَّفْحُ الْجَمِيلُ" صَفْحٌ بَلَا عتاب وَ"الصَّبْرُ الْجَمِيلُ" صَبْرٌ بَلَا شكوى قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ (٤) مَعَ قَوْلِهِ: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (٥) فَالشَّكْوَى إِلَى اللَّهِ لَا تُنَافِي الصَّبْرَ الْجَمِيلَ (٦) وفي مجموع الفتاوى قال يرحمه الله: (قُرِئَ عَلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ أَنَّ طَاوَسًا كَرِهَ أَيْنَ الْمَرِيضِ. وَقَالَ: إِنَّهُ شَكْوَى. فَمَا أَنْ حَتَّى مَاتَ) (٧).

وهنا أعرض ماورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح، من محبة الله للصابرين، وفق ما يلي:

قال الله تعالى: (وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْآصِرِينَ) (٨). حكى الإمام ابن جرير الطبري (٩)، عن بعض نخاة البصرة: أن الربيين هم الذين يعبدون الرب، عز وجل، قال: ورد بعضهم عليه قال: لو كان كذلك لقليل ربيون، بفتح الراء.

(١) سورة البقرة: ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.

(٣) انظر: صحيح البخاري- كتاب الجنائز- باب الصبر عند الصدمة الأولى حديث رقم: ١٣٠١ (٨٢/٢).

(٤) سورة يوسف: ٨٦.

(٥) سورة يوسف: ١٨.

(٦) الزهد والورع والعبادة، تحقيق: حماد سلامة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الأردن: مكتبة المنار، ط ١، ١٤٠٧هـ، ص: ٩٩.

(٧) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحارثي، تحقيق: أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، ط ٣، ١٤٢٦هـ، ج ١٠، ص: ٦٦٧.

(٨) سورة آل عمران: ١٤٦.

(٩) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٧، ص: ٢٦٥.

وأورد البغوي في تفسيره (وقوله {رَبِّيُونَ كَثِيرٌ} قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: جموع كثيرة، وقال ابن مسعود: الربيون الألو، وقال الكلبي الربية الواحدة: عشرة آلاف، وقال الضحاك: الربية الواحدة: ألف، وقال الحسن: فقهاء علماء، وقيل: هم الأتباع والربانيون الولاة، والربيون الرعية، وقيل: منسوب إلى الرب وهم الذين يعبدون الرب، {فَمَا وَهَنُوا} أي: فما جبنوا، {لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا} عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب. {وَمَا اسْتَكَاثُوا} قال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم، وقال السدي: وما ذلوا، قال عطاء وما تضرعوا وقال أبو العالية^(١): وما جبنوا ولكنهم صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم، {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} ^(٢). قال القرطبي: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) يعني الصابرين على الجهاد^(٣). وقد ثبتت معية الله للصابرين المعية الخاصة بالحفظ والعون وجعله لزيمة الصلاة في الحث على الاستعانة به في النوائب، قال الله تعالى: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(٤) وقدمه على الصلاة في الذكر لأن الصلاة فيه جزء منه، والنبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقال الله تعالى: (وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(٥)

(٧) التوكل

التوكل في اللغة:

التوكل في اللغة من (وكل) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الواو والكاف واللام: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على اعتمادٍ غيرِك في أمرِك. من ذلك الوَكْلة، والوَكَل: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ. يقولون وَكَلَّةٌ تُكَلَّةٌ. والتوكل منه، وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك).
أورد الجوهري في الصحاح: (فرسٌ وَاكَلٌ: يَتَكَلُّ على صاحبه في العدو ويحتاج إلى الضرب، يقال: دَابَّةٌ فيها وَاكَلٌ شديدٌ، ووَكَالٌ شديدٌ. والوَكِيلُ معروفٌ. يقال: وَكَلْتُهُ بأمر كذا تَوَكَّيلاً).

(١) أبو العالية رفيع بن مهران، الإمام المرقئ الحافظ المفسر، أبو العالية الرياحي البصري، أحد الأعلام، كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع، ثم من بني تميم. أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه. وسمع من عمر، وعلي، وأبي، وأبي ذر، وابن مسعود، وعائشة، وأبي موسى، وأبي أيوب، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعدة. وحفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب، وتصدر في العلم، وبعد صيته. قال أبو بكر بن أبي داود: وليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير. وقد وثق أبا العالية الحافظان أبو زرعة وأبو حاتم. وقال البخاري وغيره: مات سنة ثلاث وتسعين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٧/٤).

(٢) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ هـ، ج ٢، ص: ١١٧.

(٣) - الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤ هـ، ج ٤، ص: ٢٣١.

(٤) سورة البقرة: ١٥٣.

(٥) سورة الأنفال: ٤٦.

وفي لسان العرب لابن منظور : (يقال توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي أَلجأته إليه، واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقةً بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه، ووكل إليه الأمر سلمه، ووكله إلى رأيه وكلاً ووُكُلاً تركه).

التوكل في الاصطلاح الشرعي:

اختلفت عبارات السلف في تعريف التوكل على الله تبعاً لتفسيره، تارة بأسبابه ودواعيه، وتارة بدرجاته، وتارة بلازمه، وتارة بشمراته، وغير ذلك من متعلقاته. وسبب هذا الاختلاف أن التوكل من أحوال القلوب وأعمالها، وهي صعبة أن تحد بحد أو تحصر بلفظ.

قال ابن عباس^(١) رضي الله عنهما: التوكل هو الثقة بالله.

قال الإمام أحمد^(٢) يرحمه الله: هو قطع الاستشراف بالإيأس من الخلق، وقال: وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به، وعرفه ابن رجب^(٣) الحنبلي: هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها.

وقال سعيد^(٤) بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان. وقال سهل^(٥) بن عبد الله: من طعن في الاكتساب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

وأورد ابن حجر^(٦) يرحمه الله علاقة التوكل بالأسباب بقوله: (وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب).

والتوكل نوع من أنواع العبادة القلبية، ففي الدرر السنية في الأجوبة النجدية أن التوكل يعني (إسناد العبد أمره إلى الله وحده لا شريك له في جميع أموره الدينية والدنيوية)^(٧).

(١) تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ، ج ٤ ، ص: ١٨٩ .

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب الحنبلي، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ، ص: ٤٣٩ .

(٣) المرجع السابق: ص: ٤٣٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ، ج ٤ ، ص: ١٢ .

(٥) تلييس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ط ١ ، ١٤٢١ هـ، ج ١ ، ص: ٢٤٨ .

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة ، ١٣٧٩ هـ، ج ٣ ، ص: ٣٨٤ .

(٧) الدرر السنية في الكتب النجدية، علماء نجد الأعلام من عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عصرنا هذا، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط ٦ ، ١٤١٧ هـ، ج ١٣ ، ص: ١٥٤ .

قال ابن جزري: (التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضار ورفعها بعد وقوعها. وهو من أعلى المقامات، لوجهين: أحدهما قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ»^(١) والآخر: الضمان الذي في قوله: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»^(٢) وقد يكون واجباً لقوله تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»^(٣) فجعله شرطاً في الإيمان، والظاهر قوله جل جلاله، «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»^(٤) فإن الأمر محمول على الوجوب. واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب: الأولى: أن يعتمد العبد على ربه، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له، وقيامه بمصالحه. والثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه، فإنه لا يعرف سواها، ولا يلجأ إلا إليها. والثالثة: أن يكون العبد مع ربه: كالميت بين يدي الغاسل، قد أسلم نفسه إليه بالكلية. فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية، وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختيار بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص الذي تكلمنا عليه في قوله: «وَاللَّهُ كُفُّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ»^(٥) فهي تقوى بقوته، وتضعف بضعفه^(٦). قال ابن القيم: (هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفردده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فيوجب له اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه)^(٧). والتوكل مخالف للتواكل لأن التواكل: ترك الكسب والطمع في المخلوقين والاعتماد عليهم، بالتخلي عن الأسباب التي وضعها الله عز وجل، والانقطاع عن السعي والتقاعد عن العمل، وانتظار النتائج من الخلق أو القدر، أو الاتكال على الله بأن يخرق له العوائد. ولأصحاب هذا المفهوم أدلة تخالف الفهم الصحيح؛ كونها في معزل عن بقية الأدلة. وحيث التواكل ضعف همة وبعد عن المروءة؛ لأنه يبطل حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الأسباب. فقد حارب الإسلام التواكل وحذر منه، وهو حرام ليس من الشرع أصلاً، وهو مخالف للنصوص كما أسلفنا. ومختصر القول في التوكل أنه خلق عظيم من أخلاق الإسلام، وهو من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقربين وهو من دلائل التوحيد وجماع الأمر في السير إلى الله عقيدة وعبادة؛ فهو من أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان، الذي هو أجل وأعظم ما تعبد الله تعالى به.

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) سورة الطلاق: ٣.

(٣) سورة المائدة: ٢٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٢٢.

(٥) سورة البقرة: ١٦٣.

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزري الكلبي الغرناطي، تحقيق: محمد عبد المنعم اليونسي وإبراهيم عطوه عوض، القاهرة: أم القرى للطباعة والنشر، ج ١، ص: ١١٣.

(٧) التفسير القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨هـ، ص: ٧٢.

والتوكل من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة حيث يقترب بمراتب الدين الثلاث (الإيمان والإسلام والإحسان) وشعائره العظام، كما أنه نصف الدين والإنابة نصفه الثاني في مفهوم قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) ومترلته أوسع المنازل وأجمعها، وهو مفتاح كل خير، وهو فريضة يجب إخلاصه لله تعالى ومن الآيات الكثيرة الآمرة به، قوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بل إن العبد يستحق به محبة الله وذلك الفوز العظيم، فإن الله يحب المتوكلين.

وهنا أعرض ما ورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح من محبة الله للمتوكلين وفق ما يلي:

قال الله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ^(١) أورد القرطبي في تفسير هذه الآية معنى التوكل بقوله: (التوكل: الاعتماد على الله مع إظهار العجز، والاسم التكلان. يقال منه: اتكلت عليه في أمري، وأصله: "اتكلت" قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال. ويقال: وكلته بأمري توكيلاً، والاسم الوكالة بكسر الواو وفتحها. واختلف العلماء في التوكل، فقالت طائفة من المتصوفة: لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله من سبع أو غيره، وحتى يترك السعي في طلب الرزق لضمان الله تعالى. وقال عامة الفقهاء: ما تقدم ذكره عند قوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) ^(٢). وهو الصحيح كما بيناه. وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله "لا تخافا". وقال: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى) ^(٣) قُلْنَا لَا تَخَفْ ^(٤) وأخبر عن إبراهيم بقوله: (فَلَمَّا رَأَى أَنِّي أَخْلُقُ مِنْ نَارٍ وَلَمْ يَكُن لِّيَ كِبَرُهَا عَلَى الْعِلْمِ قَالَ إِنَّهُ خِيفَةُ قَالَوَا لَا تَخَفْ) ^(٥) فإذا كان الخليل وموسى الكليم قد خافا وحسبك بهما - فغيرهما أولى ^(٦) وقد جاءت السنة ببيان فضل التوكل على الله وأن صاحبه بحق، من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، كما في حديث عكاشة بن محصن المعروف ^(٦)، ورغب الرسول ﷺ المسلمين في التوكل على الله، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ أَنَّكُمْ

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٠.

(٣) سورة طه: ٦٧ - ٦٨.

(٤) سورة هود: ٧٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ٤، ص: ٢٥٣.

(٦) انظر: صحيح البخاري - كتاب الطب - باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، حديث رقم: ٥٧٠٥ (٧/ ١٢٦) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب حديث رقم: ٥٤٧ (١/ ١٣٧).

كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو حِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا^(١). ومن مفهوم الحديث الحث على تحقيق معنى التوكل بتحقيق قوة الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب كما تسعى الطير إلى طلب رزقها فتحصل لها وفرة الرزق وسهولة تحصيله. وقد جعل أبو علي الدقاق^(٢) التوكل أولى درجات الاعتماد على الله وهي ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض^(٣).

وتنقسم مواقف الناس من الأسباب والأخذ بها إلى أربعة أقسام:

(١) الالتفات إلى الأسباب بالكلية واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر لمسببها: كنظرة الماديين والعقلانيين فوقعوا في الشرك لأنهم أثبتوا موجداً مع الله مستقلاً بالضر والنفع، وهذا باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع، كما أن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها بإذن الله كما يشهد لذلك الحسن.

(٢) الإعراض عن الأسباب بالكلية: كنظر غلاة الصوفية للتوكل، فهم لا يرون تحقيق التوكل إلا في ترك الأسباب بالكلية، فتركوا التكسب والعمل والاحتراز والاحتياط والتزود في السفر والطعام ويرون ذلك كله منافياً للتوكل، ولهم شبه ضعيفة أجاب عنها العلماء اخفقون كمحمد بن الحسن الشيباني^(٤) في كتابه (الاكتساب في الرزق المستطاب) والخلال^(٥) في كتابه (الحث على التجارة والصناعة والعمل) والحارث

(١) انظر: سنن الترمذي - كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ - باب في التوكل على الله، حديث رقم: ٢٣٤٤ (٥٧٣/٤)، وانظر: مسند الإمام - مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، حديث رقم: ٢٠٥ (٣٣٢/١) صححه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: صحيح.

(٢) أبو علي الدقاق، الحسن بن علي بن محمد بن إسحاق بن عبد الرحيم بن أحمد، شيخ الأستاذ أبي القاسم القشيري، تفقه على الحضري والقفال، وصحب في التصوف أبا القاسم النصراباذي، نيسابوري الأصل، تعلم العربية وحصل علم الأصول، وخرج إلى مرو وتفقه بها على الحضري وبرع في الفقه، وأعاد على الشيخ أبي بكر القفال المروزي، ولما استمع ما يحتاج إليه من العلوم، أخذ في العمل وسلك طريق التصوف وصحب الأستاذ أبا القاسم النصراباذي، توفي في ذي الحجة سنة خمس وأربع مائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى لعبد الكافي السبكي (٣٢٩/٤).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٩٣ هـ، ج ٢، ص: ١١٧.

(٤) محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، أصله من قرية بدمشق يقال لها "حرسا" ومولده بواسط، صحب أبا حنيفة وعنه أخذ الفقه ثم عن أبي يوسف. وله كتب عديدة، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة فيمن نشره. قال محمد بن الحسن: أقمت على مالك ثلاث سنين، وسمعت منه سبعمائة حديث ونيفاً. وعن الشافعي قال: سمعت أنه قال: أخذت من محمد بن الحسن وقرأ بعير، وما رأيت رجلاً سمياً أخف روحاً منه، وكان روحاً كله وكان يملأ القلب والعين. وعن أبي عبيد قال: ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن. وكان مقدماً في علم العربية، والنحو، والحساب. ولي قضاء الرقة للرشد، ثم قضاء الري، وبها مات، سنة تسع وثمانين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، في اليوم الذي مات فيه الكسائي، فقال الرشيد: دفن الفقه والعربية بالري. انظر: تاج التراجم لأبي الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السوداني (٢٣٧/١).

(٥) العلامة، الحافظ الفقيه، شيخ الحنابلة وعالمهم، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الحلال. وُلِدَ: فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ، أَوْ فِي الثَّانِي تَلِيهَا، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَأَى الْإِمَامَ أَحْمَدَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَ الْفَقْهَ عَنْ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَرَحَلَ إِلَى فَارَسَ، وَإِلَى الشَّامِ، وَالْجَزِيرَةِ يَتَطَلَّبُ فِقْهَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَفَتَاوِيهِ وَأَجَوِبَتِهِ، وَكَتَبَ عَنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ، حَتَّى كَتَبَ عَنْ تَلَامِذَتِهِ، وَجَمَعَ فَأَرَعَى، ثُمَّ إِنَّهُ صَنَّفَ كِتَابَ (الْجَامِعِ فِي الْفِقْهِ)، حَدَّثَ عَنْهُ: الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ جَعْفَرٍ - غُلَامُ الْحَلَالِ - وَأَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُظْفَرِ، وَطَائِفَةٌ. قَالَ

الحاسبي^(١) في كتابه (المكاسب) وابن تيمية وابن الجوزي وابن القيم وابن مفلح^(٢) وابن رجب. كما أن الإعراض عن الكسب والحمول بدعوى التوكل، له آفات ومفاسد يصعب حصرها. وهذا الموقف أي (الإعراض عن الأسباب بالكلية) حكم عليه العلماء بأنه قدح في الشرع.

٣) نفي تأثير الأسباب بالكلية: وصف العلماء هذا القول بأنه (نقص في العقل) وهو قول القدرية الجبرية، وهم يرون أن الله لم يخلق شيئاً سبباً، ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر. وغرضهم الرد على القدرية النفاة لكنهم ردوا باطلاً بباطل. وهذا الموقف فاسد باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع لأن العالم بين أمر الله القدري قال الله تعالى: (وكل شيء خلقناه بقدر)^(٣) وقوله تعالى: (فأتبع سبباً)^(٤) وبين أمر الله الشرعي في قوله تعالى: (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم)^(٥).

٤) قيام الجوارح بالأسباب واعتماد القلب على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى: هذا مذهب أهل السنة والجماعة وهو الحق الذي دل عليه الشرع والعقل وهو الوسط في كل مذهب فأنبت للأسباب تأثيراً في مسبباتها، لكن لا بذاتها بل بما أودعه الله فيها من القوى الموجبة، وهي تحت مشيئته وقدرته فإن شاء منع اقتضاءها وإن شاء جعلها مقتضية لأحكامها، فإن أهل السنة والجماعة يوجبون الأخذ بالأسباب ويعتقدون عدم منافاتها للتوكل؛ بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، ويكون التوكل على

الخطيب في (تاريخه): جَمَعَ الْحَالَّ غُلُومَ أَحْمَدَ وَتَطَلَّبَهَا، وَسَافَرَ لِأَجْلِهَا، وَكَتَبَهَا، وَصَنَّفَهَا كِتَاباً، لَمْ يَكُنْ - فِيمَنْ يَنْتَحِلُ مَذْهَبَ أَحْمَدَ - أَحَدٌ أَجْمَعَ لِذَلِكَ مِنْهُ. تُوُفِّيَ فِي شَهْرِ رَيْبَعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ، وَلَهُ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٧ / ٣٣٤).

(١) أبو عبد الله الحارث بن أسد الحاسبي البصري الأصل، الزاهد المشهور، وله كتب في الزهد والأصول وكتاب " الرعاية " له، وكان قد ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً، قيل: لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ ميراثه، وقال: صحت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يتوارث أهل ملتين شتى)، ومات وهو محتاج إلى درهم. وسئل عن العقل ما هو؟ فقال: نور الغريزة مع التجارب، يزيد ويقوى بالعلم والحلم. وكان يقول: فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء. والحاسبي: بضم الميم وفتح الحاء المهملة وبعد الألف سين مهملة مكسورة وبعدها باء موحدة. قال السمعاني: وعرف بهذه النسبة، لأنه كان يحاسب نفسه، وقال: كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه يكرهه نظره في علم الكلام وتصنيفه فيه، وهجره فاستخفى من العامة، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة نفر. وله مع الجنيد بن محمد حكايات مشهورة. وتوفي في سنة ثلاث وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى. انظر: وفيات الأعيان لأبي بكر بن خلكان (٢ / ٥٧).

(٢) محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامني ثم الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولد في بيت المقدس سنة (٧٠٨)، وتوفي بدمشق سنة (٧٦٣)، من تصانيفه (كتاب الفروع) و (النكت والفوائد السننية على مشكل المحرر لابن تيمية) في الفقه، وكتاب (أصول الفقه) و (الآداب الشرعية الكبرى)، وله شرح على (المقنع) نحو ثلاثين جزءاً. انظر: الإعلام للزركلي (٧ / ١٠٧)، وانظر: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، لإبراهيم ابن مفلح (٢ / ٥١٧).

(٣) سورة القمر: ٤٩.

(٤) سورة الكهف: ٨٥.

(٥) سورة الأعراف: ٣.

الخالق إيماناً جازماً أنه بيده ملكوت كل شيء، مع اتباع الأسباب في ظاهر الحال فقط قال تعالى: (وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُمْ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)^(١). وفي جانب الرزق قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَلِلَّهِ النُّشُورُ)^(٢).

(٨) القتال في سبيل الله صفا

القتال في اللغة:

القتال في اللغة من (قتل) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (القاف والتاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على إذلال وإماتة. يقال: قَتَلَهُ قَتْلًا. والقَتْلَةُ: الحالُ يُقْتَلُ عليها. أورد الجوهري في الصحاح: (والمقاتلة: القتال. وقد قاتلته قِتالًا وقِتالًا. وهو من كلام العرب. والمقاتلة، بكسر التاء: القوم الذين يصلحون للقتال. والقَتْلُ بالكسر: العدو. وقال: واغترابي عن عامر بن لُؤي... في بلاد كثيرة الأقتال)^(٣) وفي لسان العرب لابن منظور: (ويقال قاتل الله فلاناً أي عاداه وفي الحديث قاتل الله اليهود أي قتلهم الله، وقيل: لعنهم الله، وقيل عاداهم، قال ابن الأثير: وقد تكرر في الحديث، ولا يخرج عن أحد هذه المعاني. قال: وقد يرد بمعنى التعجب من الشيء كقولهم تَرَبَّتْ يده)

القتال في الاصطلاح الشرعي:

القتال في سبيل الله هو نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى، يمثل في الغالب أعلى درجاته وهو دفع الأعداء بالنفس والسلاح في ميدان المعركة.

وما ورد في القرآن الكريم بلفظ الحب الصريح من محبة الله للمقاتلين في سبيل الله صفا ما يلي:

قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بُنِينَ مَرْصُوعِينَ)^(٤)، عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام عليه السلام، قال: «تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة، - يعني سورة الصف كلها - «^(٥). أورد القرطبي في تفسيره، قال: فيه ثلاث مسائل:

(١) سورة يوسف: ٦٧.

(٢) سورة الملك: ١٥.

(٣) للشاعر: عبد الله بن قيس الرقيات. انظر: إصلاح المنطق، لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت، تحقيق: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دار المعارف، ط ٤، ١٩٩٤م، ص: ١٦.

(٤) سورة الصف: ٤.

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنهم حديث رقم: ٢٣٧٨٨ (٣٩ / ٢٠٥) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إنسانه صحيح على شرط الشيخين.

الأولى- قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا) أي يصفون صفا: والمفعول مضمر، أي يصفون أنفسهم صفا. (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) قال الفراء: مرصوص بالرصاص. وقال المبرد: هو من رصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة. وقيل: هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض. والتراص التلاصق، ومنه وتراصوا في الصف. ومعنى الآية: يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء. وقال سعيد بن جبير^(١): هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم.

الثانية- وقد استدل بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الرجل أفضل من قتال الفارس، لأن الفرسان لا يصفون على هذه الصفة. المهدوي^(٢): وذلك غير مستقيم، لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة. ولا يخرج الفرسان من معنى الآية، لأن معناه الثبات.

الثالثة- لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان أو في رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها. وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين أحدهما: أنه لا بأس بذلك إرهابا للعدو، وطلباً للشهادة وتحريضاً على القتال. وقال أصحابنا^(٣): لا يبرز أحد طالبا لذلك، لأن فيه رياء وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو. وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبي ﷺ يوم بدر وفي غزوة خيبر، وعليه درج السلف^(٤). وهنا نعلم أن القتال في سبيل الله يندرج فيه حالات، وتقوم عليه أحكام، ومن حالاته: الاستعداد والتخطيط والهجوم والدفاع وحسم النتائج، وحصر الغنائم، وإن كانت الصورة القتالية في الآية تحت على قوة الاستعداد المادي والمعنوي، بالحرص على إظهار قوة التماسك بحسن الصف وقوة الرص والثبات فيه، فإن المسلم

(١) سعيد بن جبير بن هشام، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي الوالي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام، روى عن ابن عباس فأكثر وجود، وعن عبد الله بن مغفل، وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري في سنن النسائي، وأبي هريرة، وروى عن التابعين، مثل أبي عبد الرحمن السلمي. وكان من كبار العلماء. قرأ القرآن على ابن عباس. وعن عمر بن حبيب، قال: كان سعيد بن جبير بأصبهان لا يحدث، ثم رجع إلى الكوفة فجعل يحدث، فقلنا له في ذلك فقال: انشر برك حيث تعرف، قال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير بفارس، وكان يتحزن، يقول: ليس أحد يسألني عن شيء، وكان يكيئنا، ثم عسى أن لا يقوم حتى نضحك. قتل في زمن الحجاج، قال سالم بن أبي حفصة لما أتى الحجاج بسعيد بن جبير، قال: أنا سعيد بن جبير، قال: أنت شقي بن كسير، لأقتلنك. قال: فإذا أنا كما سمعتني أمي، ثم قال: دعوني أصل ركعتين. قال: وجهوه إلى قبلة النصارى. قال: (أيما تولوا فثم وجه الله)، وقال: إني أستعبد منك بما عازت به مريم. قال: وما عازت به؟ قال: قالت: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا). رواها ابن عيينة، عن سالم. ثم قال ابن عيينة: لم يقتل بعد سعيد إلا رجلا واحدا. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٢١).

(٢) أحمد بن عمار أبو العباس، العالم الفاضل المهدوي، صاحب التفسير، كان مقدما في القراءات والعربية ألف كتابا مفيدة، روى عن أبي الحسن القاسبي، وأخذ عنه أبو محمد غانم بن وليد المالقي، وقد كانت وفاته في حدود سنة ثلاث وأربعمائة، انظر: طبقات المفسرين للأندروني (٩٧/١). مقرئ أندلسي أصله من المهديّة بالقيروان. رحل إلى الأندلس، وصنف كتابا، منها (التفصيل الجامع لعلوم التزويل) وهو تفسير كبير للآيات، يذكر القراءات والاعراب، واختصره وسماه (التحصيل في مختصر التفصيل) انظر: الإعلام للزركلي (١/ ١٨٤).

(٣) أصحاب المذهب المالكي.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ١٨، ص: ٨١ - ٨٢.

المقاتل مأمور أيضا بالحفاظ على هذه القوة بتماسك الجماعة المقاتلة في الهجوم والدفاع، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۚ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(١) وهذه حالة من حالات القتال في سبيل الله التي يتقدم المسلمون فيها من العدو وهم في حاجة قوية للتماسك وشد العزم، وتمثل حالة حرج وخطر وقد أبان ذلك مجملًا الشيخ السعدي في تفسيره قال: (يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقترب بعضهم من بعض، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهابا للكافرين. ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مقره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فارا، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم. أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة^(٢)

(١) سورة الأنفال: ١٥-١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٣١٧.

القسم الثاني

محاب الله الواردة بلفظ الحب الصريح في السنة النبوية

أولاً: محاب الله العقدية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) الحنيفية السمحة

(٢) أصحاب النبي ﷺ

(٣) المحبة في الله

(٤) العبد التقي الغني الخفي

(٥) أحب الأسماء إلى الله

ثانياً: محاب الله العبادية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) أحب الأعمال الصالحة إلى الله ووقتها محبوب.

(٢) الوتر.

(٣) أحب الكلام إلى الله.

(٤) سؤال الله.

(٥) قطرتان وأثران في سبيل الله .

(٦) العطاس وحمد الله بعده.

(٧) الأخذ بالرخص وإتيان العزائم.

ثالثاً: محاب الله الأخلاقية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) مكارم الأخلاق (حسن الخلق)

(٢) الحياء والستر.

(٣) العفو

(٤) الجمال.

(٥) المدح والعذر والغيرة والخيلاء

رابعاً: محاب الله العملية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) الرفق

(٢) رؤية أثر النعمة على العبد

(٣) اتقان العمل.

(٤) سماحة البيع والشراء والقضاء

أولاً: محاب الله العقدية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) الحنيفية السمحة

الحنيفية في اللغة:

الحنيفية في اللغة من (حنف) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الحاء والنون والفاء أصل مستقيم، وهو الميل. يقال للذي يمشي على ظهور قدميه أحنف)

وأورد الجوهري في الصحاح: (والحنيف: المسلم؛ وقد سمي المستقيم بذلك كما سمي الغراب أعور. وتحنف الرجل، أي عمل عمل الحنيفية، ويقال: اختن، ويقال: اعتزل الأصنام وتعبد)

وفي لسان العرب لابن منظور (وقال الزجاج نصب حنيفاً في هذه الآية على الحال، المعنى بل نتبع ملة إبراهيم في حال حنيفيته ومعنى الحنيفية في اللغة الميل والمعنى أن إبراهيم حنف إلى دين الله ودين الإسلام).

ومما ورد في السنة النبوية بلفظ الحب الصريح من محبة الله للحنيفية السمحة:

بواب الإمام البخاري باب الدين يسر وقول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»^(١)، وعند الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: « قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة»^(٢)»^(٣).

قال الراغب الأصفهاني: (الحنف: هو ميل عن الضلال، إلى الإسلام)^(٤) وقيل الحنف عكس الجنف (الحنف ميل عن الضلال إلى الاستقامة، و الجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال)^(٥) وفي الجاهلية يدعى كل من اختن وحج البيت حنيفاً، على ما فعل إبراهيم من الاختن وأذانه بالحج إلى البيت، وعندما جاء الإسلام ارتبطت الحنيفية بالتوحيد على ملة إبراهيم عليه السلام، فكل من مال عن الشرك إلى التوحيد فهو حنيف، ومن لوازمها القيام بشعائر الإسلام. ويدل الحديث على أن السمحة صفة الحنيفية ومعناها السهلة، والملة السمحة التي لا حرج فيها ولا تضيق فيها على الناس، وهي ملة الإسلام التي بعث بها النبي ﷺ، ومنه نعلم أن الإسلام دين اليسر في المأمورات والمنهيات حين بذل الجهد والقدرة المستطاعة تحقيقاً للتقوى بأداء

(١) انظر: صحيح البخاري-كتاب الإيمان- باب الدين يسر (١٦/١) .

(٢) أما حديث أبي أمامة وفيه قول النبي ﷺ: إن لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة (رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه الكبير، فقد ضعفه شعيب الأرنؤوط وغيره.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند بني هاشم رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢١٠٧ (٤ / ١٦) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: صحيح لغيره.

(٤) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاي، مصر: شركة مكتبة الباي والخلي، ١٣٨١هـ، ص: ١٣٣.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤١٠هـ، ص:

الفرائض والواجبات والانتهاز عن المنهيات. وقد شارك الإسلام الأديان السماوية قبله في الأصل وهو التوحيد وتميز في تشريعاته عنها، فمن مميزاته السماحة ومن أجل مظاهرها:

أ) الأمر بالعبادة المشروعة المستطاعة في نسق الحياة المتوازنة، والنهي عن الرهينة في الإسلام وفك الأغلال وتحليل الأصر التي كانت على من قبل.

ب) الأمر بالوسطية والاعتدال، والنهي عن التنطع، لأن الأمر في الإسلام وسط فلا إفراط ولا تفريط. قال الله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(١)

ج) الأمر بالصبر والصبر، وفتح باب الأمل إيماناً بالقضاء والقدر، مع النهي عن القنوط واليأس، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويغفر الذنوب جميعاً، ورحمة الله وسعت كل شيء.

د) إقامة العدل وإشاعة السلام ومنع الظلم والعدوان والنهي عن الفواحش والآثام.

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشمة وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث »^(٢). ويدل الحديث على أن الدين الحق ما أوصل صاحبه إلى السلامة، وسلك به طريق الاستقامة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أعظم الكرامة لزوم الاستقامة)^(٣)، وقيل للحنيف المائل مستقيماً، حيث قيل للأعرج: حنيفاً، تأملاً ونظراً له إلى السلامة أي: تفاؤلاً. ومعنى الحنيف: المسلم المائل إلى الدين المستقيم والجمع حنفاء. وتحنف أي تحرى الدين المستقيم. وإن كلمة حنيف التي معناها اللغوي الصرف هو أنها تطلق على من برجله عرج أي انحراف، فإن المعنى الاصطلاحي تطور من الحنف (العرج والاعوجاج) إلى تنكب الطريق الخاطئة، والميل إلى الطريق الصحيحة المخالفة لعوج ما عليه الآخرون، ويرونها سليمة لا عوج فيها، والتزمت بإبراهيم عليه السلام وطريقته التي سار عليها، وهي طريق مخالف لما كان قومه يتخذون من طرق يحسبونها صحيحة وهي في حقيقتها معوجة، فميل إبراهيم استقامة، وكل من مضى على ملته وطريقته فهو حنيفاً مستقيماً، فأصبحت الكلمة تطلق على كل من ابتعد عن دين اليهود والنصارى، وعن أوثان العرب وشركهم. ومنه القول (دين محمد حنيف) أي مستقيم لا عوج فيه. وقد وردت كلمة حنيف وجمعها (حنفاء) اثني عشرة

(١) سورة هود: ١١٢.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حديث رقم: ٣٦٧٢ (١٨٩/٦) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف لضعف الصباح بن محمد، وقال الذهبي: رفع حديثين هما من قول عبد الله، قلنا (الأرناؤوط): هما هذا والذي قبله (حديث: استحيوا من الله...). وقال الدارقطني في العلل: والصحيح موقوف.

(٣) أمراض القلب وشفاؤها، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، القاهرة: المطبعة السلفية، ط ٢، ١٣٩٩هـ، ص:

مرة في القرآن الكريم، ويعارض بلفظ الحنيف لفظ المشرك؛ حيث الدين الحنيف هو دين الإنسان في أول نشأته (دين الفطرة)، حيث مال إليه المسلم بعد انحراف غيره عنه، ومما يؤكد هنا وجوب التمييز بين الحنيف وبين اليهودي أو المسيحي، قال الله تعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى يَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(١) وأورد البغوي في تفسيره: (قال مجاهد: الحنيفية اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماما للناس، قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصله من الحنف، وهو ميل وعوج يكون في القدم، وقال سعيد بن جبير: الحنيف هو الحاج المختن. وقال الضحاك: إذا كان مع الحنيف المسلم فهو الحاج، وإذا لم يكن مع المسلم فهو المسلم)^(٢).

وأورد الإمام ابن كثير يرحمه الله في تفسيره: (عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد فتتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى يَهْتَدُوا) وقوله (بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) "أي: لا نريد ما دعوت إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)"^(٣). أي الإسلام بالتوحيد ونبد الشرك وعليه تجمع الأقوال في معنى حنيفا وقد تعددت التأويلات فيه كما يلي:

(قال محمد بن كعب القرظي)^(٤): مستقيما. وقال ابن عباس: حاجًا....، وقال أبو العالية^(٥): الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. وقال مجاهد: حنيفًا، أي: متبعًا. وقال أبو قلابة^(٦): الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله، عز وجل والختان^(٧).

(١) سورة البقرة: ١٣٥.

(٢) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ هـ، ج ١، ص: ١٥٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ج ١، ص: ٤٤٨.

(٤) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام.

(٥) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام.

(٦) أبو قلابة عبد الله بن زيد بن عمرو أو عامر بن نائل بن مالك، الإمام، شيخ الإسلام، أبو قلابة الجرمي البصري، قدم الشام، حدث عن ثابت بن الضحاك، وعن أنس، ومالك بن الحويرث، وعن حذيفة في سنن، قال ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث، وكان ديوانه بالشام. وقال علي بن أبي حمزة: قدم علينا مسلم بن يسار دمشق، فقلنا له: يا أبا عبد الله، لو علم الله أن بالعراق من هو أفضل منك، لجاءنا به، كيف لو رأيتم عبد الله بن زيد أبا قلابة الجرمي! قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى قدم علينا أبو قلابة. قال القاضي عبد الجبار بن محمد الخولاني في تاريخ داريا: مولد أبي قلابة بالبصرة، وقدم [الشام] فترل داريا وسكن بها عند ابن عمه بيهس بن صهيب بن عامل بن نائل، وقال أحمد بن عبد الله: بصري، تابعي، ثقة. وقال علي بن المديني: أبو قلابة عربي من جرم، مات بالشام، وأدرك خلافة عمر بن عبد العزيز، ثم توفي سنة أربع ومئة.. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٤٦٨).

(٧) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ج ١، ص: ٤٤٨.

(٢) أصحاب النبي ﷺ

الصحبة في اللغة:

الصحبة في اللغة من (صحب) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربتة. من ذلك الصَّاحِب والجمع الصَّحْب، كما يقال راكبٌ وركبٌ) أورد الجوهرى في الصحاح: (وكل شيء لاءم شيئاً فقد استصحبه. واصطحب القوم: صحب بعضهم بعضاً، وأصله اصتحب. وأصحب البعير والدابة، إذا انقاد بعد صُعوبة) وفي لسان العرب لابن منظور: (والصَّحابة مصدر قولك صاحبك الله وأحسن صحابتك، وتقول للرجل عند التوديع مُعَاناً مُصَاحِباً، ومن قال مُعَانٌ مُصَاحِبٌ فمعناه: أنت معان مُصَاحِب، ويقال إنه لمُصَاحِب لنا بما يُحِب، وقال الأعشى. فقد أراك لنا بالوُدِّ مُصَاحِباً، وفُلَانٌ صَاحِبٌ صِدْقٍ، واصططحب الرجلان وتصاحبا)

ومما ورد في السنة النبوية بلفظ الحب الصريح من محبة الله للصحابة مايلي:

- (١) عن عون^(١) بن أبي جحيفة قال: « كان أبي من شرط علي رضي الله عنه وكان تحت المنبر، فحدثني أبي أنه صعد المنبر يعني علياً رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر والثاني عمر رضي الله عنه وقال يجعل الله تعالى الخير حيث أحب »^(٢).
- (٢) عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يحب من أصحابي أربعة، أخبرني أنه يحبهم وأمرني أن أحبهم، قالوا: من هم يا رسول الله ؟ قال: إن علياً منهم، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي»^(٣).

(١) عون بن أبي جحيفة واسمه وهب بن عبد الله السوائي الكوفي أخرج البخاري، قال أبو حاتم هو ثقة، قال ابن سعيد ذكروا أن النبي ﷺ توفي ولم يبلغ أبو جحيفة الحلم، انظر التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي المالكي. (٣ / ١١٩٢) قدم على النبي ﷺ في أواخر عمره وحفظ عنه ثم صحب علياً بعده وولاه شرطة الكوفة لما ولى الخلافة، وفي الصحيح عنه رأيت النبي ﷺ وكان الحسن بن علي يشبهه، وأمر لنا بثلاثة عشر قلوفاً، فمات قبل أن نقبضها، وكان علي يسميه وهب الخير، قال الواقدي: مات في ولاية بشر على العراق، وقال ابن حبان: سنة أربع وستين. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦ / ٦٢٦).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، حديث رقم: ٨٣٧ (٢ / ٢٠٢) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: إسناده قوي.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٢٩٦٨ (٣٨ / ٦٧) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: إسناده ضعيف. وضعفه الألباني في تحقيق الجامع الصغير للسيوطي. وقال الحاكم في المستدرک: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، تعليق الذهبي في التلخيص: ما خرج مسلم لأبي ربيعة. ولم يذكر الحاكم يعد علي أحداً. وعند البزار في مسنده بلفظ: عن عبد الله بن بُريدة، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى يحب أربعة وأمرني بحبهم قيل يا رسول الله من هم قال: علي منهم، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود الكندي.

إن أصحاب النبي ﷺ لهم فضل كبير و منزلة عظيمة، ورضي الله عنهم، فهم حملة الرسالة وبهم انتشر الإسلام في سائر أنحاء الأرض، وقد بذلوا أنفسهم وجاهدوا وقاتلوا، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله تعالى في عهد النبي ﷺ وعهد من بعده. ولذلك اتفقت الأمة من أهل السنة والجماعة على أن الصحابة كلهم عدول، ولم يخالفهم في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة أو أهل الزيغ والضلال وأرباب الفتن. وقد ثبت في القرآن والسنة عظم أمرهم وأجرهم وأجر من تبعهم بإحسان، قال الله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ دُونَ ذَلِكَ إِلَّا شَذُودًا مِّنَ الْمُتَّبِعِينَ) (١) وقد وصفهم الله تعالى بأنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم وثبت ذكرهم في التوراة والإنجيل قال الله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّعًا أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَصِيظَهُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (٢)؛ ولهذا الفضل ولما قدموه من بذل حماهم النبي ﷺ من مسبة أو أذى، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَفَقَّ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ) (٣). وهذا الحديث قد ورد في المفاضلة بين صحابين (٤)، ومع هذا قال النبي ﷺ: (لا تسبوا أصحابي)، فيتضح من هذا الحديث ومن غيره بأن شأن الصحابة عند النبي ﷺ عظيم، ودلالة الحديث رفع قدرهم على من بعدهم، ومعرفة فضلهم على غيرهم، حيث عاشوا في خير القرون على الإطلاق، فمحبتهم من أصول الإيمان والترضي عليهم ذكورا وإناثا واجب شرعي، قال ابن زمنين يرحمه الله (ومن قول أهل السنة أن يعتقد المرء المحبة لأصحاب النبي ﷺ وأن ينشر محاسنهم وفضائلهم، ويمسك عن الخوض فيما دار بينهم. وقد أثنى الله عز وجل في غير موضع من كتابه، ثناء أوجب التشريف إليهم بمحبتهم والدعاء لهم) (٥) وأهل بيته لهم خصوصية شرعية في الحب والولاء، وكذلك نساؤه ﷺ، فمن السنة الترضي عليهن، فهن أمهات المؤمنين الطاهرات، فأزواج النبي عليه الصلاة والسلام نجبن جميعاً محبة

(١) سورة التوبة: ١٠٠.

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري-كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ- باب مناقب أبي بكر ﷺ، حديث رقم: ٣٦٧٣ (٥/٨) وانظر: صحيح مسلم-كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم- باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم حديث رقم: ٦٦٥١ (٧/١٨٨).

(٤) قال ابن حجر في الفتح (وكذا في رواية عاصم عن أبي صالح ذكر سب لهذا الحديث وهو ما وقع في أوله قال: كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء، فسيه خالد، فذكر الحديث). انظر: فتح الباري لابن حجر (٧/٣٤).

(٥) رياض الجنة بتخريج أصول السنة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن أبي زمنين)، تحقيق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، المدينة المنورة: مكتبة الغرياء الأثرية، ط ١، ١٤١٥ هـ، ص: ٢٦٣.

إيمان، ونؤمن بأنهن زوجات النبي ﷺ في الدنيا وفي الجنة^(١)، رضي الله عنهن جميعاً. أما تفضيل الصحابة بعضهم على بعض فهو محل تحقيق في النصوص الواردة في مقامهم، وليس هذا مكانه، فقد أصل فيه جهابذة وعلماء الشرع^(٢) بنصوص الكتاب والسنة، وميزوا العشرة المبشرين بالجنة، والسابقين إلى الإسلام وأهل الهجرة وأهل النصرة، وأهل بدر وأهل بيعة الشجرة والشهداء منهم والنقباء، والفتاحين وحفاظ الدين رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) المحبة في الله

الحبة في اللغة والاصطلاح:

الحبة في اللغة من (حب) وقد تم تعريفها في اللغة والاصطلاح العام والاصطلاح الشرعي وبيان فضلها وحكمها وأنواعها في المطلب الأول من هذه الدراسة، ونبين هنا أن الحبة في الله تعالى من أسس العلاقات بين المسلمين، حيث هي أصل الأخوة في دينه، ومن أعظم القربات، ولها شروط تتحقق بها، ومن قام بشروطها ومن أجلها الإخلاص لله، وقدم حقوقها ومن أعظمها بذل ما يستطيعه من نفع لأهل محبته في الدنيا والدين، واتخذ الطرق الشرعية في الوصال فتلك الحبة الصادقة، والألفة التي بها مرضاة الله، وتنال بها الدرجات العلى، حيث الألفة بين القلوب أمر إلهي خاص، فقلوب العباد بين أصابع الرحمن يقلبها حيث شاء، قال الله تعالى: (وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٣) أورد ابن كثير في تفسيره (عن ابن مسعود رضي الله عنه: هم المتحابون في الله. وفي رواية^(٤): نزلت في المتحابين في الله)^(٥) والحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان على الصحيح من السنة، وفي رواية أبي داود في سننه هما أفضل الأعمال، وقد ضعفها العلماء، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ»^(٦).

(١) في الصحيحين عن عطاء قال: (حضرنا مع ابن عباس جنازة ميمونة بسرف فقال ابن عباس هذه زوجة النبي صلى الله عليه وسلم فاذا رفعتم نعشها فلا ترزعوها ولا تزلزلوها وارفقوا فإنه كان عند النبي ﷺ تسع كان يقسم لثمان ولا يقسم لواحدة). ومعنى يقسم: قال الشراح (يقسم) من القسم وهو المبيت عند كل واحدة منهن بقدر ما يبيت عند غيرها بالتساوي. (لواحدة) هي سودة بنت زمعة رضي الله عنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها لأنها قد أسنت وأصبحت لا ترغب بما يرغب به النساء من المعاشرة؛ ولكنها أحبت أن تبقى على عصمتها ﷺ لتكون في جملة زوجاته في الجنة.

(٢) انظر: كتاب المناقب في الصحيحين والسنن الأربعة وشروحاتها. وانظر: فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٣) سورة الأنفال: ٦٣.

(٤) رواه البزار في مسنده - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حديث رقم: ٢٠٧٧ (٤٣٩/٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ج ٤، ص: ٨٥.

(٦) انظر: سنن أبي داود - كتاب السنة - باب مجانبة أهل الأهواء وبغضهم، حديث رقم: ٤٦٠١ (٣٢٧/٤). وضعفه الألباني.

وقد أصل العلماء القدامى الحب والبغض في الله في متون العقيدة النثرية والشعرية ومن ذلك متن العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي والقصيدة النونية للإمام ابن القيم الجوزية، وعلى هذا نهج العلماء المعاصرين، وما قيل^(١):

فعاد الذي عَادَى لدين محمد *** ووال الذي والاه من كل مهتد
وأحب حب الله من كان مؤمناً *** وأبغض لبغض الله أهل التمرد
وما الدين إلا الحب والبغض والولا *** كذاك البرا من كل غاو ومعتدي

وقال صاحب موارد الظمان: (قال ابن رجب يرحمه الله تعالى: (ومن تمام محبة الله ما يحبه وكرهه ما يكرهه، فمن أحب شيئاً مما كرهه الله، أو كره شيئاً مما يحبه الله، لم يكمل توحيدَه و صدقه في قوله لا إله إلا الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما أحبه الله، و ما أحبه مما يكرهه الله))^(٢) و قال ابن القيم رحمه الله: (من أحب شيئاً سوى الله، و لم تكن محبته له لله، و لا لكونه معيناً له على طاعة الله، عذب به في الدنيا قبل يوم القيامة كما قيل^(٣) :

أنت القتل بكل من أحببته *** فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فإذا كان يوم المعاد ولي الحكم العدل سبحانه كل محب ما كان يحبه في الدنيا فكان معه: إما منعماً أو معذباً)^(٤)
وما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله للمتحابين في الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ فَاجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»^(٥).

(١) من أقوال الشيخ سليمان بن سحمان (١٢٦٦ - ١٣٤٩ هـ) وهو من الأئمة المعاصرين في نجد الجزيرة العربية، والمهتمين بتصحيح العقيدة. انظر: الدرر السنية في الكتب النجدية ، علماء نجد الأعلام من عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عصرنا هذا، دراسة وتحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط٦، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م. (٦٦/٢).

(٢) موارد الظمان لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، عبد العزيز بن محمد بن عبد الحسن السلطان، ط٣٠، ١٤٢٤ هـ، ج٢، ص: ٢٤٩.

(٣) هذا البيت لابن الفارض، ورد في (الكشكول)، بماء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨ هـ، ج٢، ص: ١٨١.

(٤) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي ، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٥، ج١، ص: ٣٩.

(٥) انظر: صحيح البخاري- كتاب الأذان- باب الصدقة باليمين ، حديث رقم: ١٤٢٣ (١١١/٢) وانظر: صحيح مسلم- كتاب الزكاة- باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم: ٢٤٢٧ (٩٣/٣).

قال ابن بطال في شرح الحديث قوله: (صفة التحاب في الله تعالى أن يكون كل واحد منهما لصاحبه في توأصلهما وتحابهما، بمثالة نفسه في كل ما نابه) ^(١) ونصوص السنة في محبة المؤمن لأخيه المؤمن على تناصح وتوَادد وتآزر كثيرة جداً، منها عن النعمان بن بشير قال: سمعت النبي عليه السلام يقول: «مثل المؤمنين مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد» ^(٢) وعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ) ^(٣) وعن أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن» ^(٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي عليه السلام زاد فيه: «إذا رأى فيه عيباً أصلحه» ^(٥). وأكد ابن بطال هذه العلاقة بقول الطبري: (فالأخ في الله كالذي وصف به رسول الله المؤمن للمؤمن وأن كل واحد منهما لصاحبه بمثالة الجسد الواحد؛ لأن ما سر أحدهما سر الآخر وما ساء أحدهما ساء الآخر، وأن كل واحد منهما عون لصاحبه في أمر الدنيا والآخرة، كالبنيان يشد بعضه بعضاً و كالمراة له في توقيفه إياه على عيوبه، ونصيحته له في المشهد والمغيب وتعريفه إياه من خطئة، وما فيه صلاحه ما يخفى عليه، وهذا النوع من الإخوان في زماننا كالكبريت الأحمر، وقد قيل هذه قبل هذا الزمان؛ كان يونس بن عبيد تقول: ما أنت بواجد) ^(٦) والحياة تفقد كثيراً من معناها بدون الصحبة والأصحاب، والمعنى الرشيد فيها أن يكون صاحب رشيداً، والأمر بينهما حميداً، فلا يصحب المرء إلا أحد رجلين: رجلاً تتعلم منه شيئاً في أمر دينك ودنياك فينفعلك أو رجلاً تعلمه شيئاً في أمر دينه ودنياه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه فليس بصاحب.

(٤) العبد التقي الغني الخفي ^(٧)

معنى الغني في اللغة:

الغني في اللغة من (غني) كما ورد عند ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الغين والنون والحرف المعتل أصلاً صحیحان، أحدهما يدلُّ على الكفاية، والآخر صوت. فالأول الغنى في المال. يقال: غني يغني غنى. والغناء بفتح الغين مع المد: الكفاية)

(١) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٢٣هـ، ج ٩، ص: ٢٣٧.

(٢) انظر: صحيح مسلم-كتاب البر والصلة والآداب- باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٦٧٥١ (٢٠/٨).

(٣) انظر: صحيح البخاري-كتاب الصلاة- باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم: ٤٨١ (١٠٣/١) وانظر صحيح مسلم-كتاب البر والصلة والآداب- باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٦٧٥٠ (٢٠/٨).

(٤) انظر: سنن أبي داود-كتاب الأدب- باب في النصيحة والحياطة، حديث رقم: ٤٩٢٠ (٤٣٢/٤)

(٥) الجامع في الحديث، عبد الله بن وهب بن أبو محمد المصري، (ت: ١٩٧هـ)، المحقق: د. مصطفى حسن حسين أبو الخير، الرياض: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٦م، ج ١، ص: ٣٠٠.

(٦) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٢٣هـ، ج ٩، ص: ٢٣٧.

(٧) تقدم معنى التقوى في محاب الله في القرآن رقم (٣) قال الله تعالى: (إن الله يحب المتقين).

أورد الجوهري في الصحاح: (غَنِيَ به عنه غُنْيَةً. وَغَنَيْتِ المرأةَ بزوجهَا غُنْيَانًا، أي استغنت. وغني بالمكان، أي أقام. وغني، أي عاش. وأَغْنَيْتُ عنكَ مُغْنَى فلانٍ وَمَغْنَى فلانٍ، وَمَعْمَاةَ فلانٍ، إذا أَجْزأتِ عنكَ مُجْزَأَهُ. ويقال: ما يُغْنِي عنكَ هذا، أي ما يجزئُ عنكَ وما ينفَعُك. والغَانِيَةُ: الجاريةُ التي غَنَيْتْ بزوجهَا. قال جميل:

أَحِبُّ الأَيَّامِ إِذْ بَشِينَةُ أَيِّمٍ... وَأَحْبَبْتُ لَمَّا أَنْ غَنَيْتِ الْعَوَانِيَا

وقد تكون التي غَنَيْتْ بحسنها وجمالها. والأُغْنِيَةُ: الغِنَاءُ؛ والجمع الأغانيُ)

وفي لسان العرب لابن منظور: (في أسماء الله عز وجل الغِنِيُّ، (ابن الأثير) هو الذي لا يَحْتَاجُ إلى أَحَدٍ في شيءٍ، وكلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إليه، وهذا هو الغِنَى المَطْلَقُ) .

معنى الخفي في اللغة:

أصل كلمة (الخفي) كما أورد ابن فارس في معجم اللغة من (خفي) قال: (الخاء والفاء والياء أصلان متباينان متضادان. فالأوّل السّتر، والثاني الإظهار.

فالأوّل خَفِيَ الشَّيْءُ يَخْفَى؛ وأخْفَيْتُهُ، وهو في خَفِيَةٍ وَخَفَاءٍ، إذا سَتَرْتَهُ، ويقولون: بَرِحَ الْخَفَاءُ، أي وَضَحَ السِّرُّ وبدا ويقال لما دُونَ رِيَشَاتِ الطَّائِرِ الْعَشْرِ، اللّوَاتِي فِي مَقْدَمِ جَنَاحِهِ: الْخَوَافِي. وَالْخَوَافِي: سَعَفَاتٌ يَلِينُ قَلْبُ النَّخْلَةِ وَالْخَافِي: الْجَنِّ. ويقال للرجُلِ الْمُسْتَتِرِ مُسْتَخْفٍ.

والأصل الآخر خفا البرقُ خَفَوًا، إذا لمع، ويكون ذلك في أدنى ضعف)

أورد الجوهري في الصحاح: (الأصمعي: خَفَيْتُ الشَّيْءَ أَخْفَيْهِ: كَتَمْتَهُ. وَخَفَيْتُهُ أَيضًا: أَظْهَرْتَهُ، وهو من الأضداد. وأبو عبيدة مثله. يقال: خَفَى الْمَطَرُ الْفَارَ، إذا أخرجهنَّ من أنفاقهنَّ، أي من جحرهنَّ).

وفي لسان العرب لابن منظور: (وَخَفِيَ الشَّيْءُ خَفَاءً فَهُوَ خَافٍ وَخَفِيٌّ لَمْ يَظْهَرْ وَخَفَاهُ هُوَ وَأَخْفَاهُ سَتَرَهُ وَكَتَمَهُ).

ومماورد في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله للأتقياء من عباده مايلي:

عن عامر^(١) بن سعد أن أخاه عمر انطلق إلى سعد رضي الله عنه في غنم له خارجاً من المدينة، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أَرْضَيْتَ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي غَنَمِكَ وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِي الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ، فَضَرَبَ سَعْدٌ رضي الله عنه صدر عمر وقال: اسكت أُنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجِبُ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(٢).

(١) عامر بن سعد بن أبي وقاص (واسمه: مالك) بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن لؤي القرشي الزهري المدني أخو إبراهيم وإسحاق وعمر ومصعب ويحيى ومحمد ويعقوب توفي سنة أربع ومائة انظر: التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (١١٥/٣) وانظر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد لأبي نصر الكلاباذي (٥٥٥/٢) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٩/٤).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل - مسند العشرة المبشرين بالجنة - مسند أبي سحاق سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ١٤٤١ (٥١/٣) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده قوي على شرط مسلم.

عن زيد بن أسلم^(١) عن أبيه: أن عمر خرج إلى المسجد يوماً فوجد معاذ بن جبل عند قبر رسول الله ﷺ يبكي فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: يبكي حديث سمعته من رسول الله ﷺ: يقول: اليسير من الرياء شرك و من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا و إن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة^(٢).

ثمار و فوائد التقوى في الدنيا والأخرى

إن المتتبع لثمار التقوى وفوائدها على الناس عامة وعلى العبد التقى خاصة يجد أنها أصل السعادة البشرية كما قال الحطيئة^(٣):

ولست أرى السعادة جمع مال ** ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ** وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب ** ولكن الذي يمضي بعيد

وقال آخر^(٤):

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التَّقَى ** تَقَلَّبَ غُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا
وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ** وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا

وبصورة مجملة فقد جمعت آثار التقوى على أهلها في الدنيا والآخرة من آيات القرآن الكريم فأعطيتني صورة كاملة تبين أعلى درجات السعادة:

أولاً: الفوائد المترتبة على التقوى في الدنيا كثيرة ومن أهمها:

إن التقوى سبب لتيسير أمور الإنسان وحمايته من ضرر الشيطان، وفتح عليه بالخير من بركات السماء والأرض في تحصيل الرزق والسعة من حيث لا يحتسب، وبها يكون توفيق الله للعبد في الفصل بين الحق والباطل، ومعرفة كل منهما، وسبب للخروج من الضيق و المأزق، وسبب لنيل الولاية فأولياء الله هم المتقون، وإن التقوى سبب لنيل معية الله الخاصة، فمعية الله لعباده تنقسم إلى قسمين :

(١) زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان بن حارثة بن ضبيعة بن حرام البلوي، حليف بني العجلان، وهو بن عم ثابت بن أقرم، ذكره موسى بن عقبة والزهري وابن إسحاق فيمن شهد بدرا، وقيل إنه من بني عمرو بن عوف بن الأوس، وزعم ابن الكلبي أن طليحة قتلته، وذكره ضرار بن صرد أحد الضعفاء بسنده عن عبيد الله بن أبي رافع، فيمن شهد صفين مع علي. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٥٩١/٢).

(٢) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - باب من ترجى له السلامة من الفتن، حديث رقم: ٣٩٨٩ (١٢٦/٥) ضعفه الألباني.

(٣) الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ، ج ٢، ص: ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٤) ديوان أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني. من شعراء القرن الثاني الهجري (١٣٠ - ٢١١ هـ).

الأولى: معية عامة: وهي شاملة لجميع العباد بسمعه، وبصره، وعلمه، فالله سبحانه سميع، وبصير، وعليم بأحوال عباده، قال تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(١).

وأما المعية الثانية: فهي المعية الخاصة: التي تشمل النصر، والتأييد، والمعونة، كما قال تعالى: (وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)^(٢) كما أن العاقبة تكون لأهل التقوى، قال الله تعالى: (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) وأما سبب حصول البشرى في الحياة الدنيا، سواء بالرؤيا الصالحة، أو بمحبة الناس له والثناء عليه، وهي سبب لحفظ النساء من أن يطمع بهن من في قلبه مرض، وسبب لعدم الجور في الوصية، و سبب في إعطاء المطلقة متعتها الواجبة لها وسبب في عدم ضياع الأجر في الدنيا والآخرة وسبب حصول الهداية.

ثانياً: الفوائد المترتبة على التقوى في الآخرة كثيرة ومن أهمها:

أما سبب للإكرام عند الله عز وجل، قال الله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ)^(٣) وهذا فوز وفلاح ونجاة يوم القيامة من عذاب الله، وإن لهم البشرى في الآخرة بالألا يحزهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة بالبشرى، وإنهم يحشرون يوم القيامة إلى الله تعالى وفداً، كما أن التقوى سبب لقبول الأعمال وسبب قوي لأن يرث أهلها الجنة ويدخوها بسلام آمنين، وذلك لأن الجنة أعدت لهم، وهي سبب لعدم الخوف والحزن وعدم المساس بالسوء يوم القيامة، و سبب في عدم مساواتهم بالفجار والكفار، حيث كل صحبة وصداقة لغير الله تنقلب يوم القيامة إلى عداوة إلا صحبة المتقين وإن المتقين: لهم نعم الدار تضاعف أجورهم وحسناتهم فيها، قال الله تعالى: (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)^(٤).

(٥) أحب الأسماء إلى الله

لقد اقتضت سنة الله في حياة الإنسان، أن يكون لكل فرد اسم يرمز به إليه، وينادى به، وبه يخاطب، ولولا وجود العلمية هذه لاختلطت حياة البشر. وتاريخ بني آدم على الأرض مليء بالأحداث المؤثرة في اللغات ومنطق الكلمات؛ مما جعل التنوع في معاني الأسماء يرتبط بتلك الأحداث، وفي دين الإسلام كان أكبر المؤثرات في حياة المسلم عقيدة التوحيد، والشخصيات البارزة في تاريخ الإسلام، المحافظة على هذه العقيدة والداعية إليها وقد جاءت السنة في التدب إلى التسمي بما يقرر هذا.

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح لما يحب الله تعالى من الأسماء ما يلي:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^(٥). وعلق ابن القيم يرحمه الله على هذين الاسمين بقوله: (وَلَمَّا كَانَ الْأَسْمُ مُقْتَضِيًا لِمُسَمَّاهُ

(١) سورة الحديد: ٤.

(٢) سورة البقرة: ١٩٤.

(٣) سورة الحجرات: ١٣.

(٤) سورة النحل: ٣٠.

(٥) انظر: صحيح مسلم - كتاب الآداب - باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم: ٥٧٠٩ (٦).

وَمُؤَثَّرًا فِيهِ، كَانَ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ مَا اقْتَضَى أَحَبُّ الْأَوْصَافِ إِلَيْهِ كَعَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِضَافَةُ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ وَاسْمِ الرَّحْمَنِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ إِضَافَتِهَا إِلَى غَيْرِهِمَا، كَالْقَاهِرِ وَالْقَادِرِ، فَعَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ وَعَبْدُ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ رَبِّهِ؛ وَهَذَا لِأَنَّ التَّعْلُقَ الَّذِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ الْعُبُودِيَّةُ الْمَخْصُصَةُ وَالتَّعْلُقُ الَّذِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ بِالرَّحْمَةِ الْمَخْصُصَةِ، فَبِرَحْمَتِهِ كَانَ وَجُودُهُ وَكَمَالُ وَجُودِهِ، وَالْعَايَةُ الَّتِي أَوْجَدَهُ لِأَجْلِهَا أَنْ يَتَّأَلَّهَ لَهُ وَحْدَهُ مَحَبَّةً وَخَوْفًا، وَرَجَاءً وَاجْتِلَالًا وَتَعْظِيمًا، فَيَكُونُ عَبْدًا لِلَّهِ وَقَدْ عَبْدَهُ لِمَا فِي اسْمِ اللَّهِ مِنْ مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ لغيرِهِ، وَلَمَّا غَلَبَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ وَكَانَتْ الرَّحْمَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعُصْبِ؛ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَاهِرِ^(١) وَمَا يَجْدُرُ مَعْرِفَتُهُ هُنَا أَنَّ الْإِسْلَامَ قِيدَ الْأَسْمَاءِ بِضَوَابِطِ مَهْمَةٍ، يَكُونُ لَهَا الْأَثَرُ فِي الْحَيَاةِ وَتَنْطَلِقُ مِنْ أَصُولِ السَّادِينَ وَفُرُوعِهِ، فَنَهَى عَنِ الْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّزْكِيَةِ، وَالْأَسْمَاءِ ذَاتِ الْمَعَانِي الْغَلِيظَةِ وَالتَّشَاؤُمِيَّةِ، وَالصَّلْدَةِ الَّتِي لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ شَخْصِيَّةِ الْمُسْلِمِ، وَشَرَعَ تَبْدِيلَ الْأَسْمَاءِ غَيْرِ الْمَرْغُوبِ فِي مَعْنَاهُ أَوْ لَفْظِهِ إِلَى اسْمٍ آخَرَ جَمِيلٍ فِي مَعْنَاهُ وَلَفْظِهِ، عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بَأْيَهُنَّ بَدَأْتَ. وَلَا تُسَمِّنَنَّ غُلَامَكَ يَسَارًا، وَلَا رِبَاحًا، وَلَا نَجِيحًا، وَلَا أَفْلَحَ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمَّ هُوَ؟ فَلَا يَكُونُ. فَيَقُولُ: لَا». إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ. فَلَا تَزِيدَنَّ عَلَيَّ^(٢).
أورد ابن بطلال في اختيار الاسم الحسن (قال الطبري: فلا ينبغي لأحد أن يتسمى باسم قبيح المعنى، ولا باسم معناه التزكية والمدح، ولا باسم معناه الذم والسب، بل الذي ينبغي أن يسمى به ما كان حقًا وصدقًا)^(٣) وإن من سنن الإسلام ومحاسنه اختيار الاسم الحسن الطيب للولد، ولعل من خير الأسماء، أسماء الأنبياء وما كان حسنًا من أسماء الآباء والصالحين: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غُلَامًا فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»^(٤).

وَعَنْ أَبِي وَهَبٍ الْجُشَمِيِّ رضي الله عنه وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدُقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَامْرَأَةٌ»^(٥).

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٤٠٧ هـ، ج ٢، ص: ٣٤٠.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب الآداب - باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، حديث رقم: ٥٧٢٤ (١٧٢/٦).

(٣) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٢٣ هـ، ج ٩، ص: ٣٤٧.

(٤) انظر: صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، حديث رقم: ٦١٦٧ (٧٦/٧).

(٥) انظر: سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في تغيير الأسماء، حديث رقم: ٤٩٥٢ (٤/٤٤٣). وانظر: سنن النسائي - كتاب الخيل - باب ما يستحب من شية الخيل، حديث رقم: ٤٣٩١ (٤/٣١٤) وانظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٩٠٣٢ (٣١/٣٧٧) قال الألباني: صحيح، دون قوله: "تسموا بأسماء الأنبياء" وفي صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغوه. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف لجهالة عقيل بن شبيب فقد تفرد بالرواية عنه محمد بن مهاجر وهو الأنصاري ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان.

وعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقَالُوا إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ» ^(١).

وعند مسلم وغيره النهي عن التكني بكنية النبي ﷺ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ نَادَى رَجُلٌ رَجُلًا بِالْبَقِيعِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي لَمْ أَغْنِكُ إِنَّمَا دَعَوْتُ فَلَانًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَمُّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي» ^(٢). وفي تحقيق العلماء من خص ذلك بوقت حياة النبي ﷺ وأجاز التكني بها والتسمية باسم النبي ﷺ بعد مماته، وقد أورد الإمام النووي جمع القاضي عياض لهذه المسألة، قال: (اختلف العلماء في هذه المسألة على مذاهب كثيرة، وجمعها القاضي وغيره: أحدها مذهب الشافعي وأهل الظاهر أنه لا يحل التكني بأبي القاسم لأحد أصلاً سواء كان اسمه مُحَمَّدًا أو أَحْمَدَ، أم لم يكن، لظاهر هذا الحديث. والثاني أن هذا النهي منسوخ؛ فإن هذا الحكم كان في أول الأمر لهذا المعنى المذكور في الحديث، ثم نسخ. قالوا: فيباح التكني اليوم بأبي القاسم لكل أحد، سواء من اسمه مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وغيره، وهذا مذهب مالك. قال القاضي: وبه قال جمهور السلف، وفقهاء الأئصار، وجمهور العلماء. قالوا: وقد اشتهر أن جماعة تكنوا بأبي القاسم في العصر الأول، وفيما بعد ذلك إلى اليوم، مع كثرة فاعل ذلك، وعدم الإنكار. الثالث مذهب ابن جرير أنه ليس بمنسوخ، وإنما كان النهي للتنزيه والادب، لا للتحریم. الرابع أن النهي عن التكني بأبي القاسم مختص بمن اسمه مُحَمَّدٌ أو أَحْمَدَ، ولا بأس بالكنية وحدها لمن لا يسمى بواحد من الاسمين، وهذا قول جماعة من السلف، وجاء فيه حديث مرفوع عن جابر. الخامس أنه ينهى عن التكني بأبي القاسم مطلقاً، وينهى عن التسمية بالقاسم لئلا يكتنى أبوه بأبي القاسم، وقد غير مروان بن الحكم اسم ابنه عبد الملك حين بلغه هذا الحديث، فسماه عبد الملك، وكان سماً أولاً القاسم، وفعله بعض الأئصار أيضاً. السادس أن التسمية بمُحَمَّدٍ ممنوعة مطلقاً، سواء كان له كنية أم لا، وجاء فيه حديث عن النبي ﷺ: (تُسَمُّونَ أَوْلَادَكُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تُلْعَنُونَهُمْ) وكتب عمر إلى الكوفة ^(٣): لا تُسَمُُّوا أَحَدًا بِاسْمِ نَبِيِّ، وأمر جماعة بالمدينة بتغيير أسماء أبنائهم مُحَمَّدَ، حتى ذكر له

(١) انظر: صحيح مسلم - كتاب الآداب - باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم: ٥٧٢١ (١٧١/٦).

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب كنية النبي ﷺ، حديث رقم: ٣٥٣٨ (١٨٦/٤) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الآداب - باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم: ٥٧٠٨ (١٦٩/٦).

(٣) الكوفة بالضم المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسمى قوم خد العذراء، وسميت الكوفة لاستدارتها، وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها، وقيل سميت كوفة لأنها قطعة من البلاد، وذهبت جماعة إلى أنها سميت كوفة بموضعها من الأرض وذلك أن كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة، وقال آخرون سميت كوفة لأن جبل سائيدما يحيط بها كالكفاف عليها، وقيل غير ذلك، وأما قصرها فكان في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة التي مضت فيها البصرة وهي سنة ١٧هـ، وقال قوم إنما مضت بعد البصرة بعامين في سنة ١٩هـ انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٤/٤٩٠).

جَمَاعَةٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَسَمَّاهُمْ بِهِ فَتَرَكَهُمْ. قَالَ الْقَاضِي: وَالْأَشْبَهُ أَنَّ فِعْلَ عُمَرَ هَذَا إِعْظَامٌ لِسَمِّ النَّبِيِّ ﷺ لَنَّا يُنْتَهَكُ الْأَسْمُ كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ (تُسَمُّونَهُمْ مُحَمَّدًا ثُمَّ تَلْعُونَهُمْ). وَقِيلَ: سَبَبَ نَهَى عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ لِمُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ: فَعَلَ اللَّهُ بِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَعَاهُ عُمَرُ، فَقَالَ: أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُسَبِّ بِكَ، وَاللَّهِ لَا تَدْعِي مُحَمَّدًا مَا بَقِيتَ، وَسَمَّاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ^(١) ويسمى المولود في اليوم الثالث من ولادته أو يوم سابعه على اختلاف، وثبت من فعل النبي ﷺ تسمية المولود في يوم ولادته ﷺ عند ولادة ابنه إبراهيم ابن مارية رضي الله عنها، فسماه من ليلته، وهو ما وجه به العلماء (وقال البيهقي في سننه: باب تسمية المولود حين يولد وهو أصح من السابغ ثم روى من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: ذهبت بعبد الله بن أبي طلحة إلى رسول الله حين ولد، ورسول الله يهنأ بعيرا له، فقال له: هل معك تمر؟ قلت: نعم، فناولته تمرات فألقاهن في فيه، فلا كهن، ثم فغر فم الصبي، فمجسه في فيه، فجعل الصبي يتلمظه، فقال النبي: حب الأنصار التمر، أخرجاه في الصحيحين من حديث أنس بن سيرين عن أنس بن مالك وذكر حديث يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال: ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم وحنكه بتمر^(٢)) وهو الذي عليه العمدة في تحقيق العلماء والله أعلم.

وقال ابن القيم يرحمه الله في هدي النبي ﷺ في الكنى والأسماء: (تَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكُ الْأَمْلَاقِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ، وَتَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَا تُسَمِّنَ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا رَبَاحًا وَلَا نَجِيحًا وَلَا أَفْلَحَ؛ فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمْتُ هُوَ؟ فَلَا يَكُونُ، فَيُقَالُ: لَا، وَتَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ وَقَالَ أَنْتَ جَمِيلَةٌ، وَكَانَ اسْمُ جُوَيْرِيَةَ بَرَّةً فَغَيَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِاسْمِ جُوَيْرِيَةَ. وَقَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الْأَسْمِ، فَقَالَ: لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ. وَغَيَّرَ اسْمَ أَصْرَمَ بِزُرْعَةَ وَغَيَّرَ اسْمَ أَبِي الْحَكَمِ بِأَبِي شَرِيحٍ، وَغَيَّرَ اسْمَ حَزْنٍ جَدَّ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَجَعَلَهُ سَهْلًا فَأَبَى، وَقَالَ "السَّهْلُ يُوطَأُ وَيُمْتَنَهُنَّ". قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَغَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ اسْمَ الْعَاصِ وَعَزِيزٍ وَعَثَلَةَ وَشَيْطَانَ وَالْحَكَمَ وَغُرَابَ وَحَبَابَ وَشَهَابَ، فَسَمَّاهُ هَشَامًا، وَسَمَّى حَرْبًا سَلَمًا، وَسَمَّى الْمُضْطَجِعَ الْمُتَنَبِّعَ وَأَرْضًا عَفْرَةَ سَمَّاهَا خَضِرَةً، وَشَعْبُ الضَّلَالَةِ سَمَّاهُ شَعْبَ الْهُدَى، وَبَنُو الزُّلْيَةِ سَمَّاهُمْ بَنِي الرَّشْدَةِ، وَسَمَّى بَنِي مُغْوِيَةَ بَنِي رِشْدَةَ^(٣))

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ١٤، ص: ١١٢ - ١١٣.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: مكتبة دار البيان، ط ١، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ص: ١٠١.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٤٠٧ هـ - ١٤٠٧ هـ، ج ٢، ص: ٣٣٤ - ٣٣٦.

ثانياً: محاب الله العبادية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) أحب الأعمال الصالحة إلى الله وأوقاتها

من أصول العلم الشرعي أن للعمل الصالح شرطين:

(١) الإخلاص لله عز وجل: قال الله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)^(١) وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرِكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ »^(٢).

(٢) المتابعة للسنة النبوية المطهرة . قال الله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)^(٣) وقال الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٤) وعن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ)^(٥).

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح في محبة الله للأعمال الصالحة وأوقاتها مايلي:

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ»، فقالوا يا رسول الله: «وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(٦).

(٢) عن أبي عمرو الشيباني^(٧) يقول: «أخبرنا صاحب هذه الدار - وأوما بيده إلى دار عبد الله - قال:

(١) سورة الكهف: ١١٠.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم: ٧٦٦٦ (٨/ ٢٢٣).

(٣) سورة الأحزاب: ٢١.

(٤) سورة الحشر: ٧.

(٥) انظر: صحيح البخاري - كتاب الصلح - باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم: ٢٦٩٧ (٣/ ١٨٤). وانظر: صحيح مسلم - كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم: ٤٥٨٩ (٥/ ١٣٢).

(٦) انظر: سنن أبي داود - كتاب الصوم - باب في صوم العشر حديث، رقم: ٢٤٤٠ (٢/ ٣٠١) وانظر سنن الترمذي - كتاب الصوم عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في العمل في أيام العشر، حديث رقم: ٧٥٧ (٣/ ١٣٠) وانظر: سنن ابن ماجه - كتاب الصيام - باب صيام العشر، حديث رقم: ١٧٢٧ (٣/ ٣٠١) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند بني هاشم رضي الله عنهم، حديث رقم: ٣٢٢٨ (٥/ ٢٨٦) صححه الألباني.

(٧) أبو عمرو الشيباني هو سعد بن إياس الكوفي، من بني شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، صاحب ابن مسعود روى عن علي، وابن مسعود، وحذيفة، وروى عنه: منصور، والأعمش، وسليمان التيمي، والوليد بن العيزار، وإسماعيل بن أبي خالد، وأبو معاوية عمرو بن عبد الله النخعي، أدرك الجاهلية وكاد أن يكون صحابياً. وعاش مئة عام وعشرين عاماً، فعنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أرعى إبلاً بكاطمة. قال: وكنت يوم القادسية ابن أربعين سنة. قال عاصم بن أبي النجود: كان أبو عمرو الشيباني يقرأ القرآن في المسجد الأعظم، فقرأت عليه، ثم سألته عن آية، فأتهمني بهوى. وقال يحيى بن معين: كوفي، ثقة. قلت: هو من رجال الكتب الستة. ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك، توفي سنة ثمان وتسعين للهجرة انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٧٣) وانظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٢/ ٥٨٣).

سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: الصلاة على وقتها. قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله - قال: حدثني بمن، ولو استزدته لزدني»^(١).

٣) عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي وَيَسْطُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَوَبُّونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، حَتَّى كَثُرُوا، فَأَقْبَلَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ^(٢).

إن من حكم الله تعالى أن فضل الناس بعضهم على بعض درجات، في العمل والرزق والعمر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، وكذلك فضل القرون والسنين والشهور والليالي والأيام، بل شر الزمان آخره، وتقوم الساعة على شرار الخلق وما على الأرض من يقول: الله.. الله، ومن التوفيق والهداية أن يتدارك المسلم عمره بالعمل الصالح طول حياته، ويحرص على المداومة عليه وإن قل، فهو من محاب الله فإن القليل المتصل خير من الكثير المنقطع، وعليه أن يقدم فضائل الأعمال من الصلاة في وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله، كما عليه أن يتحين فضائل الأوقات والأيام للاجتهاد فيها؛ فينال عظيم الأجر حيث خست بمحبة الله تعالى ومن ذلك العمل الصالح في أيام العشر من ذي الحجة (سئل شيخ الإسلام أيما أفضل يوم عرفة أو الجمعة أو الفطر أو النحر؟ فأجاب: الحمد لله، أفضل أيام الأسبوع يوم الجمعة باتفاق العلماء وأفضل أيام العام هو يوم النحر، وقد قال بعضهم يوم عرفة، والأول هو الصحيح لأن في السنن عن النبي ﷺ أنه قال (أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر، لأنه يوم الحج الأكبر، في مذهب مالك والشافعي وأحمد، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال (يوم النحر هو يوم الحج الأكبر، وفيه من الأعمال ما لا يعمل في غيره، كالوقوف بمزدلفة ورمي جمرة العقبة وحدها، والنحر والحلق وطواف الإفاضة؛ فإن فعل هذه فيه أفضل بالسنة واتفاق العلماء والله أعلم)^(٣). وقال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية يرحمهما الله: (وسئل عن عشر ذي الحجة والعشر الأواخر من رمضان أيهما أفضل؟ فقال أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان، والليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب، وجده شافيا كافيا، فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذي الحجة، وفيها يوم عرفة ويوم النحر ويوم التروية، وأما ليالي عشر رمضان فهي ليالي الأحياء التي كان رسول الله ﷺ يحييها كلها، وفيها ليلة خير من ألف شهر، فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلي بحجة صحيحة)^(٤).

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل الصلاة لوقتها، حديث رقم: ٥٢٧ (١/١١٢) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم: ٢٦٤ (١/٦٣).

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب اللباس - باب الجلوس على الحصى ونحوه، حديث رقم: ٥٨٦١ (٧/١٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرائي، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، ط ٣، ١٤٢٦ هـ، ج ٢٥، ص: ٢٨٨.

(٤) بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرون، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١، ١٤١٦ هـ، ج ٣، ص: ٦٨٣.

(٢) الوتر

الوتر في اللغة:

الوتر في اللغة من (وتر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الواو والتاء والراء: باب لم تَجِيْ كَلِمُهُ عَلَى قِيَاسٍ وَاحِدٍ، بَلْ هِيَ مُفْرَدَاتٌ لَا تَتَشَابَهُ. فَالْوَتِيرَةُ: غُرَّةُ الْفَرَسِ مُسْتَدِيرَةٌ. وَالْوَتِيرَةُ: شَيْءٌ يُتَعَلَّمُ عَلَيْهِ الطَّعْنُ. وَالْوَتِيرَةُ: الْمَدَاوِمَةُ عَلَى الشَّيْءِ، يُقَالُ: هُوَ عَلَى وَتِيرَةٍ. وَالْوَتَرُ: الدَّخْلُ^(١)، يُقَالُ وَتَرْتُهُ أَثَرُهُ وَتَرًّا. وَالْوَتَرُ وَالْوَتْرُ: الْفَرْدُ. وَوَتَرُ الْقَوْسِ مَعْرُوفٌ. يُقَالُ وَتَرْتَهَا وَأَوْتَرْتَهَا. وَالْوَتْرَةُ: طَرَفُ الْأَنْفِ).

أورد الجوهري في الصحاح: (وَتَرَى أَصْلَهَا وَتَرَى مِنَ الْوَتْرِ، وَهُوَ الْفَرْدُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى"، أي واحداً بعد واحد) وفي لسان العرب لابن منظور: (ناقة مُوَاتِرَةٌ هِيَ الَّتِي تَضَعُ قَوَائِمَهَا بِالْأَرْضِ وَتِرًا وَتَرًّا عِنْدَ الْبُرُوكِ وَلَا تَزُجُّ نَفْسَهَا زَجًّا فَتَشُقُّ عَلَى رَاكِبِهَا)

وفي تفسير قول الله تعالى: (وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)^(٢) أورد الإمام ابن كثير في تفسيره^(٣) عشرة من أقوال العلماء في الشفع والوتر، هي:

١) الوتر يوم عرفة، لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر. وقاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك أيضاً.

٢) الشفع يوم عرفة، والوتر ليلة الأضحى.

٣) الشفع في سورة البقرة: قول الله، عز وجل: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} والوتر قوله: {وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}.

٤) الخلق كلهم، شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه.

٥) الله وتر واحد، وأنتم شفع.

٦) الشفع صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب.

٧) الشفع الزوج، والوتر: الله عز وجل.

٨) الله الوتر، وخلقه الشفع (الذكر والأنثى).

٩) هو العدد، منه شفع ومنه وتر.

١٠) الشفع اليومان، والوتر اليوم الثالث.

(١) الدَّخْلُ: الْحَقْدُ وَالْعِدَاوَةُ. يُقَالُ: طَلَبَ بِدَخْلِهِ، أَيْ بِثَأْرِهِ. انظر: الصحاح للجوهري (١/٢٢٤).

(٢) سورة الفجر: ١-٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر

والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٨، ص: ٣٩١.

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله للوتر، مايلي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ اسْمًا. مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ اللَّهَ وَثُرًا. يُحِبُّ الْوُتْرَ». وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي عُمَرَ «مَنْ أَحْصَاهَا»^(١).

إن الوتر دلالة الوجدانية لله عز وجل وتعالى، وتزيه له سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد، والوجدانية هي الأصل الذي يقوم عليه الدين قال الله تعالى: (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ وَاجْعَلْنَ فِي الْآخِرَةِ كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ فَإِذَا فَرَغْتُمْ فَأَذِنِّي فَلَمَّا فَرَغْنَا أَذْنَاهُ فَأَلْقَى إِلَيْنَا حِقْوَهُ فَضَفَرْنَا شَعْرَهَا ثَلَاثَةَ قُرُونٍ وَأَلْقَيْنَاهَا خَلْفَهَا)^(٢) وثبت في السنة أكل النبي ﷺ تمرات وترا حين خروجه لصلاة عيد الفطر، وفي الطهارة إذا استجمر استجمر وترا وفي الزينة إذا اكتحل اكتحل وترا، وصلاة الوتر في الإسلام، سنة مؤكدة حث عليها الرسول ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام في كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام) - متفق عليه - وهي ختام لصلاة الليل، وعن عبد الله بن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ وأنا بينه وبين السائل، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ صَلَاةُ اللَّيْلِ؟ قَالَ «مَثْنَى مَثْنَى فَإِذَا خَشِيتَ الصُّبْحَ فَصَلِّ رَكْعَةً وَاجْعَلْ آخِرَ صَلَاتِكَ وَتَرًا»^(٣). ووقتها بعد صلاة العشاء إلى الفجر، وعدد ركعاتها أقلها واحدة وأكثرها ثلاث عشرة، ومن سنن القراءة فيه ما رواه أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الأولى بـ (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى). وفي الثانية بـ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ). وفي الثالثة بـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ). فإذا فرغ قال عند فراغه:

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب لله مائة اسم غير واحد، حديث رقم: ٦٤١٠ (٨/ ٨٧) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم: ٦٩٨٥ (٨/ ٦٣).

(٢) سورة النحل: ٥١.

(٣) أم عطية الأنصارية، اسمها نسيبة بنت الحارث وقيل نسيبة بنت كعب قال: أحمد بن زهير: سمعت يحيى بن معين وأحمد بن حنبل يقولان: أم عطية الأنصارية نسيبة بنت كعب. قال أبو عمر: في هذا نظر لأن نسيبة بنت كعب أم عمارة. تعد أم عطية في أهل البصرة، كانت من كبار نساء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وكانت تغزو كثيراً مع رسول الله ﷺ، تمرض المرضى وتداوي الجرحى وشهدت غسل ابنة رسول الله ﷺ، وحكت ذلك فأتقنت، حديثها أصل في غسل الميت، وكان جماعة من الصحابة وعلماء التابعين بالبصرة يأخذون عنها غسل الميت، ولها عن النبي ﷺ أحاديث روى عنها أنس بن مالك ومحمد بن سيرين وحفصة بنت سيرين. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٩٥٧/١).

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب ما يلقي شعر المرأة خلفها، حديث رقم: ١٢٦٣ (٢/ ٧٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري - كتاب الصلاة - باب الحلق والجلوس في المسجد، حديث رقم: ٤٧٣ (١/ ١٠٢). وانظر: صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب صلاة الليل مثنى مثنى والوتر ركعة من آخر الليل، حديث رقم: ١٧٨٤ (٢/ ١٧٢).

(سبحان الملك القدوس) ثلاث مرات يطيل آخرهن^(١). وتأقي أهمية الوتر في التعبد من النوافل أنهما من أكد السنن الرواتب وأفضلها، ولهذا ما كان رسول الله ﷺ، وصحبه الكرام، والسلف الصالح يتركونها، سفراً ولا حضراً. قال الحافظ ابن حجر معلقاً على تبويب البخاري: "باب ساعات الوتر"، : (أي أوقاته ومحصل ما ذكره أن الليل كله وقت للوتر، لكن أجمعوا على ابتدائه من مغيب الشفق بعد صلاة العشاء، كذا نقله ابن المنذر، لكن أطلق بعضهم: أنه يدخل بدخول العشاء،.... عن مسروق من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أول الليل وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر. والمراد بأوله بعد صلاة العشاء كما تقدم قوله إلى السحر، زاد أبو داود والترمذي حين مات، ويحتمل أن يكون اختلاف وقت الوتر باختلاف الأحوال، فحيث أوتر في أوله لعله كان وجعا، وحيث أوتر وسطه لعله كان مسافراً، وأما وتره في آخره فكأنه كان غالب أحواله، لما عرف من مواظبته على الصلاة في أكثر الليل والله أعلم، والسحر قبيل الصبح^(٢)

(٣) أحب الكلام إلى الله

الكلام في اللغة:

الكلام في اللغة من (كلم) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الكاف واللام والميم أصلان: أحدهما يدل على نطقٍ مُفهم، والآخر على جراح. فالأول الكلام. تقول: كلمته أكلّمه تكلّماً؛ وهو كليمي إذا كلمك أو كلمته. ثم يتسعون فيسمون اللفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة. ويجمعون الكلمة كلمات وكلاماً. قال الله تعالى: (تُخْرِقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)^(٣) والأصل الآخر الكلم، وهو الجرح؛ والكلام: الجراحات، وجمع الكلم كلوم أيضاً. ورجل كليم وقوم كلمى، أي جرحى، فأما الكلام، فيقال: هي أرض غليظة. وفي ذلك نظر).

أورد الجوهري في الصحاح: (الكلام: اسم جنس يقع على القليل والكثير. والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات؛ لأنه جمع كلمة).

وفي لسان العرب لابن منظور: القرآن كلام الله وكلم الله وكلماته وكلمته، وكلام الله لا يُحد ولا يُعد وهو غير مخلوق، تعالى الله عما يقول المفترون علواً كبيراً وفي الحديث: أعوذ بكلمات الله التامات، قيل

(١) انظر: سنن النسائي-كتاب قيام الليل وتطوع النهار- باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي بن كعب في الوتر، حديث رقم: ١٤٣٦

(٢) (١٦٧/٢) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند المكين - حديث رقم: ٢١١٤٢ (٨٠/٣٥) صححه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على

المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة،

١٣٧٩ هـ، ج ٢، ص: ٤٨٧.

(٣) سورة النساء: ٤٦. وسورة المائدة: ١٣.

هي القرآن، قال ابن الأثير: إنما وصف كلامه بالتَّمام لأنه لا يجوز أن يكون في شيء من كلامه نقص أو عيب، كما يكون في كلام الناس وقيل معنى التمام ههنا أنها تنفع المتعوذ بها وتحفظه من الآفات وتكفيه) لقد امتدح الله الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ووعدهم ما وعد غيرهم من أهل صفات الاستقامة مغفرة وأجراً عظيماً قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ كَرِهُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهَتْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (١).

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله لأحب الكلام في ذكره:

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بَأْيَهُنَّ بَدَأْتَ. وَلَا تُسَمِّنَنَّ غُلَامَكَ يَسَارًا، وَلَا رَبَاحًا، وَلَا نَجِيحًا، وَلَا أَفْلَحَ، فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَنْتُمْ هُوَ؟ فَلَا يَكُونُ. فَيَقُولُ: لَا». إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ. فَلَا تَزِيدُنَّ عَلَيَّ (٢).

(١) سبحان الله: قال القرطبي: ("سُبْحَانَ" اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن، لأنه لا يجزى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لان في آخره زائدتين، تقول: سبحت تسبيحاً وسبحاناً، مثل كفرت اليمين تكفيراً وكفراناً. ومعناه التثنية والبراءة لله عز وجل من كل نقص. فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره) (٣)

(٢) الحمد لله: (قال ابن عباس: {الحمد لله} كلمة كل شاكر) (٤). وأورد القرطبي: (قال الطبري: {الحمد لله} ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه فكأنه قال: قولوا: {الحمد لله}) (٥)

(٣) لا إله إلا الله: وتعني لا معبود بحق إلا الله، وفيها نفي الألوهية الحققة عن غير الله وإثباتها لله وحده لا شريك له. (٦)

(٤) الله أكبر: قال القرطبي: ((وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا) أي عظمه عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر، أي صفة بأنه أكبر من كل شيء) (٧).

(١) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب الأدب - باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، حديث رقم: ٥٧٢٤ (٦/١٧٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ١٠، ص: ٢٠٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ١٢٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ١، ص: ١٥٣ - ١٣٦.

(٦) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ص: ٥٣.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ، ج ١٠، ص: ٣٤٥.

إن هذه الكلمات المحبة إلى الله تعالى، كما أن لها الفضل العام في الذكر فلها الفضل الخاص بعد الصلوات المكتوبة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١). وتلاوة القرآن الكريم - كلام الله - وحفظه وتديره والعمل به، أفضل الذكر وأفضل الشكر، وكل الكلام المحبب إلى الله مذكور فيه لفظاً ومعنى من التسييح والتهيل والتكبير والحمد والتوحيد، قال ابن حجر في الفتح: (وقال النووي: هذا الإطلاق في الأفضلية محمول على كلام الآدمي، وإلا فالقرآن أفضل الذكر، وقال البيضاوي: الظاهر إن المراد من الكلام كلام البشر، فإن للثلاث الأول وإن وجدت في القرآن، لكن الرابعة لم توجد فيه، ولا يفضل ما ليس فيه على ما هو فيه، قلت: ويحتمل أن يجمع بأن تكون من مضمرة في قوله أفضل الذكر لا إله إلا الله، وفي قوله أحب الكلام بناء على إن لفظ أفضل وأحب متساويان في المعنى، لكن يظهر مع ذلك تفضيل لا إله إلا الله لأنها ذكرت بالتنصيص عليها بالأفضلية الصريحة، وذكرت مع أخواتها بالأحبية فحصل لها التفضيل تنصيصاً وانضماماً والله أعلم)^(٢)

عن الأسود^(٣)، هو ابن سريع وكان شاعراً، قال: أتيت رسول الله، فقلت: يا رسول الله ألا أنشدك محامداً حمدت بها ربي فقال: «أما إن ربك يحب المحامد وما استترادني على ذلك»^(٤). جمع مَحْمَد (مَحَامِد) وهي دلالة على كثرة الحمد لله، قال الإمام الطبري: (وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه)^(٥) معللاً بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان

(١) انظر: صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث رقم: ١٣٨٠ (٢/٩٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ، ج ١١، ص: ٢٠٧.

(٣) الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة بن التزالي بن مرة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي، الشاعر المشهور روى له البخاري في تاريخه، قال غزوت مع النبي ﷺ أربع غزوات، قال البغوي: كان شاعراً وكان في أول الإسلام قاصاً، وأنه كان أول من قص في مسجد البصرة، وقال خليفة: كانت له دار بحضرة الجامع بالبصرة، توفي في عهد معاوية، وعن ابن معين: مات سنة اثنتين وأربعين. انظر الإصابة في تمييز الصحابة (٧٤/١).

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند المكيين - حديث الأسود بن سريع، حديث رقم: ١٥٥٨٦ (٣٥٢/٢٤) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف لانقطاعه، الحسن: وهو البصري لم يسمع من الأسود بن سريع. وقال الألباني: (أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٤/١٦٦/٤١٦٤/٥٧٧)، وأحمد (٣/٤٣٠)، والطبراني في "الكبير" (١/٤٢١)، والحاكم (٣/٦١٤) والزبادة له وقال: "صحيح الإسناد! ووافقه الذهبي. قلت - الألباني - وهو منه عجيب، فقد قال في ترجمة الحسن هذا - وهو البصري - : "كان كثير التدليس، فإذا قال في حديث: "عن فلان" ضعف احتجاجه، ولا سيما عن قيل: إنه لم يسمع منهم كأبي هريرة ونحوه، فعدوا ما كان له عن أبي هريرة في جملة المنقطع". قلت - الألباني - وهذا الحديث منقطع لأنه لم يصرح بالسماع؛ ثم وجدت تصريحه من طريقين فخرجته في "الصحيحة" (٣١٧٩). وقال: في صحيح الأدب المفرد: حسن.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ١، ص: ١٣٧..

العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر، أي أن الحمد لله قد يُنطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد. وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب الكلام إلى الله عز وجل أن يقول العبد سبحان ربي وبحمده»^(١).

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتثنيته، يتعاطفن حول العرش لمن دوي كدوي النحل، يذكرون بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟»^(٢).

(٤) سؤال الله

السؤال في اللغة:

السؤال في اللغة من (سأل) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (السين والهمزة واللام كلمة واحدة. يقال سأل يسأل سؤالاً ومسألةً. ورجل سُؤلةٌ: كثير السؤال).

أورد الجوهري في الصحاح: (وقوله تعالى: "سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ" أي عن عذابٍ. قال الأخفش: يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. وقد تخفّف همزته فيقال: سأل يسأل).

وفي لسان العرب: (والرَّجُلَانِ يَتَسَاءَلَانِ وَيَتَسَايَلَانِ وَجَمْعُ الْمَسْأَلَةِ مَسَائِلٌ بِالْهَمْزِ فَإِذَا حَذَفُوا الْهَمْزَةَ قَالُوا: مَسْأَلَةٌ، وَتَسَاءَلُوا سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا).

لفظ الجلالة (الله) في اللغة:

أصل اللفظ في لفظ الجلالة (الله) كما أورد ابن فارس من (أله): الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التَعْبُدُ. فالإله الله تعالى، وسميَ بذلك لأنه معبود. ويقال تأله الرجل، إذا تعبد.

أورد صاحب الصحاح: (أَلَةٌ بِالْفَتْحِ إِلَاهَةٌ، أَيْ عَبْدَ عِبَادَةٍ. وَإِلَاهَةٌ أَيْضًا: اسْمٌ لِلشَّمْسِ. وَالْإِلَهَةُ: الْأَصْنَامُ، سَمَّوْهَا بِذَلِكَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ تَحَقُّقُ لَهَا، وَأَسْمَاؤُهُمْ تَتَّبِعُ اعْتِقَادَاتِهِمْ لَا مَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ. وَالتَّأْلِيَةُ: التَّعْبِيدُ. وَالتَّأْلَةُ: التَّنَسُّكُ وَالتَّعَبُّدُ).

وفي لسان العرب: (الإله الله عز وجل، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إله عند متخذه، والجمع إلهة، والإلهة الأصنام، سموا بذلك لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ تَحَقُّقُ لَهَا وَأَسْمَاؤُهُمْ تَتَّبِعُ اعْتِقَادَاتِهِمْ لَا مَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ بَيِّنُ: الْإِلَهَةِ وَالْإِلَهَانِيَّةِ).

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنه، حديث رقم: ٢١٤٢٩ (٣٥ / ٣٣٩) وانظر: السنن الكبرى للنسائي - باب ذِكْرُ مَا اصْطَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند الكوفيين رضي الله عنه، حديث رقم: ١٨٣٦٢ (٣٠ / ٣١٢) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير موسى بن مسلم الطحان فمن رجال أصحاب السنن عدا الترمذي وهو ثقة.

قال شارح كتاب التوحيد الشيخ عبد الله بن سليمان آل الشيخ: (الله علم على الرب تبارك وتعالى، ذكر سيبويه أنه أعرف المعارف، ويقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، إلى آخر السورة فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، واختلفوا هل هو اسم جامد أو مشتق على قولين أحدهما أنه مشتق، قال ابن جريز فإنه على ما روي لنا عن ابن عباس، قال: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

وذكر سيبويه عن الخليل أن أصله إله، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة، قال سيبويه مثل الناس أصله أناس، وقال الكسائي والقراء أصله الإله، حذفوا الهمزة أدمغوا اللام الأولى في الثانية، وعلى هذا فالصحيح أنه مشتق من إله الرجل، إذا تعبد كما قرأ ابن عباس وَيَتْرَكَ وَإِلَهْتِكَ أَي: عبادتك، وأصله الإله أي المعبود، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام التي للتعريف فأدغمت إحداها في الأخرى فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة، وفخمت تعظيما فقل الله، قال ابن القيم القول الصحيح أن الله أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، قال وزعم السهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي^(١) أن اسم الله غير مشتق، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له^(٢) والقول هنا بالقدم إن كان في أصل الكلمة فإن الكلمات في سائر الأسماء ذات اشتقاق لفظي وتدل على معنى مقصود في اللغة شاء الله وقدره في لغة العرب بهذا اللفظ، وفي لغات الأجناس الأخرى له معنى يضبط فيه بمقاصد الشرع وحسب ما تدل عليه لغة العرب، وهذا اللفظ له وصفية خاصة في حق الله تعالى، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا فيه دلالة الصواب، وهو خلاصة قول ابن القيم يرحمه الله أما كون لفظ الجلالة (الله) مشتق من اسم قبله في الألوهية فهذا باطل، فإن الله هو الأول ليس قبله شيء وهو الآخر ليس بعده شيء. والله أعلم. وما رود في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله لسؤاله مايلي:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(٣).

أمر الله تعالى في كتابه الكريم أن يسأل من فضله، قال الله تعالى: (وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)^(٤) وحيث الدعاء مخ العبادة لما فيه من إظهار غاية التذلل والاستكانة لله تعالى فقد شرعت العبادات خضوعا لله وطلبا وقربة، قال الله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)^(٥) وإن عدم التذلل والخضوع من دلائل الاستكبار وهذا أمر خطير على

(١) سبق ترجمته، انظر: فهرس الأعلام.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ص: ١٣ - ١٤.

(٣) انظر: سنن الترمذي - كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: في انتظار الفرج، حديث رقم: ٣٥٧١ (٥/ ٥٦٥) وضعفه الألباني.

(٤) سورة النساء: ٣٢.

(٥) سورة غافر: ٦٠.

العبد في عقيدته وحياته وبعد مماته، لما ورد من الوعيد الشديد للمستكبرين ولما يسببه الكبر من خلل كبير في علاقات البشر، من فرض الصَّغَار وشيوع الاحتقار. وجعل الله تعالى سؤاله وطلبه من المحاب إليه ترغيباً منه جل وعلا لعباده في ذلك لما فيه من نفعهم ونجاتهم، وهو الغنى الحليم الجواد الكريم الذي لا ينقص ملكه من عطائه شيئاً، وإن فضله عظيم فيحب أن يسأل، وفي الحديث سلوا الله من فضله، قال المباركفوري (أي بعض فضله فإن فضله واسع وليس هناك مانع فإن الله يحب أن يسأل، أي من فضله لأن يده تعالى ملامى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار)^(١) وفي الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قول الله تعالى: (يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ، وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ)^(٢) وهذا هو محل القصد أن تسأل الله من فضله فإن عطائه عظيم لا ينقص ولا ينقطع، فهو يحب أن يسأل من حاجات الدنيا والآخرة، أما السؤال للبيان العلمي، فإنه ليس محل قصد هنا، قال ابن الأثير: (السؤال في كتاب الله والحديث نوعان: أحدهما ما كان على وجه التبيين والتعلم مما تَمَسُّ الحاجة إليه فهو مباح أو مندوب أو مأمور به، والآخر ما كان على طريق التكلف والتعنت فهو مكروه ومنهي عنه، فكل ما كان من هذا الوجه ووقع السكوت عن جوابه، فإنما هو ردع وزجر للسائل، وإن وقع الجواب عنه فهو عقوبة وتغليظ)^(٣). وفي السنة كراهة السؤال عن المسائل الدقيقة التي لا يحتاج إليها؛ لأنها تثير الشبهات في الدين مما يؤدي إلى الضلال، قال الله تعالى: (يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا)^(٤) وفي الحديث النهي عن كثرة السؤال، قيل هو من هذا النوع وقيل هو سؤال الناس أموالهم من غير حاجة. والذي عليه مدار أقوال أهل الفقه في الدين، أن من يسأل الله تعالى عليه أن يلتزم آداب الدعاء والطلب، وتحري أوقات الإجابة، واختيار الأدعية الماثورة الجوامع منها والمفصل، وهي منثورة في كتب السنة، ومجموعة بين كتب أهل العلم، وكذلك على الداعي أن يعرف عظمة المسؤول ويوقن بالإجابة، ولا يستعجل، والله أعلم بما فيه خير العبد في السؤال والعطاء دنيا وآخرى، وخير الدعاء ما حث عليه الشارع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما سئل الله شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية»^(٥). قال أبو الحسن المباركفوري: (قال الطيبي: إنما كانت العافية أحب

(١) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي، أبو العلي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، اعتنى به: رائد بن صبري بن أبي علفة، الأردن: بيت الأفكار الدولية، ط ٥، ٢٠٠٣م، ج ٢، ص: ٢٥١٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٦٧٣٧ (٨/ ١٦).

(٣) النهاية في غريب الأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، ط ١، ١٣٨٣هـ، ج ٢، ص: ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٤) المائدة: ١٠١.

(٥) انظر: سنن الترمذي - كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ - باب ٨٥، حديث رقم: ٣٥١٥ (٥/ ٥٣٥) ضعف سنده الألباني، وصححه الحاكم.

لأنها لفظة جامعه لخير الدارين، من الصحة في الدنيا والسلامة فيها وفي الآخرة. لأن العافية أن يسلم من الأسماء والبلايا وهي الصحة ضد المرض - انتهى - . وقيل: المراد بالعافية: السلامة عن جميع الآفات الظاهرة والباطنة في الدنيا والآخرة ^(١)

(٥) قطرتان وأثران في سبيل الله

قطرتان في اللغة:

قطرتان في اللغة من (قطر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (القاف والطاء والراء هذا بابٌ غير موضوع على قياس، وكلمة متباينة الأصول، وقد كتبناها. فالقَطْر: الناحية. والأقطار: الجوانب، ويقال: طعنه فقَطَره، أي ألقاه على أحد قُطْرَيْه، وهما جانباه. قال:

قد علِمْتُ سلمى وجاراتها *** ما قَطَرَ الفارسُ إلَّا أنا

والقَطْر: العود. قال طرفة:

وتنادى القومُ في نادِيهِمُ *** أقتارَ ذاك أم رِيحُ قُطْرُ

والقَطْر: قَطْر الماء وغيره. وهذا بابٌ ينقاس في هذا الموضع، لأنَّ معناه التسابع. ومن ذلك قَطَار الإبل. وتَقَاطَرَ القومُ، إذا جاؤوا أرسالاً، مأخوذٌ من قَطَار الإبل)

أورد الجوهري في الصحاح: (القَطْر: المطر. والقَطْر: جمع قَطْرَة. وقد قَطَرَ الماء وغيره يَقْطُرُ قَطْراً) وفي لسان العرب لابن منظور: (قطر) قَطَرَ الماء والدَّمَع وغيرهما من السَّيَالِ يَقْطُرُ قَطْراً وقُطُوراً وقَطَراناً.... وفي التتيل العزيز سراييلهم من قَطِرَانٍ..... وقرأها ابن عباس: من قَطِرِ آنِ والقَطِرُ النُّحاسُ والآني الذي قد انتهى حرُّه، والقَطِرَانُ اسم رجل سمي به، لقوله:

أنا القَطِرَانُ والشُّعْرَاءُ جَرَبِي وفي القَطِرَانِ للجَرَبِي هِناءُ.

وبعير مَقْطُورٌ ومَقْطَرَنٌ بالنون، كأنه رَدُّوه إلى أصله مَطْلِيٍّ بالقَطِرَانِ (

أثران في اللغة:

وأصل كلمة (أثران) كما أورد ابن فارس من (أثر) قال: (الهمزة والشاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي. قال الخليل: لقد أثرتُ بأن أفعل كذا، وهو همٌّ في عَزْمٍ..... قال الخليل: والأثر بَقِيَّة ما يُرى من كلِّ شيء وما لا يرى، بعد أن تبقى فيه عِلَقة)

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة

والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، ط ٣، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م ، ج ٧ ، ص: ٣٥٩ .

أورد الجوهري في الصحاح: (والأثرُ بالتحريك: ما بقي من رسم الشيء وضربة السيف. وسُنُّ النبي ﷺ: آثاره. واستأثر فلان بالشيء، أي استبدَّ به، والاسم الأثرة بالتحريك).

وفي لسان العرب لابن منظور: (والأثرة الجذب والحال غير المرضية، قال الشاعر:
إذا خاف من أيدي الحوادث أثرة... كفاه حمار من غني مقيد).

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله لصاحب قطرتين وأثرين مايلي:

عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ»^(١).

قال الله تعالى في حال الأنبياء وأتباعهم الأتقياء من ذرية آدم: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٢٥﴾ خُلِفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) ^(٢) إن الأنبياء هم القدوة الحسنة في الطاعة والخشية والتوبة والإنابة، فمن فضل الله العظيم وإسداء مننه الجسيمة، أن جعل عمل العبد في أدق وأحدق الظروف منالا للأجر، بل مُكسبا لمحبه جل وعلا، فعندما تتقاطر الدموع من خشية الله أو يقطر الدم من يعمل جاهدا في سبيل الله، سواء في قتال مشروع لأعداء الله أو عملا احتسبته لله، فقد مُنح محبة الله وفاز بها. وكذا ماخطا المرء خطوة إلى فريضة، أو سعى سعيا يبتغي به وجه الله، إلا كتب له أجر الأثر، واكتسب مرضاة الله ومحبتة. وهذا الحديث فيه دلالة على فضل البكاء من خشية الله، وللخلوة في ذلك ميزة في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: (ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) ^(٣) وقال الله تعالى في وصف الذين أوتوا العلم: قال الله تعالى: (قُلْ ءَامِنُوا بِمِةٍ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٢٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٢٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) ^(٤). وفيه دلالة لما للجهد في سبيل الله من المكانة العليا في الدين وأنه ذروة سنام الإسلام، ولما للذبح لله، والصدقة الجارية، والمشي إلى المساجد، والسعي في فرائض الإسلام ونوافله؛ من الخير للعبد في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَءَاثِرُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) ^(٥). قال المناوي في

(١) انظر: سنن الترمذي - كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ - باب ماجاء في فضل المرباط، حديث رقم: ١٦٦٩ (٤/١٩٠) حسنه الألباني.

(٢) سورة مريم: ٥٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث رقم: ٦٦٠ (١/١٣٣) وانظر صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم: ٢٤٢٧ (٣/٩٣)

(٤) سورة الإسراء: ١٠٩.

(٥) سورة يس: ١٢.

شرح الجامع الصغير: ((ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين قطرة دموع) أي قطراتها فلما أضيفت إلى الجمع أفردت ثقة بذهن السامع (من خشية الله) أي من شدة خوف عقابه أو عتابه) وقطرة دم قمرق في سبيل الله) أفرد الدم وجمع الدمع تنبيها على تفضيل اهراق الدم على تقاطر الدموع (وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله) الأثر ما يبقى بعده من عمل يجري عليه) فإن المتعب لله خطواته إلى العمل الصالح أثر، وجراحات الجهاد في سبيل الله أثر، وانفطار الأقدام من القيام في الصلاة أثر، وآثار الحر والبرد على الجسد من وضوء أو سجود أو مشي للطاعاتن الأثر الحمود. كل ذلك له مقام المحبة والأجر من الله. والله واسع العطاء عظيم المن.

(٦) العطاس وحمد الله بعده

العطاس في اللغة:

العطاس في اللغة من (عطس) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (العين والطاء والسين كلمة واحدة ثم تستعار، وهي العطاس، يقال: عَطَسَ يَعْطُسُ. ويقال للأنف مَعْطَسٌ، بالكسر والفتح في الطاء ويستعار ذلك فيقال: عَطَسَ الصُّبْحُ، إذا انفَلَقَ) أورد الجوهري في الصحاح: (وظي عطس: وهو الذي يستقبلك من أمامك).

وفي لسان العرب لابن منظور: ((عطس الرجل يَعْطِسُ بالكسر وَيَعْطُسُ بالضم عَطَسًا وَعُطَاسًا وَعَطْسَةً والاسم العُطَاس وفي الحديث كان يُحِبُّ العُطَاسَ ويكره التَّثَاؤُبَ قال ابن الأثير: إنما أَحَبَّ العُطَاسَ لأنه إنما يكون مع خفة البدن، وانفتاح المسام، وتيسير الحركات والتثاؤب بخلافه، وسبب هذه الأوصاف تخفيفُ الغذاء والإقلال من الطعام والشراب والمَعْطُسُ والمَعْطُسُ الأنف لأنَّ العُطَاسَ منه)

ومما ورد في السنة من محبة الله للعطاس بلفظ الحب الصريح وحب حمده بعده:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهُ فَحَقَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمْعُهُ أَنْ يُشَمَّتَهُ وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ فَإِذَا قَالَ هَا ضَحِكُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ)^(١).

وعن معاذ بن رفاعه^(٢) عن أبيه قال: «صليت خلف رسول الله فَعَطَسْتُ فَقُلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مَبَارَكًا فِيهِ، مَبَارَكًا عَلَيْهِ كَمَا يُحِبُّ رَبَّنَا وَيَرْضَى، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ أَنْصَرَفَ فَقَالَ: مِنَ الْمُتَكَلِّمِ فِي الصَّلَاةِ ؟ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ فِي الصَّلَاةِ ؟ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ فِي

(١) انظر: صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب، حديث رقم: ٦٢٢٣ (٨/ ٤٩)

(٢) معاذ بن رفاعه بن رافع بن مالك بن العجلان الزرقى الأنصاري المدني أخو عبيد، أخرج البخاري في وصف الجنة والنار وفي شهود الملائكة بدرا. انظر التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (٧١٢/٢) وذكره ابن حبان في كتاب "الثقات روى له البخاري، وأبو داود والترمذي والنسائي. انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٢٢/٢٨).

الصلاة؟ فقال رفاعَةُ بْنُ رَافِعٍ بنُ عَفْرَاءَ: أنا يا رسولَ الله، قال: كَيْفَ قُلْتَ؟ قال قُلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طيبًا مباركًا فيه، مباركًا عليه، كما يُحِبُّ رَبُّنا ويرضَى فقال النَّبِيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده لقد ابتَدَرَهَا بِضْعَةٌ وثلاثونَ ملكًا أيُّهم يَصْعَدُ بِهَا». قال الترمذي: حديثُ رفاعَةَ حديثٌ حسنٌ وكانَ هذا الحديث عند بعضِ أهلِ العلم أَنَّهُ في التطَوُّعِ لأنَّ غيرَ واحدٍ من التابعين قالوا: إذا عَطَسَ الرجلُ في الصلاة المكتوبة إنما يَحْمَدُ الله في نفسه، ولم يُوسِّعُوا في أكثرَ من ذلك.^(١)

وللعطاس والتشاؤب آثارٌ صحيحة على البدن، وآثار دينية على المرء حال حدوثهما له (قال أبو سليمان الخطابي: معنى حب العطاس وحمده، وكراهية التشاؤب وذمه، أن العطاس إنما يكون مع انفتاح المسام، وخفة البدن، وتيسر الحركات، وسبب هذه الأمور تخفيف الغذاء، والإقلال من الطعام، والتشاؤب إنما يكون مع ثقل البدن، وامتلائه، وعند استرخائه للنوم، وميله إلى الكسل، فصار العطاس محمودا، لأنه يعين على الطاعات، والتشاؤب مذموما، لأنه يشييه عن الخيرات، فالحبة والكراهية تنصرف إلى الأسباب الجالبة لهما، وإنما أضيف إلى الشيطان، لأنه هو الذي يزين للنفس شهواتها، فإذا قال: ها، يعني: إذا بالغ في التشاؤب، ضحك الشيطان فرحا بذلك وقيل: ما تنأب نبي قط. والتشميت: هو الدعاء للعطاس بالخير، يقال: شمت العطاس وسمته بالشين والسين غير المعجمة، والشين المعجمة أعلى اللغتين، والسين من السمات، وهو القصد والهدي)^(٢) ومن أقوال الأطباء في تحليل أمر العطاس وفق معطيات وتطور الطب الحديث^(٣)، أنه من المؤثرات التنفسية على القلب وصحته، ومن أقولهم: أن الحكمة من قول "الحمد لله" بعد العطاس لأن القلب يتوقف عن النبض خلال العطاس، وأيضا تتوقف جميع أجهزة الجسم التنفسي والهضمي والبولي بما فيها القلب رغم إن وقت العطسة (ثانية أو الجزء من الثانية) وبعدها تعمل إن أراد الله لها أن تعمل، وكأنه لم يحصل شيء؛ لذلك كان حمد الله تعالى هو شكر الله على هذه النجاة. قال الإمام ابن القيم يرحمه الله: (ولما كان العطاس قد حصلت له بالعطاس نعمة ومنفعة بخروج الأبخرة المحتقنة في دماغه، التي لو بقيت فيه أحدثت له أدواء عسرة، شرع له حمد الله على هذه النعمة، مع بقاء أعضائه على التئامها وهيئتها بعد هذه الزلزلة، التي هي للبدن كزلزلة الأرض لها)^(٤)

(١) انظر: سنن الترمذي - كتاب الصلاة - باب ماجاء في الرجل يعطس في الصلاة، حديث رقم: ٤٠٤ (٢/ ٢٥٤) وانظر: سنن النسائي - كتاب الافتاح - باب قول المأموم إذا عطس خلف الإمام، حديث رقم: ١٠٠٥ (١/ ٤٧٩) حسنه الألباني.

(٢) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣ هـ، ط ٢، ج ١٢، ص: ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٣) أمراض القلب والأوعية الدموية، الدكتور عزيز صالح جواد العزاوي، الأردن (عمان): دار الفكر، ط ١، ١٩٩٣ م.

ص: ٢٤.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرئوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٤٠٧ هـ، ج ٢، ص: ٤٣٨.

(٧) الأخذ بالرخص وإتيان العزائم

الرخص في اللغة:

الرخصة في اللغة من (رخص) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الراء والحاء والصاد أصل يدل على لين وخلاف شدة. من ذلك اللّحم الرّخص، هو الناعم. ومن ذلك الرّخص: خلاف الغلاء. والرّخصة في الأمر: خلاف التشديد).

أورد الجوهري في الصحاح: (والرّخصة في الأمر: خلاف التشديد فيه. وقد رخص له في كذا ترخيصاً، فترخص هو فيه، أي لم يستقص. والرخص بالفتح: الناعم. يقال: هو رخص الجسد بين الرخصة والرخاسة).

وفي لسان العرب لابن منظور: (والرّخصة وهي الفرصة والرّفصة بمعنى واحد، ورخص له في الأمر أذن له فيه بعد النهي عنه، والاسم الرّخصة، والرّخصة والرّخصة ترخيص الله للعبد في أشياء خففها عنه)

العزائم في اللغة:

العزائم في اللغة من (عزم) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (العين والزاء والميم أصل واحد صحيح يدل على الصّريمة والقطع. يقال: عزمت أعزم عزمًا. ويقولون: عزمت عليك إلا فعلت كذا، أي جعلته أمرًا عزمًا، أي لا مثنوية فيه. ويقال: كانوا يرون لعزمة الخلفاء طاعة. قال الخليل: العزم: ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله، أي متيقنه. ويقال: ما لفلان عزيمة، أي ما يعزم عليه، كأنه لا يمكنه أن يصرم الأمر، بل يختلط فيه ويتردّد) أورد الجوهري في الصحاح: (قال الله تعالى: " ولم نجد له عزمًا " أي صريمة أمر. ويقال أيضًا: عزمت عليك، بمعنى أقسمت عليك. واعتزمت على كذا وعزمت بمعنى. والاعتزام: لزوم القصد في المشي. والعزائم: الرقى). وفي لسان العرب لابن منظور: (والصّريمة والعزيمة واحدة وهي الحاجة التي قد عزمت على فعلها يقال طوى فلان فؤاده على عزيمة أمر إذا أسرها في فؤاده والعرب تقول ما له معزم ولا معزم ولا عزيمة ولا عزم ولا عزمان وقيل في قوله لم نجد له عزمًا أي رأيًا معزومًا عليه والعزيم والعزيمة واحد يقال إن رأيته لذو عزم والعزم الصبر في لغة هذيل يقولون ما لي عنك عزم أي صبر).

لقد جاء الإسلام باليسر ورفع الحرج، وأمر الناس بما في الاستطاعة، وعذرهم بما، ورفع المشقة والعنت عنهم، قال الله تعالى: (هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)^(١)

ومما ورد في السنة من محبة الله لإتيان رخصه وعزائمه بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته^(١).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ)^(٢). ومن دروس الدعوة في موضوع الأخذ بالرخص وإتيان العزائم أعرض هنا قواعد يسير بها الداعية في طريق دعوته، وفي شأن هذا المستحب من الدين، خاصة كونه متعلقا بحياة الناس في أحكام الدين، ويكثر السؤال فيه، والنفوس مجبولة على البحث عن اليسير، أوجزها فيما يلي:

أولاً: إن الرخص الفقهية في الأحكام الشرعية تضافرت أدلتها، وحث المشرع عليها، والترغيب في الأخذ بها، وذلك بعد قيام أسبابها، وتوفر شروطها، وانتفاء موانعها. وحد حدودها، وتعيين مجالاتها وتبقى أنها إضافية أي أن كل أحد من المكلفين لحالته فقه خاص به، في الأخذ بالرخصة من عدمه. فمثلاً المشقة في السفر، التي تعتبر سبباً هاماً من أسباب الرخص تختلف قوة وضعفاً، وتزداد شدة وخفة، بحسب أحوال المسافرين، وأزمنة السفر، ومدته، ووسائله، وبحسب طبيعة الأعمال، ودرجة التصميم في العزائم، وما إلى هذا مما يتعذر ضبطه وإطراده في جميع الناس، الأمر الذي جعل من الحكمة أن يعدل عن إناطة الحكم بذات المشقة، ويسند إلى أمر آخر مما يدل غالباً عليها، كما هو الحال في السفر، فقد أنيط به الحكم لأنه أقرب مظان حصولها. وقد ترك أمر المكلفين - مع ذلك - في أكثر الحالات موكولاً إلى الاجتهاد الشخصي والفقه النفسي، فرب مريض يقوى في مرضه على ما لا يقوى عليه الآخر، فتكون الرخصة مشروعة لأحد المريضين دون صاحبه، ورب مضطر قد اعتاد الصبر على الجوع والخصاصة فلا تختل مداركه بفقد الطعام بل تلحقه المشقة فقط، في حين تختل بفقده حال غيره، فهذا يجب عليه الترخص والأول يكون مخيراً فيه إذا خلا عن المرجح. ورب عامل حمله التحمس للعمل حتى خف عليه ما ثقل على غيره من الناس. فالأصل مراعاة الحال والمآل والاعتدال.

ثانياً: إن تتبع رخص المذاهب، والجري وراءها والتحایل لدخول منطقتها دون سبب وجيه؛ يعتبر هروبا من التكاليف، وتخلصاً من المسؤولية، وهدماً لعزائم الأوامر والنواهي، وجحوداً لحق الله تعالى في العبادة، وهضمًا لحقوق عباده، وهو يتنافى مع مقصد الشارع من شرع التخفيف عموماً والرخص بصفة خاصة، وقد عبر العلماء عن هذا العمل بأنه فسق لا يحل. وحكى ابن حزم الإجماع على اعتباره كذلك، وقال -

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حديث رقم: ٥٨٦٦ (١٠ / ١٠٧) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده قوي.

(٢) انظر: صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان - باب ماجاء في الطاعات وثوابها. حديث رقم: ٣٥٤ (٢ / ٦٩) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

نقلا عن غيره^(١):- لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله.^(٢) كما نقلوا عن إسماعيل القاضي^(٣) أنه قال: دخلت على المعتضد فرفع إلي كتابا لأنظر فيه، وقد جمع فيه صاحبه الرخص من زلل العلماء، وما احتج له كل منهم، فقلت: مصنف هذا زنديق، فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: ولكن من أباح المسكر لم يبيح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبيح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق ذلك الكتاب.

ثالثا: إن الرخص أحكام الله تعالى شرعها لعباده في حالات خاصة، وهي من الدقة والخفاء، ولذلك تعين على المجتهدين أن يتحروا في الفتوى بما غاية التحري، وأن لا يراعوا من أحوال المستفتين سوى ما يساعدهم على الاهتداء إلى حكم المولى تبارك وتعالى، الذي يتلاءم مع أعمارهم ويتمشى مع أحوالهم، ذلك أن المفتي مخبر عن الله تعالى في حكمه، وأنه لا يجوز لأحد أن يفقي في دين الله إلا بالحق، الذي يعتقده أنه حق رضي بذلك من رضيه وسخطه من سخطه.

رابعا: إن الله يحب إتيان الرخص، كما في الأحاديث السابقة، ومنها قوله ﷺ: (إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه)^(٤) والأخذ بالرخص يعني تسهيل الحكم على المكلف لعذر حصل، قال ابن حجر: (وفيه دلالة على أن القصر للمسافر أفضل من الإتمام) ويجب الله إتيان العزائم أي مطلوبات الشرع الواجبة وهي الأصل، وهكذا فصل العلماء، قال المناوي: (إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه) جمع رخصة وهي مقابل العزيمة (كما يجب أن تؤتى عزائمه) أي مطلوباته الواجبة، فإن أمر الله تعالى في الرخصة والعزيمة واحد، فليس الأمر بالوضوء أولى من التيمم في محله، ولا الإتمام أولى من القصر في محله،

(١) أورد الشاطبي في الموافقات (قال سليمان التيمي: "إن أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله"، نقلا عن ابن عبد البر في الجامع بسند صحيح (٢/ ٩٢٧). وقال ابن عبد البر: "هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً". قاله في كتابه "بيان العلم" (٢/ ٨٢٧). انظر: الموافقات للشاطبي (١٣٥/٥).

(٢) كان المعنى يجعل هذه الرخص من زلات العلماء، أي التي من الفتاوى، ولولا أنها كذلك ما كانت شروراً. قلت: المعنى يتضح إذا علمنا بأنه لا يقصد بهذا الكلام - الشرور - الرخص المعتبرة بالدليل الشرعي الصحيح وإنما القائمة على الاجتهاد أو النقل الضعيف أو الحكم القائم على الدليل المرجوح. أو تتبع الفتوى القائمة على اختلاف المذاهب. والله أعلم.

(٣) إسماعيل القاضي الإمام العلامة، الحافظ، شيخ الإسلام أبو إسحاق، إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن محدث البصرة حماد بن زيد بن درهم الأزدي، مولاهم البصري، المالكي، قاضي بغداد، وصاحب التصانيف. مولده سنة تسع وتسعين ومئة، واعتنى بالعلم من الصغر. وأخذ الفقه عن أحمد بن المعدل، وطائفة، وصناعة الحديث عن علي ابن المديني، وفاق أهل عصره في الفقه. قال أبو بكر الخطيب: كان عالماً متقناً فقيهاً، شرح المذهب واحتج له، وصنف "المسند" وصنف علوم القرآن، وجمع حديث أيوب، وحديث مالك. استوطن بغداد، وولي قضاءها إلى أن توفي. وتقدم حتى صار عالماً، ونشر مذهب مالك بالعراق. وله كتاب "أحكام القرآن"، لم يسبق إلى مثله، وكتاب "معاني القرآن"، وكتاب في القراءات. قال ابن مجاهد: سمعت المبرد يقول: إسماعيل القاضي أعلم مني بالتصريف. ولي قضاء بغداد ثنتين وعشرين سنة، وولي قبلها قضاء الجانب الشرقي، في سنة ست وأربعين ومئتين، وكان وافر الحرمة، ظاهر الحشمة، كبير الشأن، توفي في شهر ذي الحجة، سنة اثنتين وثمانين ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٣٩/١٣).

(٤) انظر: صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان - باب ماجاء في الطاعات وثوابها. حديث رقم: ٣٥٤. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

فيطلب فعل الرخص في مواضعها والعزائم كذلك، فإن تعارضا في شيء واحد راعى الأفضل، قال القاضي: والعزيمة في الأصل عقد القلب على الشيء، ثم استعمل لكل أمر محتوم، وفي اصطلاح الفقهاء: الحكم الثابت بالإمالة كوجوب الصلوات الخمس وإباحة الطيبات، قال ابن تيمية: ولهذا الحديث وما أشبهه كان المصطفى ﷺ يكره مشابهة أهل الكتاب فيما عليهم من الآصار والأغلال، ويزجر أصحابه عن التبتل والترهب^(١)

خامسا: إن الرخص شرعها الله سبحانه لليسير على العباد، ولأن الشريعة جاءت باليسير ودفع المشقة عن العباد، وهذا مسطر بيانه في الكتاب والسنة، وقد حدد أهل العلم أسبابا سبعة في الأخذ بالرخص الشرعية:

١) المرض: وهو سبب لترك الصيام على خلاف القدرة وعدمها، وسبب للإتيان بالأوامر على الاستطاعة، مثل الصلاة قائما فإن لم يستطع فقاعدا وإلا فيضطجع وهكذا، وكذلك سبب لترك الجماعة للرجال والجهاد والحج وغير ذلك.

٢) السفر: وهو سبب لترك الجمع والجماعة، وسبب لترك الصيام في رمضان، وسبب لإطالة مدة المسح على الخفين أكثر من مدتها للمقيم، وسبب لقصر الصلاة.

٣) النسيان: سبب لإسقاط الإثم والمؤاخذه في الآخرة، مثل لو أنه جامع في نهار رمضان لا يأثم ولا يؤاخذ بالآخرة إذا كان ناسيا، وكذا لو نسي وأكل وشرب في نهار رمضان، وكذا لو فعل محظورا من محظورات الإحرام وهو محرم.

٤) الإكراه: لو أكره العبد على الكفر بالله وإلا قتل أو شرب أو أكل المحرم، فلا يؤاخذ على فعله ولا يأثم، فهو سبب للوقوع بالمحذور دفعا للأذى المهلك الذي يحتمل وقوعه.

٥) الجهل: إذا لم يقع منه تقصير في التعلم، فإن الجاهل لا يؤاخذ على فعله مثل لو فعل محظورا بجهل تحريمه، مثل الذي يقع على أهله في نهار رمضان جاهلا بالحكم، فإنه لا يؤاخذ ولا تلزمه الكفارة.

٦) ضعف الخلق: وهو من أسباب الرخص والتسهيل مثل الصبي والمجنون وإسقاط التكليف عنهما، وكذا النساء تخفيف التكليف عنهن مثل أنهن لا يقضين ما فاتهن من صلاة بعد الحيض وكذا ليس عليهن جمع ولا جماعة ولا جهاد.

٧) عموم البلوى: وهو في الأمر الذي يشق على الإنسان الانفكاك عنه مثل النجاسة اليسيرة التي يشق الاحتراز عنها وكالذي ابتلي بسلس البول فإنه إن دخل في الصلاة وقطر فصلاته صحيحه ولا نلزمه بالإعادة ومثله من به ريح لا يفارقه، فإذا خرج منه الريح في أثناء الصلاة وقد توضع قبلها فلا يؤاخذ.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، بيروت: دار الكتب العلمية

أما بالنسبة للأخذ بالرخص فقد تقرر عند أهل العلم في أربع درجات:

- ١- التخيير بين الأخذ بالرخصة وعدم الأخذ بها، مثل المسافر له الفطر وله الصوم إذا استوى عنده الأمران، لقول النبي عليه الصلاة والسلام لحمزة الأسلمي، عن حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ: أَصُومُ فِي السَّفَرِ وَكَانَ كَثِيرَ الصَّيَامِ، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ^(١).
- ٢- تفضيل الأخذ بالرخص: مثل قصر الصلاة في السفر ولم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه أتم في السفر ومداومته على ذلك دليل على الأفضلية.
- ٣- تفضيل الترك للرخصة وليس وجوباً بل الأفضل: مثل الصبر على الصيام في السفر مع قوة بدنية وقدرة نفسية وارتفاع الضرر، ومثل أن يكره على الكفر بالله أو سب الله ورسوله، إن أراد أن يأخذ بالرخصة له ذلك، وإن صبر وإن قتل فهو أفضل له، وقد كان هذا حال رسل الله عليهم السلام مع أقوامهم. قال الله تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَنَدُوا بِالْبَاطِلِ يُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)^(٢) وقال الله تعالى: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالُوا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)^(٣).
- ٤- وجوب الأخذ بالرخصة: مثل شرب الخمر لمن ليس لديه ماء وقد غص بالطعام، وكذا أكل لحم الميتة والختير للمضطر دفعا للهلكة عن نفسه، وهذه الأمور لما كانت سببا للحياة أبيحت بل وجب فعلها؛ فيدفع الضرر الأكبر وهو الهلاك بارتكاب الضرر الأخف وهو أكل الميتة.

ثالثاً: محاب الله الأخلاقية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) مكارم الأخلاق

مكارم الأخلاق في اللغة:

المكارم في اللغة من (كرم) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الكاف والراء والميم أصلٌ صحيح له بابان: أحدهما شَرَفٌ في الشيء في نفسه أو شَرَفٌ في خُلُقٍ من الأخلاق يقال رجلٌ كريم، وفرسٌ كريم، ونبات كريم. وأكرم الرجل، إذا أتى بأولادٍ كرام. واستكرم: اتَّخَذَ عِلْقًا كريماً. وكُرم السَّحابُ: أتى بالغيث. وأرضٌ مكرمةٌ للنبات، إذا كانت جيِّدةً النبات. والكرم في الخُلُقِ يقال هو الصَّفَحُ عن ذنبِ المذنب. قال عبدُ الله بنُ مسلم بن قُتيبة: الكريم: الصَّفوح. والله تعالى هو الكريم الصَّفوح عن ذنوب عباده المؤمنين. والأصل الآخر الكرم، وهي القِلادة).

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب الصوم - باب الصوم في السفر والإفطار، حديث رقم: ١٩٤٣ (٣/ ٣٣)

(٢) سورة غافر: ٥ .

(٣) سورة: المائدة : ٧٠ .

أورد الجوهري في الصحاح: (الكَرَمُ: ضِدُّ اللُّؤْمِ. وَقَدَّرَمَ الرَّجُلَ بِالضَّمِّ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَقَوْمٌ كِرَامٌ وَكُرَمَاءُ، وَنِسْوَةٌ كَرَامٌ. وَيُقَالُ رَجُلٌ كَرَمٌ أَيْضاً، وَامْرَأَةٌ كَرَمٌ)

وفي لسان العرب لابن منظور: (الكَرِيم من صفات الله وأسمائه وهو الكثير الخير الجوادُ الْمُعْطِي الذي لا يَنْقُذُ عَطَاؤُهُ، وهو الكريم المطلق والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والكريم اسم جامع لكل ما يُحْمَدُ، فالله عز وجل كريم حميد الفاعل ورب العرش الكريم العظيم..... قوله « وَمَكْرَمٌ وَمَكْرَمَةٌ » ضبط في الأصل والمحكم بفتح أولهما وهو مقتضى إطلاق المجد).

الأخلاق في اللغة من (خلق) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: ((خلق) الخاء واللام والقاف أصلاً: أحدهما تقدير الشيء، والآخر مَلَا سَةِ الشيء).

أورد الجوهري في الصحاح (ويقال: هذه قصيدة مَخْلُوقَةٌ، أي منحولةٌ إلى غير قائلها. وَالْخُلُقُ وَالْخُلُقُ: السَّجِيَّةُ. يُقَالُ: خَالِصُ الْمُؤْمِنِ وَخَالِقُ الْفَاجِرِ. وَفُلَانٌ يَتَخَلَّقُ بِغَيْرِ خُلُقِهِ، أي يتكَلَّفُه. قال الشاعر: إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ. وَالْخَلَاقُ: النَّصِيبُ؛ يُقَالُ: لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ. وَالْأَخْلَقُ: الْأَمْلَسُ الْمَصْمُتُ. وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ بَيْنَهُ الْخُلُقُ، أي ليس فيها وَصَمٌ وَلَا كَسْرٌ).

وفي لسان العرب لابن منظور: (الْخُلُقُ بضم اللام وسكونها وهو الدِّين والطَّبَعُ والسَّجِيَّةُ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة).

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح لمن حسن خلقه مايلي:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ^(١) بْنِ الْحَارِثِ الْمَخْزُومِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ دَقِيقَهَا وَسَفْسَافَهَا) ^(٢) وفي رواية عَنْ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا) ^(٣).

(١) عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي يكنى أبا محمد، وأمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، قيل كان ابن عشر في حياة النبي ﷺ، وخرج أبوه بعد النبي ﷺ لما خرج إلى الجهاد بالشام فمات أبوه في طاعون عمواس سنة ثمانية عشرة وتزوج عمر أمه فنشأ في حجر عمر، فسمع منه ومن غيره وتزوج بنت عثمان، ثم كان ممن ندبه عثمان لكتابة المصاحف من شباب قريش، قال ابن سعد: كان من أشرف قريش وقال ابن حبان مات سنة ثلاث وأربعين انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٢٩/٥).

(٢) السَّفْسَافُ: الرديء من كل شيء، والأمرُ الحقير. انظر: الصحاح للجوهري (٣١٩/١) وشعر سَفْسَافٌ رَدِيءٌ وَسَفْسَافٌ الْأَخْلَاقُ رَدِيئُهَا. انظر: لسان العرب لابن منظور (١٥٢/٩).

(٣) الجامع في الحديث، عبد الله بن وهب بن أبو محمد المصري، (ت: ١٩٧هـ)، المحقق: د. مصطفى حسن حسين أبو الخير، الرياض: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٦م، ج ٥، ص: ٥٩٢. انظر: باب العزلة.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير. حديث رقم: ٢٨٢٦ (٣/٢١٤).

وعن جابر رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّرَّارُونَ»^(١) وَالتَّشَدُّقُونَ وَالتَّمْتِيقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الشَّرَّارِينَ وَالتَّشَدِّقِينَ فَمَا التَّمْتِيقُونَ؟ قَالَ التَّكَبُّرُونَ»^(٢).

امتدح الله رسوله الكريم بالخلق العظيم ، قال الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)^(٣) فَإِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُتَخَلِّقَ بِالْخُلُقِ الْحَسَنِ لَهُ فَضْلٌ كَبِيرٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِمَّا يؤكد هذا الفضل ويوضح المعنى المقصود من الحديث ما علق به النووي على قوله ﷺ: (إِنْ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا)^(٤) بقوله: (فِيهِ الْحَثُّ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَبَيَانُ فَضِيلَةِ صَاحِبِهِ. وَهُوَ صِفَةُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: حَقِيقَةُ حُسْنِ الْخُلُقِ بَذَلُ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَطَلَاةُ الْوَجْهِ. قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ: هُوَ مُخَالَطَةُ النَّاسِ بِالْجَمِيلِ وَالْبِشْرِ، وَالتَّوَدُّدُ لَهُمْ، وَالْإِشْفَاقُ عَلَيْهِمْ، وَاحْتِمَالُهُمْ، وَالْحِلْمُ عَنْهُمْ، وَالصَّبْرُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَكَارِهِ، وَتَرْكُ الْكِبَرِ وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَيْهِمْ. وَمُجَانَبَةُ الْغِلْظِ وَالْعُصْبِ، وَالْمُؤَاخَذَةِ. قَالَ: وَحَكَى الطَّبْرِيُّ خِلَافًا لِلْسَّالِفِ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ هَلْ هُوَ غَرِيزَةٌ أَمْ مُكْتَسَبٌ؟ قَالَ الْقَاضِي: وَالصَّحِيحُ أَنَّ مِنْهُ مَا هُوَ غَرِيزَةٌ، وَمِنْهُ مَا يُكْتَسَبُ بِالتَّخَلُّقِ وَالِاقْتِدَاءِ بغيرِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ)^(٥). ومن بيان النبي ﷺ في الحديث يظهر أن الكبر من أسوأ الأخلاق ووسيلته اللفظية التفيهيق، والمتفيهقون: هم الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع وقيل (والفَيْهَقُ: الواسع من كل شيء) كذا في تهذيب اللغة^(٦) والمعنى يتوسعون في الكلام إظهاراً لفصاحتهم وفضلهم واستعلائهم على غيرهم. وقال المنذري في الترغيب والترهيب: (الشَّرَّارُ بَثَائِنٌ مِثْلَتَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلَامِ تَكْلُفًا)^(٧) وهذا البيان من النبي ﷺ لهذه الصفات السيئة في الخلق المبعدة للمسلم عن مقام القرب من النبي ﷺ يوم القيامة واستحقاق البغض لهم، فإنه أمر ضرير في الخلق والمصير، يوجب الحذر الشديد من هذه الأخلاق: الشرثرة والتشدد والتكبر والله أعلم.

(١) الشَّرْثَرَةُ: كثرة الكلام وترديده. يقال: ثرثر الرجل، فهو ثرثرٌ مهذار. انظر: الصحاح للجوهري (٦٩/١) ورجل ثرثرٌ وثرثرٌ مُتَشَدِّقٌ كثير الكلام والأنثى ثرَّةٌ وثرثارة. انظر: لسان العرب لابن منظور (١٠١/٤).

(٢) انظر: سنن الترمذي - كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم: ٢٠١٨ (٣٧٠/٤). صححه الألباني.

(٣) سورة القلم: ٤.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم: ٣٥٩٩ (١٨٩/٤). وانظر: صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب كثرة حياته ﷺ، حديث رقم: ٦١٧٧ (٧٨/٧).

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ١٥، ص: ٧٧-٧٨.

(٦) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠١ م، ج ٥، ص: ٢٦٢.

(٧) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧ هـ، ج ٣، ص: ٢٧٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: "إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الْمَشَاءُونَ، بِالْتَّمِيمَةِ. الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحَبَّةِ، الْمُتَلَمِّسُونَ، لِلْبَرَاءِ الْعَيْبِ" ^(١).

إن حسن الخلق من الإيمان وهو ما يؤكد محبة النبي ﷺ للمؤمن حسن الخلق، قال الحلبي ^(٢) في معنى قول النبي ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) ^(٣): (دل على أن حسن الخلق إيمان وعدمه نقصان إيمان، وأن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم، فبعضهم أكمل إيماناً من بعض، ومن ثم كان المصطفى ﷺ أحسن الناس خلقاً لكونه أكملهم إيماناً) ^(٤) وفي الحديث: (إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَافًا) دلالة على فضل التواضع وأنه درجة عظيمة في حسن الخلق، وأن من الشر بمكان في الخلق نشر القطيعة بين الناس بالتميمة وتمزيق أواصر الألفة والمحبة، وقذف البراء بالعيب وفي رواية العنت وهو الزنا. (قال المبرد: قولهم فلان موطأ الأكناف أي أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى ولا ناب به موضعه من التوطئة) ^(٥). وقد تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق، من المكارم والمحاسن والألطف والألفاظ وغيرها، وأن المعنى الموحد لها بما أقرته الشريعة والعقول والفطر السليمة، أن للخلق الحسن وصاحبه درجات سامية بين الناس، ودرجات عالية في الجنة، من أجلها مقام القرب من مجلس النبي ﷺ يوم القيامة وكسب محبته في الدنيا، ومن عجزت به نفسه عن الحسن في الأخلاق فليتحلق أي يتكلفه - وإن التخلق يأتي دونه الخلق - فمن تحلق الخلق الطيب الحسن، وخالف الناس به وعاشرهم على أخلاقهم فاز وحاز الفضل، وثبت في السنة من حديث قول النبي ﷺ: (إن الرجل ليلبغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم) ^(٦) يعني: المتنفل بالصيام، والمتنفل بالقيام فحسن الخلق الذي يبذله دائماً طاعة من طاعات الله تعالى، فيكون في عبادة دائمة، وحسن الخلق تارة يكون "طبعاً"، وتارة يكون "حملاً"، يلزم النفس بذلك وهو أعظم أجراً ممن

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير. حديث رقم: ١٨٣ (١٩/٨٠).

(٢) الحلبي العلامة البارع رئيس أهل الحديث بما وراء النهر، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي: صاحب وجوه حسان في المذهب، وكان من أذكى زمانه ومن فرسان النظر، له يد طولى في العلم والأدب؛ أخذ عن الأستاذ أبي بكر القفال، مولده سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فقيلاً: بمرجان فحمل ونشأ ببخارى، وقيل: بل ولد ببخارى، له تصانيف مفيدة، حدث عنه أبو عبد الله الحاكم مع تقدمه ونبله والحافظ أبو زكريا عبد الرحيم البخاري وآخرون؛ وهو من فرسان هذا الشأن مع أن له فيه عملاً جيداً؛ يقع لي حديثه عالياً. توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعمئة. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/١٥٦).

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب السنة - باب الدليل على زيارة الإيمان ونقصانه، حديث رقم: ٤٦٨٤ (٤/٣٥٤). وانظر: سنن الترمذي - كتاب الرضاع - باب ماجاء في حق المرأة على زوجها، حديث رقم: ١١٦٢ (٣/٤٦٦) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٧٤٠٢ (١٢/٣٦٤) تعليق الذهبي في التلخيص: صحيح. قال الألباني: حسن صحيح تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، بيروت: دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ، ج ٢، ص: ١٢٤.

(٥) الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، ج ٤، ص: ٦٨.

(٦) انظر: مسند الإمام أحمد - حديث عائشة رضي الله عنها، حديث رقم: ٢٥٠١٣ (٤١/٤٧٠) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حديث صحيح لغيره.

يفعله على وفق الطبيعة، يعني: لا يتكلف فيه؛ لأن القاعدة المقررة عند العلماء (الأجر على قدر المشقة) ومعناها الصحيح كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ رِضَاهُ أَوْ مَحَبَّتُهُ فِي مُجَرَّدِ عَذَابِ النَّفْسِ وَحَمْلِهَا عَلَى الْمَشَاقِّ؛ حَتَّى يَكُونَ الْعَمَلُ كُلَّمَا كَانَ أَشَقَّ كَانَ أَفْضَلَ، كَمَا يَحْسَبُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. لَا. وَلَكِنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ مَنَفْعَةِ الْعَمَلِ وَمَصْلَحَتِهِ وَفَائِدَتِهِ، وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَأَيُّ الْعَمَلَيْنِ كَانَ أَحْسَنَ وَصَاحِبُهُ أَطْوَعَ وَأَتْبَعَ كَانَ أَفْضَلَ. فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِالكَثَرَةِ. وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ حَالِ الْعَمَلِ)^(١) وأجل ما تخلق به المسلم آداب دينه وأوامر ربه بالاتباع وعن نواهيه بالامتناع؛ لذا انقسم الناس في أخلاقهم وأعمالهم ومصيرهم بين البر والفاجر والمفلح والخاسر.

(٢) الحياء والستر

معنى الحياء في اللغة:

الحياء في اللغة من (حيي) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الحاء والياء والحرف المعتل أصلاً: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي [هو] ضد الوقاحة).

أورد الجوهري في الصحاح: (وأحيا القوم، أي صاروا في الحياء، وهو الخصب. وقد أتيت الأرض فأحييتها، أي وجدتها خصبة. واستحياء واستحيا منه بمعنى، من الحياء. ويقال استحييت بياء واحدة، وأصله استحييت)

وفي لسان العرب لابن منظور: (والمحيي جماعة الوجه وقيل حره وهو من الفرس حيث انفرق تحت الناصية في أعلى الجبهة وهناك دائرة المحيا والحياء التوبة والحشمة وقد حيي منه حياء واستحيا واستحي حذفوا الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءين)

معنى الستر في اللغة:

الستر في اللغة من (ستر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (السين والتاء والراء كلمة تدل على الغطاء. تقول: سترت الشيء سترًا. والستر: ما استترت به، كائنًا ما كان. وكذلك الستار) أورد الجوهري في الصحاح: (والستر بالفتح: مصدر سترت الشيء أستره، إذا عطيته، فاستتر هو. وتستر، أي تغطي. وجارية مسترة، أي مخدرة)

وفي لسان العرب لابن منظور: (قوله «ستير يحب» كذا بالأصل مضبوطاً، وفي شروح الجامع الصغير ستر بالكسر والتشديد) السَّتَرُ سَتَرٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعل أي من شأنه وإرادته حب الستر والصون).

(١) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، ط ٣، ١٤٢٦ هـ، ج ٢٥، ص: ٢٨١.

ولقد وصف الله رسوله بالحياء، وأن الحياء يتوافق مع الحق ولا يمنعه، قال الله تعالى: (إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)^(١)

ومما ورد في السنة من محبة الله للحياء والستر بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عَنْ يَعْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبِرَازِ بِلَا إِزَارٍ؛ فَصَعِدَ الْمَنِيرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيٌّ حَيٌّ سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتَرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتِرْ»^(٢).

وعن عكرمة، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ كَيْفَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا وَلَمْ يَفْعَلْ بِهَا أَحَدٌ، قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ}. قَرَأَ الْقَعْنَبِيُّ إِلَى {عَلِيمٍ حَكِيمٍ}. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ السَّتَرَ، وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِيُبَيِّنَهُمْ سَتُورٌ وَلَا حِجَالٌ قَرِيبًا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوْ الْوَلَدُ أَوْ يَتِيمَةُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ، فَجَاءَهُمُ اللَّهُ بِالسُّتُورِ وَالْخَيْرِ، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدُ»^(٣).

قال الله تعالى: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ}^(٤) أورد ابن كثير في تفسيره أن هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلا جدا، لذا أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس (عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ})^(٥) إلى آخر الآية، والآية التي في سورة النساء: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}^(٦)، والآية التي في الحجرات: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}^(٧)،^(٨)

(١) سورة الأحزاب: ٥٣.

(٢) انظر: سنن أبي داود - كتاب الحمام - باب النهي عن التعري، حديث رقم: ٤٠١٤ (٧٠/٤) وانظر: سنن النسائي - كتاب الغسل والتميم - باب الاستئذان في الغسل، حديث رقم: ٤٠٤ (٢١٨/١) صححه الألباني.

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب الاستئذان في العورات الثلاث، حديث رقم: ٥١٩٤ (٥١٤/٤) قال الألباني: حسن الإسناد موقوف.

(٤) سورة النور: ٥٨.

(٥) سورة النور: ٥٨.

(٦) سورة النساء: ٨.

(٧) سورة الحجرات: ١٣.

(٨) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٨٢.

إن الإسلام منار الخير والعدل، ومسار الطهارة في النفس والعلاقات والمعاملات، والحياء خصلة من خصاله السامية، وحلة من حلاياه الجميلة، بل الحياء رأس الفضائل الخلقية، ومن عماد الشعب الإيمانية، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" ^(١) من رافقه هذا الخلق العظيم عاش في صلاح وخير، ومن نزع منه حرم الخير الكثير وخسر الخسران المبين، فيوم يترع الحياء من المرء، فإنه ينطلق في غرائزه وشهواته، انطلاق السائمة في مرعاها، ويدوس في سبيلها أركى العواطف والمبادئ، ويرتفع في غضاضة وفضاضة، دون رحمة وشفقة، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، يرى الرذيلة فضيلة، ويتمادى في غيه وضلاله، ويفخر مجرمه وذنبه، لايهمه جهر وخفاء، كاشف ستره أمام الخلق والخالق، فليس له كرامة، وأنى تكون له سعادة عن أبي مسعود رضي الله عنه قال النبي ﷺ: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ^(٢). وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء، كما يتوقعه من أعياه الفهم وأخذ جهل معاني الكلمات، بل معناه في فهم العلماء "أن من لم يستح - دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء، لا يردعه عنه رادع، فليستح المرء فإن الحياء يردعه " لأن الكلام خرج من النبي عليه الصلاة والسلام مخرج الدم لا مخرج المدح. والحياء شعبة من شعب الإيمان، وهو على ثلاثة أقسام:

(١) الحياء من الله فيكون بامتنال الأوامر، والكف عن الزواجر، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "استحيوا من الله عز وجل حق الحياء. فقيل: يا رسول الله فكيف نستحي من الله عز وجل حق الحياء؟ قال: من حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلوى، فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء" ^(٣).

(٢) الحياء في خصوص المرء مع الناس، فيكون بكف الأذى، وترك الجاهرة بالقبيح، فمن تقوى الله اتقاء باطل الناس وكف الشر عنهم، "وشر الناس يوم القيامة من اتقاء الناس اتقاء شره" فالحياء من الناس من كمال المروءة وطباع الرجولة، فمن نزع جلباب الحياء عنه قلت مروئته وظهرت بذاءته، وساء مدخله ومخرجه، وأنتن مجلسه وعافه جليسه."

(٣) الحياء من النفس ويكون بالعفة وصيانة الخلوات، باتقاء الحرمات ولزوم الطاعات وأن يكون قلبه راعياً لعمله بالحياء فيكون سواء بسواء سرا وجهراً. وتكون له خليفة:

(١) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب شعب الإيمان، حديث رقم: ١٦١ (٤٦/١).

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب إذا لم يستحي فاصنع ما شئت، حديث رقم: ٣٤٨٤ (٤/ ١٧٧).

(٣) انظر: سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٤٥٨ (٤/ ٦٣٧). وانظر:

مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حديث رقم: ٣٦٧١ (٦/ ١٨٧) حسنه الألباني.

فسري كإعلاني وتلك خليقتي *** وظلمة ليلى مثل ضوء فهاريا^(١)

دعا قوم رجلاً كان يألف عشرتهم ويأنسوا بمجلسه، فلم يجبههم ذات ليلة وقال: إني دخلت البارحة في الأربعين، وأنا أستحي من سني، ومن أثر السير أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر^(٢):

يَا أَيُّهَا الْقَلْبُ هَلْ تَنْهَاكَ مَوْعِظَةٌ *** أَوْ يُحْدِثَنَّ لَكَ طُولُ الدَّهْرِ نَسِيَانَا

إِنِّي سَأَسْتُرُ مَا دُوَّ الْعَقْلِ سَاتِرُهُ *** مِنْ حَاجَةٍ وَأَمِيْتُ السَّرَّ كِتْمَانَا

وَحَاجَةٌ دُونَ أُخْرَى قَدْ سَنَحْتُ بِهَا *** جَعَلْتُهَا لِلَّتِي أَخْفَيْتُ عَنْوَانَا

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ *** وَلَا أَمَانَةَ وَسَطَ الْقَوْمِ غُرِيَانَا

الحياء نوعان: ما كان خلقاً وجبلة غير مكتسب، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويحبها عليها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "الحياء خير كله"^(٣). فهو يكف عن ارتكاب القبائح، ودناءة الأخلاق، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار. أما ما كان مكتسباً فيكون بمعرفة الإنسان لربه وعظمته، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؛ فيحسن الأعمال ويصطفى الآداب، فذلك دليل الإيمان ونور اليقين، فتكون عاقبته مع المتقين. ومفتاح ذلك الحياء من الله عَنْ سَلَمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(٤). والحياء من أجل مظاهره الستر. وإن المفهوم الشرعي للستر في حقيقة: هو تغطية لهفات وعيوب المخطئ وإخفائها، وكذلك ستر عورته وسوءته عن الناس، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ»^(٥). أما الستر في الذنوب والخطايا، لا يعني بالتحديد تخصيصه بكل ذي ذنب أو خطأ، بل الضابط في هذا هو المجاهرة بالمعصية من عدمها، لأنه بمجاهرتة استخف بحق الله سبحانه وتعالى، وقد تورثه هذه المجاهرة إلى إقامة الحد عليه أو التعزير، مع مراعاة ضوابط التشهير، فلا بد من مراعاة المصالح والمفاسد في ذلك. يقول الإمام أحمد يرحمه الله: (وَالنَّاسُ يَحْتَاجُونَ إِلَى مُدَارَاةٍ وَرَفَقٍ، الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ بِلَا غِلْظَةٍ إِلَّا رَجُلٌ مُعْلَنٌ بِالْفِسْقِ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ نَهْيُهُ وَإِعْلَامُهُ لَأَنَّهُ يُقَالُ لَيْسَ لِفَاسِقٍ

(١) ورد عن ابن الحاجب في مجاوبة ابن الرومي، انظر: ربيع الأبرار لأبي القاسم الزمخشري، ص: ٣٥٦.

(٢) من قول سوار بن المضرب، ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٣٨/٢).

(٣) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب شعب الإيمان، حديث رقم: ١٦٦ (١/٤٧).

(٤) انظر: سنن أبي داود - كتاب الوتر - باب الدعاء، حديث رقم: ١٤٩٠ (١/٥٥٣) وانظر: سنن الترمذي - كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣٥٥٦ (٥/٥٥٦) صححه الألباني.

(٥) انظر: صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب تحريم النظر إلى العورات، حديث رقم: ٧٩٤ (١/١٨٣).

حُرْمَةُ فَهْؤُلَاءِ لَا حُرْمَةَ لَهُمْ^(١) ، وقد بنا كلامه - يرحمه الله - فيما يظهر بما ثبت عند البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: " كل أمتي معافي إلا المجاهرين، وإن من الجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويكشف ستر الله عنه "^(٢). لا ريب أن سترَ العيوب والذنوب والأخطاء نعمة من نعم الله الجليلة على عباده.. فلو أنه عزَّ وجلَّ أبدى عُيُوبَ الخلق لَفَضَحَهُمْ وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ وَكَشَفَ عَوْرَاتِهِمْ؛ ولكنه جلَّ جلاله أرحم الراحمين، ويُمهلُ العاصي والشارد والغافل؛ فلا يريد أن يفضَحَ عباده؛ بل يريد أن يتوبَ عليهم ليتوبوا إن الله هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. لا شك أن المتبع للعوامل المساعدة على الستر سيجد أنها كثيرة، لكن يمكن تقسيمها من باب التقريب إلى عاملين:

أولاً: عوامل راجعة لذات المخطئ: ولعل من أبرز هذه العوامل: التأثير القلبي واستشعار المخطئ لعظم الذنب الذي وقع منه، وظهور شرارة شروط التوبة - التي نص عليها أهل العلم - عليه، وتزليلها على واقعه. ويدل على ذلك ما جاء في قصة التي زنت في عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - فإن النبي - عليه الصلاة والسلام أعرض عنها ولم يفرح بخبرها، ولما أصرت وألحت على النبي ﷺ تريد تطهير نفسها، أمرها، بالرجوع حتى تضع ثم عادت ، ثم أمرها بالرجوع حتى تكمل الرضاعة، ثم عادت، وأقيم عليها الحد، وهذا هو الإسلام أمر بالستر ، ووجه المذنب بالستر، وأن يكفي بستر الله عليه، ويتوب عما هو عليه.

ثانياً: عوامل راجعة لنوع الخطأ: وهذه العوامل ينبغي أن تراعى فلا يعقل أن ينظر في الستر على مرتكب الكبيرة، كما يجب أن ينظر في الستر على مرتكب الصغيرة، ولا يمكن كذلك أن ينظر لمن خطأه موجب للحد، كمن خطأه لا يوجب الحد، ولا أن نتعامل مع المرأة في الستر كما نتعامل مع الرجل... وهكذا. وفي حقيقة الستر الشرعية من مواقف السلف من يرى الستر مطلقاً حتى وإن ارتكب معصية توجب حداً: ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: " لو أخذت سارقاً لأحببت أن يستره الله، ولو أخذت شارباً لأحببت أن يستره الله "^(٣). وأصرح من ذلك وأقوى في الاستدلال ما ورد من فعل المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فقد جاء في حديث أبي أمامة المخرج في الصحيحين قال: " : بينما رسول الله في المسجد ونحن قعود معه إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله: إني أصبت حداً فأقمه علي، فسكت عنه، ثم أعاد فقال: يا رسول الله: إني أصبت حداً فأقمه علي، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله

(١) الآداب الشرعية، عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، ج ١، ص: ٢١٢ .

(٢) انظر: صحيح البخاري- كتاب الأدب- باب ستر المؤمن على نفسه، حديث رقم: ٦٠٦٩ (٢٠/٨)

(٣) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ﷺ، عدد من المختصين بإشراف الشيخ: صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط ٤، ج ٦، ص: ٢٢٤٩. نقلاً عن كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، أبي بكر محمد بن جعفر بن سهل بن شاكر السامري الخرائطي، تحقيق: د. عبد الله بن بجاش بن ثابت الحميري، الناشر: مكتبة الرشد، ص ٤٩٣ .

قال أبو أمامة: فاتبع الرجل رسول الله حين انصرف، واتبعت رسول الله أنظر ما يرد على الرجل، فلحق الرجل رسول الله فقال: يا رسول الله، إني أصبت حداً فأقمه علي، قال أبو أمامة: فقال له رسول الله: "أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنست الوضوء؟ قال بلى يا رسول الله. قال: فقال له رسول الله: فإن الله قد غفر لك حدك، أو قال: ذنبك" (١). والمتأمل في الحديث يتجلى له بوضوح عدم رغبة النبي ﷺ مفاتحة الرجل في ذنبه الذي ارتكبه، بل إنه أعرض عنه، ولما انقضت الصلاة لم يبحث عنه، وإنما انصرف ولحق به الرجل، وكل ذلك يدل على التأكيد على أهمية الستر وفضله، لمن يتأمل هذا الهدى النبوي، بل حتى الشهادة في مثل هذه القضايا ينبغي علينا أن نلاحظ أن ثلاثة أرباع الشهادة التامة فيها، تنقلب ردعاً للشاهد وزجراً له عن النفوذ بالشهادة، فإن لم يكتمل عدد الشهود الأربعة يعد من شهد من الآثمين المتلبسين بجريمة القذف؛ وذلك من الحكمة في الستر وأن يظل المخطئ في حدود الستر المنجية من العقاب. وأما عن الآثار الإيجابية المترتبة على الستر سواء على الفرد أو المجتمع فهي كثيرة يمكن أن نوجزها في النقاط التالية:

أولاً: استشعار فضل الستر، وأن الله يستر من ستر عبداً مذنباً، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: " لا يستر عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة" (٢)، وأن الله يحب الستر وأنه ستر.

ثانياً: رجوع المستور عليه وتوبته، وليعلم من أنعم الله عليه بالستر بين عباده أن الله يمهّل ولا يهمل، وأن الله قادر على أن يكشف ستره إذا هو كشف الستر الذي بينه وبين الله، وأن الله مطلع عليه وأن من قام بالستر عليه لم يستره عن عين الله، قال تعالى: (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) (٣)

ثالثاً: أن الستر علاج اجتماعي لكثير من المشكلات الاجتماعية والمثالب الشخصية، حيث تختفي فيه كثير من أمراض المجتمع؛ فيكون ظاهر الناس الأخلاق الحميدة والأفعال الطيبة، وتختفي معالم السوء والشر عن أعين الناس صغاراً وكباراً. وبذلك يعلو الخير على الشر.

رابعاً: انتشار المحبة والألفة بين الناس، وفشو حسن الظن بين المؤمنين، قال تعالى:

(يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ تَوَّابٌ) (٤) الآية. قال القرطبي في تفسيره حول القيود الشرعية للظن: (قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو قهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون

(١) انظر: صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات)، حديث رقم: ٧١٨٣ (١٠٣/٨).

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة، حديث رقم: ٦٧٦٠ (٢١/٨).

(٣) سورة فصلت: ٢٢.

(٤) سورة الحجرات: ١٢.

الظن هنا بمعنى التهمة قول تعالى: "وَلَا تَجَسَّسُوا" وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة. فهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك. وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهده منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث^(١)

(٣) العفو

العفو في اللغة:

العفو في اللغة من (عفا) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (ومن الباب العافية: دفع الله تعالى عن العبد، تقول عافاه الله تعالى من مكروهة، وهو يعافيه معافاةً. وأعفاه الله بمعنى عافاه. والاستعفاء: أن تطلب إلى من يكلفك أمراً أن يعفبك منه) أورد الجوهرى في الصحاح: (وعَفُو المال ما يفضل عن النفقة. يقال: أعطيته عفو المال، يعني بغير مسألة. قال الشاعر:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوْدَتِي *** وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضِبُ)

وفي لسان العرب لابن منظور: (قال ابن الأنباري: في قوله تعالى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذُنْ لَهُمْ) مَحَا اللَّهُ عَنْكَ، مأخوذ من قولهم عَفَتِ الرياحُ الآثارَ، إِذَا دَرَسَتْهَا وَمَحَتْهَا، وَقَدْ عَفَتِ الْآثَارُ تَعَفُّوا عَفُوءاً).

لقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالعفو والصفح، ومن صفاته سبحانه وتعالى العفو، قال الله تعالى:

(إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)^(٢)، ومما رُوِيَ في السنة بلفظ الحب الصريح من

محبة الله للعفو مايلي:

عن أبي ماجد الحنفي^(٣) قال: (كنت قاعدا مع، عَبْدَ اللَّهِ، قَالَ: إِنِّي لِأَذْكُرُ أَوَّلَ رَجُلٍ قَطَعَهُ، أَتَى بِسَارِقٍ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهِ، وَكَانَ مَا أَسْفَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ كَرِهْتَ قَطْعَهُ؟ قَالَ: وَمَا

(١) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد السبرودني و إبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ١٣٨٤هـ، ج ١٩، ص: ٢٧٥.

(٢) سورة النساء: ١٤٩.

(٣) أبو ماجد الحنفي العجلي، ويقال ماجدة الفراء العجلي الكوفي عن بن مسعود، قيل اسمه عائذ بن نضلة، مجهول لم يرو عنه غير يحيى

الجابري، قال الدارقطني: مجهول متروك. انظر: لسان الميزان لابن حجر (٩ / ٤٨١).

يَمْنَعُنِي، لَا تَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ، إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ إِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ حَدٌّ أَنْ يُقِيمَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَفْوٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ} (١).

إن للعباد حقوق أوجبها الله وشرعها، وله سبحانه حقوقه العظيمة، ومن أجلها تحقيق التوحيد، فإن العباد فيما بينهم تصلهم علاقات مختلفة دينية وبدنية ومالية وأسرية واجتماعية، ولا بد من وجود الزل؛ لأن الإنسان خطاء فأمر سبحانه بالعفو والصفح، وجعل له قدرا وأجرا عظيما، بل ربط عفوهُ سبحانه عمن عفا وأصلح وإحسانه سبحانه لمن أحسن فمن صفاته العفو. ومن أسمائه العَفُوُّ وأنه يحب العفو قال الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (٢) أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم فيسدل عليهم ستره، ويعاملهم بعفوهِ التام الصادر عن قدرته. ومن دلالات الحديث ما أمر به الرسول ﷺ في حالة هذا السارق الذي أقيم عليه الحد، فجعل عدم العفو سبيل معونة للشيطان على الإنسان، ولو عفا صاحب الحق قبل أن يصل الأمر إلى السلطان، لكان فيه مصالح عظيمة من المعونة على التوبة وصالح الجاني والحفاظ على سلامة الروابط بين المسلم وأخيه، وما يحصل عليه من الأجر والفضل.

(٤) الجمال

الجمال في اللغة:

الجمال في اللغة من (جمل) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: ((جمل) الجيم والميم واللام أصلا: أحدهما تجمع وعظم الخلق، والآخر حُسْنٌ. فالأول قولك أَجْمَلْتُ الشَّيْءَ، وهذه جُمْلَةُ الشَّيْءِ. وَأَجْمَلْتُهُ حَصَلْتُهُ. وقال الله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) (٣).

ويجوز أن يكون الجَمَل من هذا؛ لعظم خلقه. والجَمَل: حَبْلٌ غليظ، وهو من هذا أيضاً. ويقال أَجْمَلَ القَوْمُ كَثُرَتْ جَمَالُهُمْ. والجَمَالِي: الرَّجُلُ العظيم الخلق، كأنه شَبَّهَ بالجمال.

والأصل الآخر الجَمَال، وهو ضدُّ القبح. ورجلٌ جميل وجَمال. قال ابن قتيبة: أصله من الجَمِيل وهو وَدَكُ الشَّحْمِ المَذَابِ. يراد أن ماء السَّمَنِ يجري في وجهه. ويقال جَمَالُكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا، أي اجْمُلْ ولا تَفْعَلْهُ. قال أبو ذؤيب:

جَمَالُكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَرِيحُ *** سَتَلْقَى مَنْ تُحِبُّ فَتَسْتَرِيحُ (

أورد الجوهري في الصحاح: (الجَمَلُ من الإبل. قال الفراء: الجَمَلُ: زوج الناقة، والجمع جَمالٌ وأَجْمالٌ وجمالاتٌ وجمائلٌ. والجامِلُ: القطيع من الإبل مع رُعَاتِهِ وأربابه. قال الشاعر:

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حديث رقم: ٤١٦٨ (٧/ ٢٣٢) تعليق شعيب الأرناؤوط: حسن بشواهد وهذا إسناد ضعيف. قال الألباني: الحديث عندي حسن، فإن جله قد ثبت مفرقا في أحاديث، فقوله: " لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم "، أخرجه البخاري.

(٢) سورة الشورى: ٢٥.

(٣) سورة الفرقان: ٣٢.

لهم جاملٌ ما يهدأ الليلَ سامرُهُ . وتقول: اسْتَجْمَلَ البعيرُ، أي صار جملاً وإنما يسمى جملاً، إذا أَرَبَعَ. والجمالةُ: أصحاب الجمال، مثل الحيالة والحمارة. والجمالُ: الحُسْنُ وقد جَمَلَ الرجلُ بالضم جمالاً فهو جميلٌ، والمرأة جميلةٌ وجملاً أيضاً، عن الكسائي. وأنشد:

فَهِيَ جَمَلَاءُ كَبْدَرٍ طَالِعٍ *** بَدَتْ الخَلْقَ جميعاً بالجمالِ

وفي لسان العرب لابن منظور: (والجمال مصدر الجميل، والفعل جَمَلَ، وقوله عز وجل: ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. أي بهاء وحسن. ابن سيده: الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق، وقد جَمَلَ الرجل بالضم جمالاً فهو جميل، وجمال بالتخفيف هذه عن اللحياني، وجمال الأخيرة لا تُكسَر، والجمال بالضم والتشديد أجمل من الجميل، وجملة أي زينته والتجمل تكلف الجميل)

لقد أمر الله تعالى رسوله الكريم، بالهجر الجميل والصبر الجميل والصفح الجميل، قال الله تعالى: (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ وَاصْصَبْ الْجَمِيلُ)^(١) والجمال ظاهر وباطن، ومما ورد في السنة من محبة الله للجمال بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَتَعْمَلُهُ حَسَنَةً. قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ »^(٢). وهذا الحديث يعارض الحديث الضعيف بعده ويؤكد ضعفه لتعارض ظاهر اللفظ بينهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلَ الَّذِي لَا يُبَالِي مَا لَبَسَ)^(٣). والدخول إلى باب الزهد من هذا الحديث له صلة باختيار الملابس وإن قل شأنه في نظر الناظر، أما أن تكون البدالة صفة محبوبة فهذا معارض لأدلة الشرع التي تأمر بعزة وقوة المؤمن وجماله، ومنها قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » قال الإمام النووي في معناه من حيث وصف الله بالجمال وتسميته بالجميل (وقوله صلى الله عليه وسلم إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ اختلّفوا في معناه، فقليل إن معناه أن كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل، وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال، وقيل جميل بمعنى مُجَمِّلٍ، ككريم وسميع بمعنى مكرم ومسمع، وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله: معناه جليل^(٤)، وحكى الإمام أبو سليمان

(١) سورة الحجر: ٨٥.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٢٧٥ (٦٥/١).

(٣) انظر: شعب الإيمان للبيهقي، كتاب الملابس والزّي والأواني وما يكره منها - فصل: فيمن اختار التواضع في اللباس، حديث رقم: ٥٧٦٥ (٢٤٦/٨).

(٤) ظاهر القول فيه التأويل، وهو مخالف لأصل معتقد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات الذي يقوم على عدم التأويل والتكييف والتحريف، والقول الصحيح في أن الله جميل هو: أن الله جميل جمالا كاملا مطلقا، يليق بجلاله، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. والله جميل الجمال المطلق، وثبت هذا الاسم من خلال نصوص السنة كما ورد في الحديث المنصوص عليه أعلاه. وهو من الأسماء الحسنى التي جمعها

الخطابي أنه بمعنى ذي النور والبهجة أي مالههما، وقيل معناه جميل الأفعال بكم، باللطف والنظر إليكم، يكلفكم اليسير من العمل ويعين عليه ويثيب عليه الجزيل ويشكر عليه، واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح، ولكنه من أخبار الآحاد وورد أيضا في حديث الأسماء الحسنى، وفي إسناده مقال. والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى، ومن العلماء من منعه، قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين رحمه الله تعالى: ما ورد الشرع بإطلاقه في أسماء الله تعالى وصفاته أطلقناه، وما منع الشرع من إطلاقه منعه، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم، فإن الأحكام الشرعية تنلقى من موارد الشرع، ولو قضينا بتحليل أو تحريم لكننا مثبتين حكما بغير الشرع، قال: ثم لا يشترط في جواز الإطلاق ورود ما يقطع به الشرع، ولكن ما يقتضى للعمل وإن لم يوجب العلم فإنه، كاف إلا أن الأقيسة الشرعية من مقتضيات العمل ولا يجوز التمسك بهن في تسمية الله تعالى ووصفه، هذا كلام إمام الحرمين ومحلله من الإتيان والتحقيق بالعلم مطلقا، وبهذا الفن خصوصا معروف بالغاية العليا، وأما قوله لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم لأنه ذلك لا يكون إلا بالشرع، فهذا مبني على المذهب المختار في حكم الأشياء قبل ورود الشرع، فإن المذهب الصحيح عند المحققين من أصحابنا، أنه لا حكم فيها لا بتحليل ولا تحريم ولا إباحة ولا غير ذلك، لأن الحكم عند أهل السنة لا يكون إلا بالشرع، وقال بعض أصحابنا أنها على الإباحة، وقال بعضهم على التحريم، وقال بعضهم على الوقف لا يعلم ما يقال فيها، والمختار الأول والله أعلم. وقد اختلف أهل السنة في تسمية الله تعالى ووصفه من أوصاف الكمال والجلال والمدح بما لم يرد به الشرع ولا منعه، فأجازه طائفة ومنعه آخرون إلا أن يرد به شرع مقطوع به من نص كتاب الله أو سنة متواترة أو إجماع على إطلاقه، فإن ورد خبر واحد، فقد اختلفوا فيه فأجازه طائفة وقالوا: الدعاء به والثناء من باب العمل، وذلك جائز بخبر الواحد، ومنعه آخرون لكونه راجعا إلى اعتقاد ما يجوز أو يستحيل على الله تعالى وطريق هذا القطع، قال القاضي والصواب جوازه لاشتماله على العمل لقوله الله تعالى والله الأسماء الحسنى فادعوه بها والله أعلم^(١)

إن الجمال بقسميه الباطن والظاهر يمثل إثارة للحب، وعناية المرء بالجمال هو من مأمورات الشرع ومندوحاته، وأن من يعتني بالظواهر دون البواطن، فإنه لا يحقق معنى الجمال المتكامل، وكثير من يغفل عن هذا الميزان، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ كَمَا حَسَنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ

فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين من الكتاب والسنة في كتابه (شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) ص: ٥٦. وهذا الكتاب مؤصل في عقيدة أهل السنة والجماعة في باب صفات الله وأسمائه الحسنى.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج ٢، ص: ٩٠ - ٩١.

خُلِقِي^(١). فكأنها رسالة إلى العناية بالباطن - ومن ذلك القلب والأخلاق - أمرٌ هو من صلب ديننا وشرعنا، ومقصد هامٌّ من مقاصد الشريعة الغراء، وأن من يعتني بمظهره الخارجي فقط ويدع الأمراض المعنوية والنفسية تفعل فعلها في داخله، فهو غافل لا يدرك المصلحة الشرعية وعنده خلل في مقاييس الجمال. لأن لكل شيء وضع جمالي يناسب الحال، فإن جمال القلب بمحبة الله والخوف منه والرجاء، وجمال اللسان بالصمت وذكر الله، وجمال الكلام بالصدق، وجمال الحال بالاستقامة، وجمال العقل بالعلم، والجمال كله في توحيد الله والعبادة والشكر له وحسن الطاعة. وهكذا فإن مناسبة الحال لكل شيء بالعناية به تصفي عليه معنى الجمال الحقيقي. كقول عمرو بن معد يكرب^(٢):

لَيْسَ الْجَمَالَ بِمِثْرٍ *** فَأَعْلَمُ وَإِنْ رُدِّيتَ بَرْدًا
إِنَّ الْجَمَالَ مَآثِرٌ *** وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثَنَ مَجْدًا

الجمال هو ضد القبح، ويوصف الجمال بالحسن، ولا ريب أن النفوس بطبيعتها تحب كل حسن وجميل في الخلق والخلق والمكان والزمان ولكل جزء في هذه الحياة مقاييس جمالية يحتكم الناس إليها في تحديد مدى الجمال سواء كانت عرفية أو عقلية أو شرعية ومن الأهمية بمكان هنا أن نعلم أن الإسلام قد أضفى بتشريعاته على الحياة جميع أشكال الجمال المادية والمعنوية، ومن هدي الكتاب والسنة في محبة الجمال أن الله تعالى جميل يحب الجمال، والجمال له جمالا كاملا يليق بجلاله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. والجمال الذي يحبه في الخلق هو ما جاء منهم موافقا للشرع من الأوامر والنواهي. وأيضا أن النبي ﷺ أوتي من الجمال ما وصفت ملامس يده بالحرير وريحه بأحسن الطيب ووجهه بفلقة القمر، فمن حديث توبة كعب بن مالك: (قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ « أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتُكَ أُمُّكَ ». قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَالَ « لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ - قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ)^(٣) ومن المعلوم بحقيقة الواقع أن منظر العين إلى مناظر الطبيعة الجميلة في الإنسان والحيوان

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حديث رقم: ٣٨٢٣ (٤٠٣/١) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: إسناده حسن. وصحح الألباني في إرواء الغليل دعاء: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي. قال: رواه البيهقي عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خَلْقِي " قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: وَرَفَعَهُ أَيْضًا أَبُو شَهَابٍ الْحَنَاطِيُّ عَبْدُ رَبِّهِ بْنِ نَافِعٍ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " اللَّهُمَّ كَمَا حَسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خَلْقِي " ١٨٨٤ (٦٢/١١)، ورواه ابن مردويه وزاد وحرم وجهي على النار. انظر: الدعاء للطبراني - باب القول عند النظر في المرأة.

(٢) لباب الآداب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النعالي النيسابوري، تحقيق: أحمد حسن ليج، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ هـ، ص: ١٤٢.

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم: ٤٤١٨ (٣/٦) وانظر: صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم: ٧١٩٢ (٨/١٠٥).

والنبات والكون وفي كل شيء وسيلة عليها الاعتماد في الجمال ، والعيون نفسها نوع جمالي تنظر إليها العيون وتتغنى بجمالها. لذا فإن الجمال صفة تتشكل من صفات وتورث صفات ولعل أبرز ما يطفئ نور الجمال في البشر صفة الكبر وأبرز ما يزيد جمالاً الحياء في النساء والحلم في الرجال. والجمال الحقيقي هو اتساق بين المظهر والمخبر، ونسق في أجزاء الجمال بنوعيه: الجمال المعنوي والجمال المادي كل في محله.

كان من بين الصحابة على عهد رسول الله ﷺ صحابي اسمه زاهر بن حرام الأشجعي، وكانت به دمامة - رضي الله عنه - وكان لحبه الجم لرسول الله ﷺ يتفقده ببعض طعام أهل البادية، وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يُبادلُه الهدية بالهدية، ويمنحه مشاعر الحب. وذات يوم رآه رسول الله ﷺ في سوق المدينة وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره زاهر، فقال: أرسلني، مَنْ هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألُو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ يشتري العبد؟)) فقال: يا رسول الله، إذا - والله - تجديني كاسداً، فقال رسول الله ﷺ: ((لكن عند الله لست بكاسد)) أو قال: ((لكن عند الله أنت غال))^(١).

ولنعلم أن الجمال كلمة ذات معان عظيمة، وذات أبعاد عميقة، ويختلف الناس في تحديد أبعادها وحصر معانيها، فالكل ينظر إليها من زاوية محددة في شخصيته وما تمثله في حياته، أو ما يظهر إليه من خلال فكره، وعليه فإن الجمال ما عظمه الشخص لحسن يراه، أو وصف فاق به غيره في النواحي المعنوية أو المادية ظاهراً وباطناً، وقد أمر الله تعالى نبينا بالصفح الجميل.

(٥) المدح والعذر والغيرة والخيلاء

المدح والعذر في اللغة:

المدح في اللغة من (مدح) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الميم والذال والحاء أصلٌ صحيح يدلُّ على وصف محاسن بكلام جميل. ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ مَدْحًا: أَحَسَّنَ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ. وَالْأُمْدُوحَةُ: الْمَدْحُ. وَيُقَالُ الْمَقْبَةُ أُمْدُوحَةٌ أَيْضًا. قَالَ:

لو كان مِدْحَةٌ حَيٌّ مُنْشَرًّا أَحَدًا *** أَحْيَا أَبَاكُنَّ يَا لَيْلَى الْأُمَادِيحُ^(٢))

أورد الجوهري في الصحاح: وَتَمَدَّحَتْ خَوَاصِرُ الْمَاشِيَةِ، أَيِ اتَّسَعَتْ شِبَعًا، مِثْلَ تَنَدَّحَتْ. وَقَالَ الرَّاعِي يَصِفُ فَرَسًا: فَلَمَّا سَقَيْنَاهَا الْعَكِيسَ^(٣) تَمَدَّحَتْ *** خَوَاصِرُهَا وَازْدَادَ رَشْحًا وَرِيدُهَا^(٤).

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم: ١٢٦٤٨ (٩٠/٢٠) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) البيت من أقوال: الهذلي: انظر: شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي. ص: ٥٤.

(٣) العكيس من اللبن: الحليب تصبُّ عليه الإهالة انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس. (١٠٧/٤)

(٤) انظر: ديوان الراعي النميري، الراعي عُيَيْد بن حُصَيْن بن معاوية بن جندل، النميري. ص: ٨١.

وفي لسان العرب لابن منظور: (والمَادِحُ ضدُّ المَقَابِحِ وامتدَّحت الأرض وتمدَّحت اتسعت)
الْعذر في اللغة:

العذر في اللغة من (عذر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (العين والذال والراء بناء صحيح له فروغٌ كثيرة، ما جعلَ الله تعالى فيه وجهَ قياسٍ بَتَّةً، بل كلُّ كلمةٍ منها على نحوها وجهتها مفردة. فالعُذرُ معروف، وهو روم الإنسان إصلاح ما أنكرَ عليه بكلام. يُقال منه: عذَرْتُهُ فَأَنَا أَعَذِرُهُ عَذْرًا، والاسم العُذرُ). أورد الجوهري في الصحاح: (والعُذرة: كواكب في آخر الحجر خمسة. والعُذرة: البَكَارَى. والعذراء: البكر). وفي لسان العرب لابن منظور: ((عذر) العذر الحجة التي يُعْتَذِرُ بها والجمع أَعذارٌ..... ومنه حديث الإفك فاستَعَذَرَ رسولُ الله ﷺ من عبد الله بن أبيّ، وقال وهو على المنبر من يَعْذِرُنِي من رجل قد بلغني عنه كذا وكذا ؟).

ومما ورد في السنة بلفظ الحب الصريح من محبة الله تعالى للعذروالمدح والغيرة والخيلاء مايلي:

(١) عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَغَيْرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغَيْرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا شَخْصَ أَغَيْرُ مِنَ اللَّهِ وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ ». (١).

(٢) عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: لَا أَحَدَ أَغَيْرُ مِنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ لِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ قُلْتُ سَمِعْتُهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَرَفَعَهُ، قَالَ: نَعَمْ. (٢).

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل، وأبان الصراط المستقيم ببيان ما يحبه وما يغضبه، وهو بذلك قد أعذر العصاة وأنذر الناس وأقام الحجة عليهم، ومنع سلطان الشيطان عن عباده المتقين المخلصين، قال الله تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (٣) وقال سبحانه: (بَلْ آلَنَسْنُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ ۖ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) (٤) فمع العذارة بالبيان يكون العدل في الحساب، ومع النذارة

(١) انظر: صحيح البخاري- كتاب المحاريب من أهل الكفر والردة - باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله، حديث رقم: ٧٤١٦ (١٢٣/٩) وانظر: صحيح مسلم- كتاب اللعان، حديث رقم: ٣٨٣٧ (٢١١/٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري- كتاب التفسير- سورة الأنعام- باب قوله (ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) حديث رقم: ٤٦٣٤ (٥٧/٦).

(٣) سورة النساء: ١٦٥.

(٤) سورة القيامة: ١٥.

بالبلاغ يكون الحق في العقاب، والله سبحانه الحكيم العدل في أمره وقضائه، وقيل قد أعذر من أنذر، فإن من محاب الله أن يعذر وينذر قبل أن يأخذ بالعقوبة، فقال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا)^(١)، قال النووي يرحمه الله في شرحه لصحيح مسلم: ((وَالْغَيْرَةُ بَفَتْحِ الْغَيْنِ، وَهِيَ فِي حَقِّهَا: الْإِنْفَةُ، وَأَمَّا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ فَسَّرَهَا هُنَا فِي حَدِيثِ عَمْرِو النَّاقِدِ بِقَوْلِهِ ﷺ: (وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ) (أَي: غَيْرَتَهُ مِنْهُ وَتَحْرِيمَهُ)^(٢). قَوْلُهُ ﷺ: (وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى) حَقِيقَةٌ هَذَا مَصْلَحَةٌ لِلْعِبَادِ، لِأَنَّهُمْ يُشْنُونَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيُثْبِتُهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، لَا يَنْفَعُهُ مَدْحُهُمْ، وَلَا يَضُرُّهُ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ. وَفِيهِ: تَنْبِيهُ عَلَى فَضْلِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَسْبِيحِهِ وَتَهْلِيلِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَكْبِيرِهِ، وَسَائِرِ الْأَذْكَارِ))^(٣). فقد وعد الله عباده الجنة ووصفها لهم بما يرون من نعيم الدنيا، وهي في حقيقتها فيها ما لا عين رأت وأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من النعيم واللذة، فشمروا المشمرون من عباد الله وطلبوا محبته بالعبادة والدعاء والذكر، ثناء عليه، وإلحاحا وتضرعا وسؤالا طلبا للجنة ونيعمها، وحبا في الله وما وعد، فإنه سبحانه يحب المدح والثناء وهو الغني الكريم، وهو المستحق له على وجه الكمال في الوصف والحال. فأحل سبحانه الحلال وحرم الحرام وجعل محارمه حمي، وجعل الجنة لمن اتقى، ففي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه الذي عده العلماء من أصول الدين الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات قال: (فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ) قال ابن رجب في شرحه^(٤) لهذا الحديث: (ويستدل بهذا الحديث من يذهب إلى سد الذرائع إلى المحرمات وتحريم الوسائل إليها) وقال النووي في شرح صحيح مسلم: (وَلِلَّهِ تَعَالَى أَيْضًا حِمَى وَهِيَ مَحَارِمُهُ، أَيْ: الْمَعَاصِي الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ، كَالْقَتْلِ وَالزَّوْنِ وَالسَّرِقَةِ وَالْقَذْفِ وَالْخَمْرِ وَالْكَذِبِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَأَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، فَكُلَّ هَذَا حَمَى اللَّهِ تَعَالَى مَنْ دَخَلَهُ بَارِتِكَابَهُ شَيْئًا مِنَ الْمَعَاصِي اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ، وَمَنْ قَارَبَهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، فَمَنْ احْتَنَطَ لِنَفْسِهِ لَمْ يُقَارِبْهُ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ يُقَرِّبُهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَلَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ)^(٥).

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) الله سبحانه وتعالى يغفر، كما ثبت في الحديث الصحيح المنصوص عليه أعلاه، غيرة تليق بجلاله وعظمته، فمن صفاته (الغيرة) ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته، أما الحلال والحرام فهو شرعه الذي جاءت به الرسل.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ١٧، ص: ٧٧.

(٤) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب الحنبلي، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٢، ١٤١٠ هـ، ص: ٧٣.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ١١، ص: ٢٨.

(٣) عن ابن جابر بن عتيك الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، ومن الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في ريبة، وأما التي يبغض الله فالغيرة في غير الريبة، وأما الخيلاء التي يحب الله أن يتخيل العبد بنفسه الله عند القتال، وأن يتخيل بالصدقة»^(١). وفي رواية أبي داود: (وأن من الخيلاء ما يبغض الله ومنها ما يحب الله، فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال واختياله عند الصدقة، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي قال موسى^(٢) والفخر^(٣)).

إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة وهي غيرة الإنسان على أهله في ريبة أي في أمر محرم خشية حصوله، وهذا مما يحبه الله عز وجل، والغيور هو ضد الديوث الذي يقر الخبث في أهله ولا يبالي ولا يهتم. والغيرة فيما أباحه الشرع غيرة يبغضها الله، ومن أمثلة ذلك كون الإنسان يغار على نكاح قرأته وزواجهم ويمنع ذلك ويكرهه، فالغيرة فيه وكراهية ذلك أمر مبغوض عند الله عز وجل، فالغيرة في الريبة أي: فيما حرمه الله فهي محمود، والغيرة في غير الريبة، أي: فيما أباحه الله فهي مذمومة.

و من دلالة الحديث أيضا أن الخيلاء في الحرب سائغة شرعا وعقلا، وهي في الأصل من الأفعال غير السائغة شرعا، لا تجوز، فإن الله تعالى قد ذم المختال الفخور وبين أنه لا يحبه كما سيأتي بيانه في المطلب التالي في وصف (مساخط الله)، ولكن هذا الفعل في حال الحرب سائغ وجائز؛ لأنه يدل على الثبات والقوة ورباطة الجاش وعزة النفس، ويدل على شجاعة الرجل وعدم خوفه، فأبيح في حالة الحرب لما فيه من عزة الإسلام والمسلمين وبه عمل الصحابة رضوان الله عليهم كما كان من موقف أبي دجانة في غزوة أحد روى الطبراني في المعجم الكبير (أن أبا دُجَانَةَ يَوْمَ أُحُدٍ أَعْلَمَ بِعِصَابَةِ حَمْرَاءَ، فَتَنَظَرَ إِلَيْهِ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُخْتَالٌ فِي مِشْيَتِهِ بَيْنَ الصَّفَيْنِ، فَقَالَ: "إِنَّهَا مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ")^(٤). وقوله ﷺ: (واختياله عند الصدقة) يعني كونه يجود بالصدقة ويبدلها، قال الخطابي في معالم السنن: (قلت معنى الاختيال في الصدقة أن يهزه أريحية السخاء فيعطيه طيبة نفسه بها من غير من ولا تصريد^(٥))^(٦) ويترتب على ذلك

(١) انظر: سنن النسائي - كتاب الزكاة - باب الاختيال في الصدقة، حديث رقم: ٢٣٥٠ (٦٢/٣) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند

الأنصار رضي الله عنهم حديث رقم: ٢٣٧٤٧ (١٥٦/٣٩) حسنه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حسن لغيره.

(٢) هو موسى بن إسماعيل، أحد رجال السند في رواية هذا الحديث.

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في الخيلاء في الحرب، حديث رقم: ٢٦٦١ (٤/٣) حسنه الألباني.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير. حديث رقم: ٦٣٨٨ (٢١٨/٦).

(٥) الصرد: البحت الخالص. يقال: أحبه حباً صرداً. وتبيد صرداً. وكذب صرداً. والصدرد: البرد، فارسي معرب. تقول: يوم صرد. انظر:

الصاحح للجوهري (٣٨٤/١) ويوم صرد وكيلة صرد شديدة البرد. وانظر: لسان العرب لابن منظور (٢٤٨/٣).

(٦) معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي، حلب: المطبعة العلمية، ط ١، ١٣٥١هـ، ج ٢، ص: ٢٧٦.

اقتداء به ومتابعة له، فإن ذلك سائق في الشرع قال الله تعالى: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَيَعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ)^(١) ومن حكمة إبداء الصدقة ما يعود على الفقراء والأغنياء واجتماع من النفع العظيم. بل إن الصدقات نوع من السخاء المندوب إليه في الشرع ويكمن في عدة وجوه. أولها: سخاء الإنسان على نفسه فتعاليم الإسلام، توصي بأن يكرم المرء نفسه وأن يشبع فمهما من الحلال فيصدها بذلك عن الحرام كما يصونها من مظاهر الفاقة التي تخدش مكانتها في اجتماع وتبسط بها دون المستوى الواجب لعزة المسلم، كما يكون السخاء في سعة الإنسان ونفقتة على أهله وولده، في نطاق القصد الذي لا إسراف فيه ولا تبذير، والسخاء واجب على الأقرباء قبل غيرهم وهو سمة المسلم في بذل المعروف والإنفاق في أوجه الخير بما ينفع الإنسانية ويدفعها إلى تحقيق العبودية لله جل وعلا، فالسخاء ليس مقتصرًا على بذل المال فحسب، بل مفهومه أوسع، وصوره أعم وأشمل. وما ورد في محبة الله للسخي الجاهل دون البخيل العابد فضيف جدا^(٢) في تحقيق أهل الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: (وَالسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ. وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. وَالْجَاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ). والله أعلم.

رابعاً: محاب الله العملية الواردة في السنة بلفظ الحب

(١) الرفق

معنى الرفق في اللغة:

الرفق في اللغة من (رفق) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الراء والفاء والقاف أصل واحد يدل على موافقة ومقاربة بلا عُنْف. فالرَّفَق: خلاف العُنْف؛ يقال رَفَقْتُ أَرْفُقُ.

هذا هو الأصل ثم يشتق منه كل شيء يدعو إلى راحة وموافقة. والمرفق مرفق الإنسان؛ لأنه يستريح في الاتكاء عليه)

أورد الجوهري في الصحاح: (ومرافق الدار: مصاب الماء ونحوها. والمرْفَقَةُ بالكسر: المخذة. وقد تَمَرَّقَ. إذا أَخَذَ مَرْفَقَةً. وبات فلان مُرْتَفَقاً، أي مَتَكناً على مَرْفَقِ يده. وَنَاقَةً رَفَقَاءً، وَجَمَلٌ أَرْفَقٌ: بَيْنَ الرَفَقِ، وهو انفتال المَرْفَقِ عن الجنب. وماءٌ رَفَقٌ ومرْتَعٌ رَفَقٌ، أي سهل المطلب)

(١) سورة البقرة: ٢٧١.

(٢) انظر: سنن الترمذي - كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ - باب ماجاء في السخاء، حديث رقم: ١٩٦١ (٣٤٢/٤) قال الألباني: ضعيف جدا.

وفي لسان العرب لابن منظور: (ورافق الرجل صاحبه، ورَفِيقُك الذي يُرافِقُك، وقيل هو الصاحب في السفر خاصة، الواحد والجمع في ذلك سواء، مثل الصديق، قال الله تعالى: (وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)^(١). وقد يجمع على رُفقاء)

ومما ورد في السنة من محبة الله للرفق بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »^(٢).

إن خلق الرفق والتيسير في التعامل، حثت عليه الشريعة وتأكدت أهميته في الدين، قال الله تعالى: (فَبِمَا رَحَمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)^(٣) وتمحور مجاله في القول والعمل من لطافة اللفظ، وصنيع المعروف وحنو العاطفة، فمن حرم الرفق فقد حرم خيرا كثيرا، ومن أوتيَه فقد أوتي خيرا كثيرا، والله سبحانه وتعالى رفيق فقد سبقت رحمته غضبه وبعث نبينا ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وبالناس رفيقاً، وأخبرنا أن كل عمل يخلو من الرفق والسهولة يكون مآله إلى سوء، فقال: ﷺ (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يترع من شيء إلا شانه). وأخبر أن الله تعالى يوفق المترفق وسيجزيه أحسن الجزاء في الدنيا بتيسير أعماله، وفي الآخرة بالثواب الجزيل، والرفق هو دأب الأنبياء، فإن الله تعالى لما أرسل موسى إلى فرعون الطاغية الظالم المتكبر ومدعي الألوهية.. والذي قتل بني إسرائيل وأفسد في الأرض. وكذب الرسل واستعلى وأدبر واستكبر، ومع ذلك لما أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إليه أمرهما الله بالقول اللين لأنه أدعى لاستجابة المدعو، قال سبحانه: (أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) ﴿٢٥﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ^(٤) وكذلك ندرك غاية الرفق وعظم اللين والسهولة في دعوة إبراهيم لأبيه إلى الإسلام في سورة مريم (٤١ - ٥٠) وابتدأها بقوله: (يَأْتِ) مبينا له الهدى والعلم بالحجة والبرهان، وكاشفا له الضلال وخداع الشيطان، فاستكبر أبوه وهدده بالرجم، وقال: (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا). فرد إبراهيم بكل رفق ولين قائلاً: (سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً)؛ فكان الأنبياء عليهم السلام يصلون بالرفق واللين إلى ما لا يصل إليه غيرهم.. وفي هذا الحديث جعل النبي ﷺ الرفق أصلاً من أصول الدين في المعاملة مع النفس والخلق والناس أجمعين، صديقهم وعدوهم، وهو ديدن الدعاة إلى الله ومن أساليب الدعوة المطلوبة لأنه من الحكمة، والدعاة أولى به من عامة الناس، قال الله تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)^(٥).

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب استئابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ ولم يصرح نحو قوله السام عليك، حديث رقم: ٦٩٢٧ (١٦/٩) وانظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل الرفق، حديث رقم: ٦٧٦٦ (٢٢/٨).

(٣) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٤) سورة طه: ٤٣ - ٤٤.

(٥) سورة فصلت: ٣٤.

(٢) السماحة في البيع والشراء والقضاء

معنى السماح في اللغة :

السماح في اللغة من (سمح) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (السين والميم والحاء أصل يدل على سلاسة وسهولة). أورد الجوهري في الصحاح: (السماح والسماحة: الجود. وسَمَحَ به: أي جاء به. وسَمَحَ لي: أعطاني. وما كان سَمَحاً ولقد سَمَحَ بالضم، فهو سَمَحٌ، وقومٌ سَمَحَاءُ، كأنه جمع سَمِيح) وفي لسان العرب لابن منظور: (وقولهم الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ ليس فيها ضيق ولا شدة، وما كان سَمَحاً، ولقد سَمَحَ بالضم سَمَاحَةً وجاد بما لديه، وأسَمَحَتِ الدابة بعد استصعاب لانت وانقادت، ويقال سَمَحَ البعير بعد صُعوبته إذا ذلَّ، وأسَمَحَتْ قُرُونُهُ لذلك الأمر إذا أطاعت وانقادت) إن المعاملات التجارية ضبطت في الإسلام بضوابط شرعية، حرصت من خلالها على حفظ الحقوق والمصالح الفردية والجماعية، الخاصة والعامة، وجعل التراضي والوضوح والوفاء أهم العناصر في العقود، قال الله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا^(١) قال ابن كثير في تفسيره: (نهي تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الخيل)^(٢)

ومما ورد في السنة من محبة الله للسماحة في البيع والشراء والقضاء بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء سمح القضاء)^(٣). هذا الحديث وغيره من الأحاديث جاءت عن النبي ﷺ تدعو إلى السماحة في البيع والشراء وحسن التقاضي والقضاء، وهذا كله راجع إلى حسن الخلق، فالإنسان المؤمن يتعامل مع الخلق المعاملة التي يحب أن يتعامل معه بها، فيحسن خلقه ويتغنى بذلك رضوان الله تبارك وتعالى، وأيضاً يتغنى بذلك حب الناس، فإن الإنسان إذا أحبه الله سبحانه جعل محبته في قلوب الخلق، فيدعون لهذا الإنسان الذي فيه السماحة وفيه حسن الخلق وفيه اللين، فهو هين لين مع الناس ويكسب رحمة الله، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى)^(٤) (والسماحة هي السهولة، فالإنسان عندما يسمح بماله، أي: يعطي ويبدل ماله، ويسمح فيكون سهلاً في عطائه

(١) سورة النساء: ٢٨ - ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ج ٢، ص: ٢٦٨.

(٣) انظر: سنن الترمذي - كتاب البيوع عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ١٣١٩ (٣/ ٦٠٩). صححه الألباني.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فيطلبه في عفاف، حديث رقم: ٢٠٧٦ (٥٧/٣).

ومعاملاته، أخبر عمن هذه حاله بأن الله سبحانه قد رحمه. قال ابن بطال في شرح هذا الحديث: (فيه : الحُضُّ على السماحة وحسن المعاملة ، واستعمال معالي الأخلاق ومكارمها ، وترك المشاحة، والرقعة في البيع ، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه لأن النبي عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم في الدنيا والآخرة ، فأما فضل ذلك في الآخرة ، فقد دعا عليه السلام بالرحمة لمن فعل ذلك ، فمن أحب أن تناله بركة دعوة النبي - عليه السلام - فليقتد بهذا الحديث ويعمل به . وفي قوله عليه السلام: (إذا اقتضى) حض على ترك التضيق على الناس عند طلب الحقوق، وأخذ العفو منهم ^(١) وكذلك أمر الله بالصبر والمغفرة بين عباده، قال الله تعالى: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ^(٢) فإن هذا من السماحة، وكذلك إنظار المعسر فيما أمر الله به، قال الله تعالى: (وَإِنْ كَانَتْ دُورُ عُسْرٍ فَلْيُنْظَرِ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ^(٣).

(٣) إتقان العمل

الاتقان في اللغة:

الاتقان من (تقن) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (التاء والقاف والنون أصلان: أحدهما إحكام الشيء، والثاني الطين والحماة)

أورد الجوهري في الصحاح: (إِتْقَانُ الْأَمْرِ: إِحْكَامُهُ. وَرَجُلٌ تَقَنَّ بِكَسْرِ التَّاءِ: حَازِقٌ) وفي لسان العرب لابن منظور: (ويقال زَرَعْنَا فِي تَقَنَّ أَرْضٍ طَيِّبَةٍ أَوْ خَبِيثَةٍ فِي تَرْبَتِهَا، وَالتَّقَنَّ الطَّبِيعَةُ، وَالْفَصَاحَةُ مِنْ تَقَنَّهُ أَيَّ مِنْ سُوسِهِ وَطَبْعِهِ، وَأَتَقَنَّ الشَّيْءَ أَحْكَمَهُ وَإِتْقَانُهُ إِحْكَامُهُ، وَالْإِتْقَانُ الْإِحْكَامُ لِلْأَشْيَاءِ. وَفِي التَّرْتِيلِ الْعَزِيزُ: صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ)

ومما ورد في السنة من محبة الله إتقان العمل بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " أَرَهَقُوا الْقُلَّةَ " قَالَ أَبُو حَفْصٍ: - يَعْنِي مُطِينَ ^(٤)، أَيِ اذْنَوَا إِلَيْهَا - فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَقَنَّهُ " ^(٥).

(١) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلان البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ، ج٦، ص: ٢١٠ - ٢١١.

(٢) سورة الشورى: ٤٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٠.

(٤) مطين الشيخ الحافظ الصادق، محدث الكوفة، أبو جعفر، محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، الملقب بمطين. وسئل عنه السدرا قطني فقال: ثقة جبل. قال الذهبي: صنف " المسند " و " التاريخ "، وكان متقنا. عاش خمسا وتسعين سنة. وقال الخليلي: ثقة حافظ. وقيل لمطين: لم لقب بهذا؟ قال: كنت صبياً أَلْعَبُ مع الصبيان، وكنت أطولهم، فنسيح ونخوض، فيطبنون ظهري، فيصر بي يوما أبو نعيم فقال لي: يا مطين! لم لا تحضر مجلس العلم؟ فلما طلبت الحديث مات أبو نعيم، وكتبت عن أكثر من خمس مئة شيخ. توفي في ربيع الآخر، سنة سبع وتسعين ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٢/١٣).

(٥) انظر: شعب الإيمان للبيهقي - كتاب: الأمانات وما يجب من أدائها لأهلها، حديث رقم: ٤٩٢٩ (٢٣٢/٧). حسنه الألباني، وقال: و للحديث شاهد يقويه بعض القوة وهو بلفظ: " إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن ". أخرجه البيهقي. في " الشعب "

وَعَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ " وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبْدِانَ: " الشَّابُّ الْمُحْتَرِفُ " " تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو الرَّبِيعِ، عَنْ عَاصِمٍ وَلَيْسَا بِالْقَوَيْنَيْنِ " (١).

العمل معنى من معاني الحياة الإنسانية، يتخذ منه الإنسان سبباً لرزقه ومظهراً للتعبير عن نشاطه وإسهامه في حركة الحياة، وأعظم الغايات حين يكون مخلصاً يتعبد الله به، وهو يتسع في شموليته ليشمل كل ما يصدر عن الإنسان من فعل، سواء كان كدحا لطلب الرزق أو عملاً تعبدياً مشروعاً، ويضيق في خصوصيته ليقصر على مهنة الإنسان التي يسهم بها في بناء مجتمعه، والمعني هنا هو كيفية أداء هذه الأعمال؟ هل هي على وجه الإتقان والإحسان؟ أم على وجه التقصير والإهمال؟ فإن شريعتنا الإسلامية من ضمن ما تأمرنا به، تأمرنا بإتقان العمل، وألا نجعله أمراً دنيوياً نبتغي به منفعة عاجلة فحسب، بل نجعله أمراً تعبدياً نتقرب به إلى الله تعالى، والمراقبة شاهد على الحسن والقبح في الأعمال، قال الله تعالى: (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٢) وبالتدقيق في ألفاظ الحديث الشريف نجد في قوله: (عملاً) جاء نكرة والنكرة تدل على العموم، هكذا من دون تعريف، ولا تحديد لنوع العمل، إيماء بأن الله تعالى يحب أن يكون الإتقان سلوكاً للمؤمن في كل أعماله، فهو يحسن القيام بمهنته وعباداته ومعاملاته، وعليه نعلم أن إتقان العمل من الإحسان والله يحب المحسنين.

(٤) أثر نعمة الله على عبده

النعم في اللغة:

النعم في اللغة من (نعم) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: ((نعم) النون والعين والميم فروعها كثيرة، وعندنا أنها على كثرتها راجعة إلى أصل، واحد يدل على ترفه وطيب عيش وصلاح. منه النعمة: ما يُنعم الله تعالى على عبده به من مالٍ وعيش. يقال: لله تعالى عليه نعمة. والنعمة: المنّة، وكذا النعماء) أورد الجوهري في الصحاح: (النِّعْمَةُ: اليَدُ، والصَّنِيعَةُ، والمنَّةُ، وما أُنعمَ به عليك. وكذلك النُّعْمَى. فإن فتحت النون مددت فقلت: النِّعْمَاءُ. والنِّعِيمُ مثله. وفلانٌ واسعُ النِّعْمَةِ، أي واسع المال. وقولهم: إن فعلتَ ذاك فيها ونِعمتَ: يريدون نِعمتَ الحِصْلَةِ. والتاء ثابتة في الوقف. ونِعمَ وبئس: فعلان ماضيان لا يتصرفان تصرّف سائر الأفعال، لأنَّهما استعملَا للحال بمعنى الماضي. فنِعمَ مدحٌ، وبئسَ ذمٌّ.)، وفي لسان العرب لابن منظور: (وأما قول الله عز وجل: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ. فَإِنَّ الْفِرَاءَ قَالَ: الْأَنْعَامُ ههنا بمعنى النِّعم، والنِّعم تذكر وتؤنث، ولذلك قال الله عز وجل مِمَّا فِي بُطُونِهِ، وقال في موضع آخر

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي - كتاب: التوكل بالله عز وجل والتسليم لأمره، حديث رقم: ١١٨١ (٤٤١/٢). ضعفه الألباني في الترغيب والترهيب.

(٢) سورة التوبة: ١٠٥.

مما في بطونها، وقال الفراء: النَّعَم ذكر لا يؤنث ويجمع على نُعْمَانٍ مثل حَمَلٍ وحُمْلَانٍ، والعرب إذا أفردت النَّعَم لم يريدوا بها إلا الإبل، فإذا قالوا الأنعام أرادوا بها الإبل والبقر والغنم).

ومما ورد في السنة من محبة الله أن يرى أثر نعمته على عبده بلفظ الحب الصريح ما يلي:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(١). وفي حديث أبي الأحوص الجشمي^(٢) عن أبيه قال: (رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيَّ أَطْمَارًا، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مَالٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ آتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ الشَّاءِ وَالْإِبِلِ، قَالَ: فَاتْرَ نَعَمَ اللَّهِ وَكَرَامَتَهُ عَلَيْكَ)^(٣). فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ، أَنْ يَبْدِيَ الْعَبْدُ، وَيُظْهِرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا مَانِعَ مِنَ التَّقَشُّفِ أَحْيَانًا، أَوِ الْبَذَاذَةِ، إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَعُودَهَا، وَأَنْ يَرُوضَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي بَابِ الزَّهْدِ الْحَمُودِ. وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَبَسَ الشِّيَابَ الْحَسَنَةَ الطَّيْبَةَ، وَقَصَدَ بِذَلِكَ شُكْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى خَيْرٍ، فَيَكُونُ دَاخِلًا فِي بَابِ الْغِنَى الشَّاكِرِ. وَإِذَا لَبَسَ الشِّيَابَ الْبَذْلَةَ، وَقَصَدَ بِذَلِكَ التَّوَاضُعَ، لَمْ يَقْصِدْ بِذَلِكَ الرِّيَاءَ وَالسَّمْعَةَ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِذَلِكَ إِظْهَارَ الْمَخَالَفَةِ، أَوْ إِظْهَارَ التَّقَشُّفِ أَمَامَ النَّاسِ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ كَسْرَ نَفْسِهِ، فَلَا بَأْسَ. وَعَلَى ذَلِكَ يَتَزَلَّ حَدِيثُ أَبِي أَمَامَةَ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، قَالَ: ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَسْمَعُونَ أَلَا تَسْمَعُونَ إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ، إِنَّ الْبَذَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٤). يَعْنِي التَّفَحُّلَ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ هُوَ أَبُو أَمَامَةَ بْنُ ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيُّ. وَعَلَى هَذَا تَنْتَزِلُ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي الزَّهْدِ وَالتَّقَشُّفِ وَالْإِقْلَالِ مِنَ الدُّنْيَا، وَهَكَذَا كَانَ هَدْيُهُ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّفُ مَفْقُودًا، وَلَا يَرُدُّ مَوْجُودًا، لَا فِي مَطْعَمِهِ، وَلَا فِي مَشْرَبِهِ، وَلَا فِي مَلْبَسِهِ ﷺ يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ يَرْحِمُهُ اللَّهُ تَعَالَى: (النَّعَمُ ثَلَاثَةٌ: نِعْمَةٌ حَاصِلَةٌ يَعْلَمُ بِهَا الْعَبْدُ، وَنِعْمَةٌ مُنْتَظَرَةٌ يَرْجُوهَا، وَنِعْمَةٌ هِيَ فِيهَا لَا يَشْعُرُ بِهَا، وَهُوَ فِيهَا لَا يَشْعُرُ بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِقَامَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ، عَرَفَهُ نِعْمَتُهُ الْحَاضِرَةُ وَأَعْطَاهُ مِنْ شُكْرِهِ قِيدًا بِهَا؛ حَتَّى لَا تَشْرُدَ فَإِنَّهَا تَشْرُدُ بِالْمَعْصِيَةِ وَتَقِيدُ بِالشُّكْرِ، وَوَفْقَةُ لِعَمَلٍ يَسْتَجْلِبُ بِهِ النِّعْمَةَ الْمُنْتَظَرَةَ، وَبَصَرُهُ بِالطَّرِيقِ الَّتِي تَسُدُّهَا وَتَقْطَعُ طَرِيقَهَا وَوَفْقَةُ لاجْتِنَابِهَا، وَإِذَا بِهَا قَدْ وَافَتْ إِلَيْهِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُودِ، وَعَرَفَهُ النَّعَمُ الَّتِي هِيَ فِيهَا،

(١) انظر: سنن الترمذي - كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته عبده، حديث رقم: ٢٨١٩

(٥/١٢٣) قال الألباني: حسن صحيح.

(٢) عرف بن مالك بن نضلة بن جريح أبو الأحوص الجشمي الكوفي، من بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، روى عن عبد الله بن مسعود وأبي موسى، وروى عنه بن أخيه أبو الزعراء وأبو إسحاق وخلق، ثقة، قتله الخوارج في أيام الحجاج بن يوسف. انظر: رجال صحيح مسلم لأبي بكر الأصبهاني (٩٨/٢) وانظر: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة للذهبي (١٠١/٢) وانظر الجرح والتعديل لابن المنذر (١٤/٧).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند المكيين - حديث مالك بن نضلة أبي الأحوص - حديث رقم: ١٥٩٢٨ (٣/٤٧٣) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) انظر: سنن أبي داود - كتاب الرجل - باب النهي عن كثير من الإرفاء - حديث رقم: ٤١٦٣ (٤/١٢٥) تعليق صححه الألباني.

فلا يشعر بها^(١) ونعلم من ذلك أن الواجب في النعم حمد الله وإظهارها و الشكر عليها وعدم الغفلة عن ذلك فإنه بالشكر تدوم النعم، لأن أية نعمة إذا شكرتها أحيتها وزادت، فإن كفرتها أمتها وفقدت. فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده ألهمه شكرها، قال الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)^(٢) قال السعدي في تفسيره (وقال لهم حاثا على شكر نعم الله: { وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ } أي: أعلم ووعد، { لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } من نعمي { وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله والثناء على الله بها وصرفها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك^(٣)

المطلب الثاني

مساخط الله في الكتاب والسنة

إن ما يسخط الله ويغضبه تقوم عليه شقاوة الإنسان، وهو طريق هلكة في مرحلة الابتلاء التي يمر بها الناس على هذه الأرض، والسبيل الأوحى لمعرفة ما يسخط الله ويغضبه في الدين مصدرا الشريعة الخاتمة السمحة: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتوصف مساخط الله فيهما بالشرك والباطل والخبائث، ومساوي الأخلاق وقبائح الأعمال والأقوال، وكل المنهيات مساخط لله يقوم عليها فساد الدنيا والدين، ومما يجب معرفته أن مساخط الله لا تدرك إلا من طريق الشرع؛ لأن الأصل في الأشياء الحل ولا تحرم الأشياء ولا تحل إلا بمقتضى الشارع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية، والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند الازدحام، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف، وجنس المنكر، أو جنس الدليل، وغير الدليل، يتييسر كثيرا. فأما مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل، بحيث يقدم عند النزاحم أعرف المعروفين وينكر أنكر المنكرين، ويرجح أقوى الدليلين، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين. فالمراتب ثلاث:

أحدها: العمل الصالح المشروع الذي لا كراهة فيه.

(١) الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٣٩٣ هـ ص ١٧٢.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ١، ص: ٤٢٢.

والثانية: العمل الصالح من بعض وجوهه، أو أكثرها إما لحسن القصد، أو لاشتماله مع ذلك على أنواع من المشروع.

والثالثة: ما ليس فيه صلاح أصلاً: إما لكونه تركاً للعمل الصالح مطلقاً، أو لكونه عملاً فاسداً محضاً^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ يَعْنِي مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا بِيَدِهِ رَايَتَانِ، رَايَةٌ بِيَدِ مَلِكٍ، وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ، فَإِنْ خَرَجَ لَمَّا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اتَّبَعَهُ الْمَلِكُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلِكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِنْ خَرَجَ لَمَّا يُسْخِطُ اللَّهُ اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ»^(٢).

وعلى هذا الوصف الإجمالي فقد قمت بتصنيف مساخط الله الواردة في الكتاب والسنة المنهي عنها بنفي المحبة لها وفق الذكر الصريح بلفظ عدم الحب، إلى قسمين:

القسم الأول

مساخط الله الواردة في القرآن الكريم بنفي المحبة من الله لها

- (١) الظلم. والله لا يحب الظالمين (٢) الفساد. والله لا يحب المفسدين (٣) الكفر. والله لا يحب الكافرين (والله لا يحب كل كفار أثيم) (٤) الاعتداء. والله لا يحب المعتدين (٥) السرف وإن الله لا يحب المسرفين (٦) الاختيال والفخر. والله لا يحب كل مختال فخور (٧) الخيانة. وإن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً، وإن الله لا يحب الخائنين (٨) الكبر. والله لا يحب المستكبرين (٩) الفرح. والله لا يحب الفرحين (١٠) الجهر بالسوء من القول. ولا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم.

القسم الثاني

مساخط الله الواردة في السنة النبوية بنفي المحبة من الله لها

- (١) الفحش و التفحش.
- (٢) الاضطجاع على البطن.
- (٣) العقوق.
- (٤) لي اللسان بالكلام ورفع الصوت على المتحدث والجدال.
- (٥) الإسبال في الإزار للرجال.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤١١هـ، ج ٢، ص: ٦٢٢ - ٦٢٣.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٨٢٨٦ (٤١/١٤) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: إسناده حسن.

القسم الأول

مساخط الله الواردة في القرآن الكريم بنفي المحبة من الله لها

(١) الظلم

الظلم في اللغة:

الظلم في اللغة من (ظلم) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الطاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر وَضَعُ الشَّيْءِ غيرَ موضعه تعدياً..... قال كعب:

أنا ابنُ الذي لم يُخزني في حياته *** قديماً ومن يشبه أباهُ فما ظلمُ

وأنشد بيت زهير:

هو الجوادُ الذي يُعطيك نائلَهُ *** عَفْواً ويُظلمُ أحياناً فيظلمُ (

أورد الجوهري في الصحاح: (وظلم الوادي، إذا بلغ الماء منه موضعاً لم يكن بلغه قبل ذلك. والأرض المظلومة: التي لم تُحفر قط ثم حفرت. وذلك التراب ظليماً)

وفي لسان العرب لابن منظور: (وأصل الظلم الجورُ ومجاوزة الحدِّ، ومنه حديث الوُضوء فمن زاد أو نقص فقد أساء وظلم، أي أساء الأدب بتركه السُّنة والتَّأدُّب بأدب الشرع، وظلم نفسه بما نقصها من الثواب بترداد المرات في الوضوء، وفي الترتيل العزيز: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم. قال ابن عباس وجماعة أهل التفسير لم يخلطوا إيمانهم بشرك، ورؤي ذلك عن حذيفة وابن مسعود وسلمان، وتأولوا فيه قول الله عز وجل: إن الشرك لظلم عظيم. والظلم الميلُ عن القصد، والعرب تقول الزم هذا الصوب ولا تظلم عنه أي لا تجر عنه).

وهنا أعرض الآيات الواردة في القرآن الكريم بلفظ عدم الحب الصريح من نفي محبة الله للظلم والظالمين:

(١) قال الله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)^(١).

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره: (وأما قوله: "والله لا يحب الظالمين"، فإنه يعني: والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه. فنفي جل ثناؤه عن نفسه بذلك أن يظلم عباده، فيجازي المسيء ممن كفر جزاءً المحسنين ممن آمن به، أو يجازي المحسن ممن آمن به واتبع أمره وانتهى عما نهاه عنه فأطاعه، جزاءً المسيئين ممن كفر به وكذب رسله وخالف أمره ونهيه. فقال: إني لا أحب الظالمين، فكيف أظلم خلقي؟ وهذا القول من الله تعالى ذكره، وإن كان خرج مخرج الخبر، فإنه وعيدٌ منه للكافرين به وبرسله، ووعدٌ منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يخسُ هذا المؤمن حقه، ولا يظلمُ كرامته فيضعها فيمن كفر به وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالماً)^(٢).

(١) سورة آل عمران: ٥٧.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٤٦٦.

(٢) قال الله تعالى: (إِنْ يَمَسُّكُمْ كَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ كَرْحٌ مِثْلُهُ^١ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ^٢ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(١)).

ذكر الإمام ابن جرير الطبري في تفسير قول الله تعالى: (والله لا يحب الظالمين) قولين في فئتين يجمع بينهما ظلم المعصية:

(١) يعني به: الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم ربهم.

(٢) أي: المنافقين الذي يظهرون بالسنن الطاعة، وقلوبهم مصرة على المعصية.^(٢)

و درجات الظلم تتفاوت طردا بتفاوت درجات المعاصي، وفي تحريم الظلم ونفي محبة الله للظالمين مناط حفظ الحقوق، حقوق الله وأعظمها التوحيد والعبادة، وحقوق الآدميين وأعظمها عصمة النفس والمال والعرض إلا بحقه الشرعي، وحقوق الخلق عامة وأعظمها حق الحياة والوجود، والتسبيح لله تعالى. وميزان المسلم أن يتعامل مع الناس وغيرهم بالعدل، وهي من أعظم الصفات وأجل السمات .

(٢) الفساد

الفساد في اللغة:

الفساد في اللغة من (فسد) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الفاء والسين والذال كلمة واحدة، فَسَدَ الشَّيْءُ يَفْسُدُ فَسَادًا وَفُسُودًا، وَهُوَ فَاسِدٌ وَفَسِيدٌ)

أورد الجوهري في الصحاح: (ولا يقال: انْفَسَدَ. وَأَفْسَدْتُهُ أَنَا. وَالْإِسْتِفْسَادُ: خِلَافُ الْإِسْتِصْلَاحِ. وَالْمَفْسَدَةُ: خِلَافُ الْمَصْلُحَةِ).

وفي لسان العرب لابن منظور: (وَفَسَدَ الشَّيْءُ إِذَا أَبَارَهُ، وَقَالَ ابْنُ جَنْدَبٍ: وَقُلْتُ لَهُمْ قَدْ أَدْرَكْتُكُمْ كِتَابَةً مُفْسَدَةً الْأَدْبَارِ مَا لَمْ تُخَفَّرْ، أَيِ إِذَا شَدَّتْ عَلَى قَوْمٍ قَطَعَتْ أَدْبَارَهُمْ مَا لَمْ تُخَفَّرِ الْأَدْبَارُ أَيِ لَمْ تَمْنَعْ)

وهنا أعرض الآيات الواردة في القرآن الكريم بلفظ عدم الحب الصريح من نفي محبة الله للفساد والمفسدين:

(١) قال الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ^(٣) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ^(٤) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ^(٥))

وقد ورد في سبب نزولها ثلاث^(٦) روايات:

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٧، ص: ٢٤٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٤، ص: ٢٢٩ - ٢٣٠.

الأولى: أورد الإمام ابن جرير القول في سبب التزول عن السدي: "ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام"، قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي - وهو حليفٌ لبني زهرة - وأقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أنني صادق! وذلك قوله: "ويشهد الله على ما في قلبه" ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحُمُر.

الثانية: أورد الإمام ابن جرير القول في سبب التزول عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما أصيبت هذه السرية أصحاب خُبَيْب بالرجيع بين مكة والمدينة، فقال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا! لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدُّوا رسالة صاحبهم! فأنزل الله عز وجل في ذلك من قول المنافقين، وما أصاب أولئك النفر في الشهادة والخير من الله.

الثالثة: قال الإمام ابن كثير: (وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والربيع^(١) بن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح)^(٢).

ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره: (فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو: نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما. وقال مجاهد: إذا سعى في الأرض فساداً، منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل. {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ} أي: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ} أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق - امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: (وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذِكْرُنَا نَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَبْسُ الْمَصِيرُ)^(٣)، ولهذا قال في هذه الآية: {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} أي: هي كافيته عقوبة في ذلك)^(٤).

(٢) قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمَا مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ

(١) الربيع بن أنس بن زياد البكري، الخراساني، المروزي. بصري. سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرياحي وأكثر عنه، والحسن البصري. وكان عالم مرو في زمانه، قال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن أبي داود: سجن بمرو ثلاثين سنة. قلت: سجنه أبو مسلم تسعة أعوام، وتحيل ابن المبارك حتى دخل إليه فسمع منه. يقال: توفي سنة تسع وثلاثين ومئة. حديثه في السنن الأربعة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧٠/٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٥٦٢.

(٣) سورة الحج: ٧٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٥٦٤.

أَطْفَاَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^(١)

أورد أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية شخصين من اليهود فنحاص بن عازوراء وشاس بن قيس:

١- قال البغوي: (قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية، فلما عصوا الله في أمر رسوله ﷺ وكذبوا به كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة عن الرزق نسبه إلى البخل، تعالى الله عن ذلك. قيل: إنما قال هذه المقالة فنحاص، فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها)^(٢).

٢- قال الإمام ابن كثير في تفسيره (عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود، يقال له: شاس بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)^(٣) (٤).

قال الإمام ابن جرير الطبري: (يقول تعالى ذكره: ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته ويكذبون رسله، ويخالفون أمره ونهيه، وذلك سعيهم فيها بالفساد "والله لا يحب المفسدين"، يقول: والله لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه)^(٥).

٣) قال الله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)^(٦)

قال القرطبي في تفسيره: (قوله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) أي أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي. قوله تعالى: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) اختلف فيه، فقال ابن عباس والجمهور: لا تضع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك، إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضع حظك من دنياك في تمتع بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر

(١) سورة المائدة: ٦٤.

(٢) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧ هـ، ج ٣، ص: ٧٦.

(٣) سورة المائدة: ٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ج ٣، ص: ١٤٦.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ج ١٠، ص: ٤٦١.

(٦) سورة القصص: ٧٧.

الذي يشتهي. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية التَّوْبَةِ من الشدة، قاله ابن عطية. قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: أحرت لدياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً وعن الحسن: قدم الفضل، وأمسك ما يبلغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف. وقيل: أراد بنصيبه الكفن. فهذا وعظ متصل، كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله *** رداء إن تلوى فيهما وحنوط

وقال آخر:

وهي القناعة لا تبغي بها بدلاً *** فيها النعيم وفيها راحة البدن
أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها *** هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي^(١): وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا. (وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) أي أطع الله وأعبده كما أنعم عليك. منه الحديث: ما الإحسان؟ قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وقيل: هو أمر بصلة المساكين. قال ابن العربي: فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف، فإن النبي ﷺ كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع (وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) أي لا تعمل بالمعاصي (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)^(٢)

(٣) الكفر

الكفر في اللغة:

الكفر في اللغة من (كفر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الكاف والفاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنى واحد، وهو السُّتْرُ والتَّغْطِية. يقال لمن غطَّى دِرْعَهُ بثوبٍ: قد كَفَرَ دِرْعَهُ. والمُكْفَرُ: الرَّجُلُ المَتَغَطِّيُّ بسلاحه. فأما قوله:

(١) الإمام العلامة الحافظ القاضي، أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ابن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي، صاحب التصانيف. ولد في سنة ثمان وستين وأربع مئة. وكان أبوه أبو محمد من كبار أصحاب أبي محمد بن حزم الظاهري بخلاف ابنه القاضي أبي بكر، فإنه منافر لابن حزم، ارتحل مع أبيه، إلى بغداد ودمشق وبيت المقدس ومصر، وتفقه بالإمام أبي حامد الغزالي، والفقيه أبي بكر الشاشي، والعلامة، الأديب أبي زكريا التبريزي، وجماعة. ورجع إلى الأندلس في سنة إحدى وتسعين وأربع مئة. رجع إلى الأندلس بعد أن دفن أباه في رحلته - أظن ببيت المقدس - وصنف، وجمع في فنون العلم و برع، وكان فصيحاً بليغاً خطيباً. واشتهر اسمه، وكان رئيساً محتشماً، وافر الأموال، وكان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، كامل السؤدد، ولي قضاء إشبيلية، فحمدت سياسته، وكان ذا شدة وسطوة، فعزل، وأقبل على نشر العلم وتدوينه. كان القاضي أبو بكر ممن يقال: إنه بلغ رتبة الاجتهاد. قال أبو القاسم بن بشكوال: توفي ابن العربي بفاس في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٧/٢٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ١٣٨٤هـ، ج ١٣، ص: ٣١٤ - ٣١٥.

حتى إذا أَلَقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ *** وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا^(١)

فيقال: إِنَّ الكافر: مَغِيبُ الشَّمْسِ. ويقال: بل الكافر: البحر. وكذلك فُسِّرَ قولُ الآخر. والنهر العظيم كافر، تشبیهً بالبحر. ويقال للزَّارِعِ كافر، لَأَنَّهُ يُعْطِي الحَبَّ بِتُرَابِ الأرض. قال الله تعالى: (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ)^(٢) والْكُفْرُ: ضِدُّ الإِيمَانِ، سَمِيَ لَأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الحَقِّ. وكذلك كُفْرَانُ النِّعْمَةِ: جُحُودُهَا وَسِتْرُهَا. والكافور: كَمُ العَنْبِ قَبْلَ أَنْ يُنَوَّرَ. وَسَمِيَ كَافُورًا لَأَنَّهُ كَفَرَ الوَلِيعَ، أَي غَطَّاهُ (أورد الجوهرى في الصحاح: (والْكُفْرُ أَيْضًا: الْقَرِيَةُ)

وفي لسان العرب لابن منظور: (وسميت الكَفَّاراتُ كَفَّاراتٍ؛ لَأَنَّهَا تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ أَي تَسْتَرُهَا، مِثْلَ كَفَّارَةِ الأَيْمَانِ وَكَفَّارَةِ الظُّهَارِ وَالْقَتْلِ الخَطِإِ، وَقَدْ بَيَّنَّهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَأَمَرَ بِهَا عِبَادَهُ) الأَثِيمُ فِي اللُّغَةِ:

أَصْلُ كَلِمَةِ (الأَثِيمِ) كَمَا أورد ابن فارس في معجم مقاييس اللغة من (أثم) قال: (الهمزة والثاء والميم تدلُّ على أَصْلٍ واحد، وهو البطء والتأخُّر. يقال ناقة أَثِمَةٌ أَي متأخِّرة) أورد الجوهرى في الصحاح: (الأَثِمُ: الذُّبُّ. وَقَدْ أَثَمَ الرَّجُلُ بالكسر إِثْمًا وَمَأْثَمًا، إِذَا وَقَعَ فِي الإِثْمِ، فَهُوَ أَثِمٌ وَأَثِيمٌ، وَأَثُومٌ أَيْضًا. وَأَثَمَهُ اللهُ فِي كَذَا يَأْثُمُهُ وَيَأْثُمُهُ، أَي عَدَّه عَلَيْهِ إِثْمًا، فَهُوَ مَأْثُومٌ. وَأَنشَدَ الفَرَّاءُ: (فَهَلْ يَأْثُمُنِي اللهُ فِي أَنْ ذَكَرْتُهَا... وَعَلَّلْتُ أَصْحَابِي بِهَا لَيْلَةَ النَّفَرِ) (٣)

وفي لسان العرب لابن منظور: (قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:

تَجَنَّبْتُ هَجْرَانَ الحَبِيبِ تَأْثِمًا إِلَّا إِنْ هَجْرَانَ الحَبِيبِ هُوَ الإِثْمُ

ورجل أَثَامٌ مِنْ قَوْمِ أَثَمِينَ وَأَثِيمٌ مِنْ قَوْمِ أَثْمَاءَ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الأَثِيمِ، قَالَ الفَرَّاءُ: الأَثِيمُ الفَاجِرُ)

الآيات الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للكافرين بلفظ عدم الحب الصريح:

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَى: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)^(٤)

وذكر في سبب نزول هذه الآية ثلاث^(٥) روايات:

الأولى: نزلت في قريش وعبادتها للأصنام من تماثيل الصالحين وادعائهم أنها تقرهم إلى الله.

(١) هذا البيت من قول لبيد . انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة . ص: ١٢٨ .

(٢) سورة الحديد: ٢٠ .

(٣) هذا البيت من قصيدة لنصيب بن رباح الأسود الحبكي . انظر : فرحة الأديب ، لأبي محمد الأعرابي . ص: ٣٣ .

(٤) سورة آل عمران: ٣٢ .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٣٢٢ .

الثانية: نزلت في عبد الله بن أبي في قوله النفاق أن النبي ﷺ يأمرهم بحبه كما أحبت النصارى عيسى بن مريم.

الثالثة: نزلت في وفد نجران من النصارى الذين قدموا المدينة ولم يؤمنوا ولم يجرؤوا على المباهلة.

قال الإمام الطبري: (عني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، هؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمداً، فإنكم قد علمتم يقيناً أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثته بالحق، تجدونه مكتوباً عندكم في الإنجيل، فإن تولّوا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعرضوا عنه، فأعلمهم أن الله لا يحب من كفر بجحد ما عرف من الحق، وأنكره بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نبوتك، وإنكارهم الحق الذي أنت عليه، بعد علمهم بصحة أمرك، وحقيقة نبوتك)^(١)

وقال السعدي يرحمه الله في تفسيره: (وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون { فإن تولوا } أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)^(٢) فلهذا قال: { فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين } بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأن في هذه الآية الكريمة بيانا وتفسيرا لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي^(٣). ثم قال يرحمه الله: (ثم قال: { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال آمراً لكل أحد من خاص وعام: { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا } أي: خالفوا عن أمره { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقليين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته)

(٢) قال الله تعالى: (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿١٢٨﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنََّّهُ لَا تُحِبُّ الْكَافِرِينَ)^(٤)

(١) سورة الحج: ٤ .

(٢) سبق تخريجه. انظر: فهرس الأحاديث .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ١٢٨.

(٤) سورة الروم: ٤٥ .

قال ابن كثير في تفسيره: (يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راداً له، {يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ} أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ ولهذا قال: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ} أي: يجازيهم مجازاة الفضل: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور^(١).

٣) قال الله تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ كُفَّرُوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)^(٢)

قال ابن كثير في تفسيره: (وقوله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} أي: لا يحب كفور القلب أثيم القبول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل^(٣)). وقال السعدي في تفسير هذه الآية: (قال تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} أي: يذهب ويذهب بركته ذاتا ووصفا، فيكون سببا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زادا له إلى النار {ويربي الصدقات} أي: ينميها ويترل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والخسنة إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده {والله لا يحب كل كفار} لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله {أثيم} أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته^(٤))

(٤) الاعتداء

الاعتداء في اللغة:

الاعتداء في اللغة من (عدو) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (العين والذال والحرف المعتل أصل واحد صحيح يرجع إليه الفروع كلها، وهو يدل على تجاوز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٣٢١.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٧١٥ - ٧١٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ١٦٦.

يقتصر عليه. من ذلك العدو، وهو الحُصْر. تقول: عدا يعدو عدواً، وهو عاد. قال الخليل: والعدو مضموم مثقل، وهما لغتان: إحداهما عدو كقولك غزو، والأخرى عدو كقولك حضور وقعود (

أورد الجوهري في الصحاح: (والعداء بالفتح والمد: طوار كل شيء، وهو ما انقاد معه من عرضه وطوله. والعداء أيضاً: تجاوز الحد والظلم.

وتعادي القوم، إذا أصاب هذا مثل داء هذا من العدوى، أو يموت بعضهم في إثر بعض. قال الشاعر:

فما لك من أروى تعاديت بالعمى *** ولا قيت كلاباً مطلاً ورامياً

والعدوان: الظلم الصراح. وقد عدا عليه، وتعدى عليه، واعتدى كله بمعنى. وعوادي الدهر: عوائقه. قال الشاعر:

هَجَرَتْ غَضُوبٌ وَحُبٌّ مِنْ يَتَجَنَّبُ *** وَعَدَتْ عَوَادٍ دُونَ وَلَيْكَ تَشَعُّبُ

والعدوة والعدوة: جانب الوادي وحافته. قال الله تعالى: (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) ^(١). والجمع عداء. وقال أبو عمرو: العدوة والعدوة: المكان المرتفع (

وفي لسان العرب لابن منظور: (يقال للواحد والاثنين والجمع: عدو. قال الله تعالى في قصة إبراهيم: (فَلَيْتُمْ عَدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) ^(٢) والعدي والعدى والعادي والعداة. وأما العدواء فالأرض اليابسة الصلبة، وإنما سميت بذلك لأن من سكنها تعداها (

الآيات الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للمعتدين بلفظ عدم الحب الصريح:

(١) قال الله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ^(٣)

قال الإمام الطبري في تفسيره: (عن أبي العالية ^(٤) في قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، وكيف عمّن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ^(٥) وفي هذا نظر؛ لأن قوله: {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) ^(٦)؛ ولهذا قال في هذه الآية: (وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم) ^(٧) أي: لتكن همّتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همّتهم منبعثة على قتالكم، وعلى

(١) سورة الأنفال: ٤٢ .

(٢) سورة الشعراء: ٧٧ .

(٣) سورة البقرة: ١٩٠ .

(٤) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام.

(٥) سورة التوبة: ٥ .

(٦) سورة التوبة: ٣٦ .

(٧) سورة البقرة: ١٩١ .

إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها، قصاصاً. وقد حكى عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة، (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا)^(١) وهو الأشهر وبه ورد الحديث. وقوله: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي - كما قاله الحسن البصري - من المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء في صحيح مسلم^(٢)، عن بُريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: "اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغْلُوا، ولا تَغْدُرُوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا أصحاب الصوامع". رواه الإمام أحمد^(٣).

(٢) قال الله تعالى: (يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)^(٤) ورد في سبب نزول هذه الآية أربع^(٥) روايات:

الأولى: عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مَذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك: فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: "لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مِنِّي، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مِنِّي".^(٦) رواه ابن أبي حاتم.

الثانية: عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: (كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالشوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: (يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)^(٧) ^(٨).

(١) سورة الحج: ٣٩.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو، حديث رقم: ٤٦١٩ (٥/١٣٩).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٤) سورة المائدة: ٨٧.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ١٦٩ - ١٧١. و تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ١٧١ - ١٧٢.

(٦) ورد مثله في حق عثمان بن مظعون، وآخرين من الصحابة، انظر: صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح، حديث رقم: ٥٠٦٣ (١٧/٨٤). وانظر: سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة.

(٧) سورة المائدة: ٨٧.

(٨) انظر: صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب ما يكره من التبتل والخصاء، حديث رقم: ٥٠٧٥ (٤/٧) وانظر: صحيح مسلم - كتاب النكاح - باب نكاح المتعة، حديث رقم: ٣٤٧٦ (٤/١٣٠).

الثالثة: عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، أن يَتَّبِعُوا ويَخْصُوا أنفسهم ويلبسوا المسوح، فزلت هذه الآية إلى قوله: {وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} قال ابن جريج، عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالمًا مولى أبي حذيفة في أصحاب تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرّموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالإخصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فزلت: (يَتَأَيُّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين يريد: ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: "إن لأنفسكم حقًا، وإن لأعينكم حقًا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا". فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت.

الرابعة: عن السدي في قوله: (يَتَأَيُّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ^(١) وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يومًا فذكر الناس، ثم قام ولم يزددهم على التخويف، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نحدث عملاً فإن النصراني قد حرّموا على أنفسهم، فنحن نحرم. فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك، وأن يأكل بنهار، وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا تدنو منه. فأتت امرأته عائشة، رضي الله عنها، وكان يقال لها: الحولاء، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون، لا تمتشطين، لا تتطيبين؟ قالت: وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع عليّ زوجي وما رفع عني ثوبًا، منذ كذا وكذا. قال: فجعلن يضحكن من كلامها، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن، فقال: "ما يضحكن؟" قالت: يا رسول الله، إن الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عني زوجي ثوبًا منذ كذا وكذا. فأرسل إليه فدعاه، فقال: "ما لك يا عثمان؟" قال: إني تركته لله، لكي أتخلي للعبادة، وقص عليه أمره، وكان عثمان قد أراد أن يحب نفسه، فقال رسول الله ﷺ: "أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك". فقال: يا رسول الله، إني صائم. فقال: "أفطر". فأفطر، وأتى أهله، فرجعت الحولاء إلى عائشة - زوج رسول الله ﷺ - وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت، فضحكت عائشة وقالت: ما لك يا حولاء؟ فقالت: إنه آتاها أمس، وقال رسول الله ﷺ: "ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عني فليس مني". فزلت: (يَتَأَيُّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) ^(٢) يقول لعثمان "لا تحب"

(١) سورة المائدة: ٨٧.

(٢) سورة المائدة: ٨٧.

نفسك، فإن هذا هو الاعتداء". وأمرهم أن يكفروا عن أيماهم، فقال: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ)^(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره. وقوله: { وَلَا تَعْتَدُوا } {يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ: وَلَا تَبَالِغُوا فِي التَّضْيِيقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي تَحْرِيمِ الْمُبَاحَاتِ عَلَيْكُمْ، كَمَا قَالَ مَنْ قَالَهُ مِنَ السَّلَفِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: كَمَا لَا تَحْرُمُوا الْحَلَالَ فَلَا تَعْتَدُوا فِي تَنَاوُلِ الْحَلَالِ، بَلْ خَذُوا مِنْهُ بِقَدَرٍ كَفَايَتِكُمْ وَحَاجَتِكُمْ، وَلَا تَجَاوِزُوا الْخُدَّ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)^(٢) وَقَالَ: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)^(٣) فَشَرَعَ اللَّهُ عَدْلَ بَيْنِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: { لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }.

(٣) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)^(٤) أورد ابن كثير في تفسيره: { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } [قِيلَ] معناه: تذللًا واستكانة، و { خُفْيَةً } كما قال: (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَذُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)^(٥) وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: "أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب الحديث. وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: { تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } قال: السر. وقال ابن جرير: { تَضَرُّعًا } تذللًا واستكانة لطاعته. { وَخُفْيَةً } يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاة. وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبدًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: (أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)^(٦) وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضي فعله فقال: (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)^(٧). وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روي عن عطاء

(١) سورة المائدة: ٨٩.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

(٣) سورة الفرقان: ٦٧.

(٤) سورة الأعراف: ٥٥.

(٥) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٦) سورة الأعراف: ٥٥.

(٧) سورة مريم: ٣.

الخراساني، عن ابن عباس في قوله: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجلز^(١): {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} لا يسأل منازل الأنبياء. وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مَخْرَاق، سمعت أبا نَعَامَةَ عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء". وقرأ هذه الآية: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) وإن بحسبك أن تقول: "اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل" ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مَخْرَاق، عن أبي نَعَامَةَ، عن ابن لسعد، عن سعد، فذكره والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نَعَامَةَ: أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعذبه من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور". وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود^(٢)

(٥) الإسراف

الإسراف في اللغة:

الإسراف في اللغة من (سرف) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (السين والراء والفاء * أصل واحد يدل على تعدي الحد والإغفال أيضاً للشيء. تقول: في الأمر سرف، أي مجاوزة القدر.... وأما الإغفال فقول القائل: "مررت بكم فسرفتكم"، أي أغفلتكم. وقال جرير:

أَعْطُوا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثمانية *** ما في عطائهم من ولا سرف

ويقولون إنَّ السرف: الجهل. والسرف: الجاهل. ويحتجون بقول طرفة:

إنَّ امرأ سرف الفؤاد يرى *** عسلاً بماء سحابة شتمي)

أورد الجوهري في الصحاح: (السرف: ضدُّ القصد. والسرف: الإغفال والخطأ. وقد سرفت الشيء بالكسر، إذا أغفلته وجهلته)

(١) لاحق بن حميد أبو مجلز السدوسي البصري الأعور الأسود، أخرج له البخاري في الحج والوتر والاستئذان وغير موضع، عن سليمان التيمي وعاصم الأحول وأبي هاشم الرماني، عنه عن بن عباس وأنس بن مالك وقيس بن عباد، قال عمرو بن علي: مات سنة تسع ومائة، قال أبو حاتم: هو بصري ثقة. انظر: التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (٣/١٣٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ٤٢٨ - ٤٢٩.

وفي لسان العرب لابن منظور: (والإسرافُ في النفقة: التبذيرُ. والسُرْفَةُ: دَوِيَّةٌ تَتَّخِذُ لِنَفْسِهَا بَيْتاً مَرَبَعاً مِنْ دِقَاقِ الْعِيدَانِ، تَضُمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِلَعَابِهَا عَلَى مِثَالِ النَّاوُوسِ^(١)، ثُمَّ تَدْخُلُ فِيهِ وَتَمُوتُ. يُقَالُ فِي الْمِثْلِ: هُوَ أَصْنَعُ مِنْ سُرْفَةٍ)

الآيات الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للمُسْرِفِينَ بلفظ عدم الحب الصريح:

(١) قال الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)^(٢)

قال ابن كثير في تفسيره: (وقوله: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} قيل: معناه: ولا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف. وقال أبو العالية^(٣): كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً، ثم تباروا فيه وأسرفوا، فأنزل الله: {وَلَا تُسْرِفُوا}. وقال ابن جريج^(٤): نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، جد نخلا. فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته. فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} رواه ابن جرير، عنه. وقال ابن جريج، عن عطاء: ينهى عن السرف في كل شيء. وقال إياس بن معاوية^(٥): ما جاوزت به أمر الله فهو سرف. وقال السدي^(٦) في قوله: {وَلَا تُسْرِفُوا} قال: لا تعطوا أموالكم، فتقعوا فقراء.

وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب^(٧)، في قوله: {وَلَا تُسْرِفُوا} قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا. ثم اختار ابن جرير قول عطاء: إنه نهى عن الإسراف في كل شيء. ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: {كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [أن يكون عائداً على الأكل، أي: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}]^(٨) وفي صحيح البخاري^(٩) تعليقاً:

(١) الناووس: من نوس وهو ما يصنع للميت ويوضع فيه كالتابوت في مقابر النصارى. هكذا في نفس المصدر (لسان العرب).

(٢) سورة الأنعام: ١٤١.

(٣) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام

(٤) سبقت ترجمته، انظر: فهرس الأعلام

(٥) أبو وائلة إياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن سؤدة بن سارية بن ذبيان بن سليم بن أوس بن مزينة المزني؛ البلغ والألمعي المصيب، والمعدود مثلاً في الذكاء والفطنة، ورأساً لأهل الفصاحة والرجاحة، كان صادقا الظن لطيفاً في الأمور، مشهوراً بفرط الذكاء، وبه يضرب المثل في الذكاء، وكان عمر بن عبد العزيز قد ولاه قضاء البصرة. وكان لإياس جد أبيه صحبة مع رسول الله ﷺ، توفي في سنة اثنتين وعشرين ومائة، وعمره ست وسبعون سنة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: (٢٤٧/١).

(٦) سبقت ترجمته، انظر فهرس الأعلام.

(٧) سبقت ترجمته، انظر فهرس الأعلام.

(٨) سورة الأعراف: ٣١.

(٩) انظر: صحيح البخاري - كتاب اللباس (١٨٢/٧)

"كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة" وهذا من هذا، والله أعلم^(١)

(٢) قال الله تعالى: {يَبْنَىْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ^(٢)}.
(قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا} وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة^(٣)) ، وأورد أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية روايتين^(٤):

الأولى: عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدؤ بعضه أو كُله *** وما بدأ منه فلا أحله...

فقال الله تعالى: {خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}

الثانية: عن أنس مرفوعاً؛ أنها أنزلت في الصلاة في النعال. قال الإمام ابن كثير (ولكن في صحته نظر والله أعلم. وهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض)^(٥).

وقال ابن جرير: (وقوله: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} يقول الله: إن الله تعالى لا يحب المتعدين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرّم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرّم، وذلك العدل الذي أمر به)^(٦).

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ٤٠٦.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ١٦٩ - ١٧١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٣، ص: ٤٠٦.

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٢، ص: ٣٩٥.

(٦) الاختيال والفخر

الاختيال في اللغة:

الاختيال في اللغة من (خيل) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الخاء والياء واللام أصل واحد يدل على حركة في تلون. فمن ذلك الخيال، وهو الشخص. وأصله ما يتخيّل الإنسان في منامه؛ لأنّه يشبهه ويتلون. ويقال خيّل للناقة، إذا وضعت لولدها خيلاً يفزع منه الذئب فلا يقربه. والخيل معروفة. وسمعت من يحكي عن بشر الأسدي عن الأصمعي قال: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، وعنده غلام أعرابي فسئل أبو عمرو: لم سميت الخيل خيلاً؟ فقال: لا أدري. فقال الأعرابي: لا ختيالها. فقال أبو عمرو: اكتبوا. وهذا صحيح؛ لأن المختال في مشيته يتلون في حركته ألواناً. والأخيّل: طائر، وأظنه ذا ألوان، يقال هو الشقراق. والعرب تتشاءم به).

أورد الجوهري في الصحاح: (وقد خال الرجل فهو خائل، أي مختال. قال الشاعر:

فإن كنت سيدنا سُدتنا *** وإن كنت للخال فاذهب فخل

وجمع الخائل خالّة، وكذلك رجل أخائل، أي مختال. والخال: الغيم. وقد أخالت السحاب وأخيّلت وخايّلت، إذا كانت تُرَجّى المطر)

وفي لسان العرب لابن منظور: (المختال الصلّف المتباهي الجهول، الذي يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، ولا يُحسن عشرتهم ويقال هو ذو خيلة)

الفخر في اللغة:

الفخر في اللغة من (فخر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الفاء والخاء والراء أصل صحيح، وهو يدل على عظم وقدم. من ذلك الفخر. ويقولون في العبارة عن الفخر: هو عدّ القديم، وهو الفخر أيضاً. قال أبو زيد: فخرت الرجل على صاحبه أفخره فخراً: أي فضّلته عليه. والفخير: الذي يفاخر، بوزن الخصيم. والفخير: الكثير الفخر. والفاخر: الشيء الجيد. والتفخر: التعظم. ونحلة فخور: عظيمة الجذع غليظة السعف)

أورد الجوهري في الصحاح: (ناقة فخور، هي العظيمة الصرع الضيقة الأحاليل. والفخار: الخزف. والفاخر من البسر: الذي يعظم ولا نوى له. والفاخور: ضرب من الرياحين. فخر فلان متفخر أي متعظم متفحش).

وفي لسان العرب لابن منظور: (وَفَخَّارَةُ الْفَخَّارُ ضَرْبٌ مِنَ الْخَزَفِ مَعْرُوفٌ تَعْمَلُ مِنْهُ الْجِرَادُ^(١) وَالْكِيزَانُ^(٢) وَغَيْرُهَا وَالْفَخَّارَةُ الْجَرَّةُ وَجَمْعُهَا فَخَّارٌ مَعْرُوفٌ وَفِي التَّرْتِيلِ مِنْ صَلَاحِ كَالْفَخَّارِ) الآيات الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للمختالين فخرا بلفظ عدم الحب الصريح:

(١) قال الله تعالى: (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)^(٣) أورد ابن كثير في تفسيره: (وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} أي: مختالا في نفسه، معجبا متكبرا، فخورا على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغض). قال مجاهد في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا} يعني: متكبرا {فَخُورًا} يعني: يُعَدُّ مَا أُعْطِيَ، وهو لا يشكر الله، عز وجل. يعني: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك^(٤). وهو ما علمناه من الحديث السابق في مطلب محاب الله عند أبي داود في سننه^(٥) قوله ﷺ: (وَأَنْ مِنَ الْخِيَلِ مَا يَبْغِضُ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللَّهُ، فَأَمَّا الْخِيَلُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يَبْغِضُ اللَّهُ فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ قَالَ مُوسَى وَالْفَخْرُ). أي: كونه يختال على أحد باغيا عليه ومعتديا عليه، ويتعاضم عند ما يقتل إنسانا معصوما، أو عندما يأخذ مالا لغيره، فإن هذا مما يبغضه الله عز وجل، فإن المخيلة مظهر من مظاهر الفخر والاختيال المحرمة في الشرع أصلا.

(٢) قال الله تعالى: (وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)^(٦) أورد ابن كثير: (وقوله: {وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} يقول: لا تُعْرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارا منك لهم، واستكبارا عليهم ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في

(١) الجيم والراء والذال أصل واحد، وهو بُدُو ظاهر الشيء حيث لا يستتره ساتر. ثم يحمل عليه غيره مما يشاركه في معناه. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤٥٢/١) والجرد: فضاء لا نبات فيه. والجردة بالفتح: البردة المنجدة الخلق. التجريد: التعرية من الثياب. وتجريد السيف: انتضاؤه. والتجريد: التشذيب. والتجريد: التعري. انظر: الصحاح للجوهري (٨٦/١) وكل شيء قشرته عن شيء فقد جردته عنه والمقشور مجرود وما قشر عنه جردة انظر: لسان العرب لابن منظور (١١٥/٣) والجراد أوعية فخارية ملساء لحفظ الماء وتبريده.

(٢) (كوز) الكاف والواو والراء أصل صحيح يدل على تجمع. والكوز للماء من هذا، لأنه يجمع الماء. واكتاز الماء: اغترفه.

انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١٤٦/٥) والجمع أكواز وكيزان وكوزة حكاها سيبويه، مثل غود وعيدان وأغواد وعودة انظر: لسان العرب لابن منظور (٤٠٢/٥).

(٣) سورة النساء: ٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص: ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥) انظر: سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في الخيلاء في الحرب، حديث رقم: ٢٦٦١ (٤/٣) حسنه الألباني.

(٦) سورة لقمان: ١٨.

الحديث^(١): "ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنَبِّسٌ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله"^(٢).

قال ابن جرير: (وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تُلَفَت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حُني التَّغْلِي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ *** أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّما^(٣))

وأورد ابن كثير أيضاً، قوله: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} أي: جذلاً متكبِّراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يَغْضُكُ اللَّهُ؛ ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره، وقال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} (٤) (٥)

٣) قال الله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (٦) هاتان الآيتان الكريمتان من أدل الأدلة لإبطال ما عليه القدرية^(٧) من الضلالة في نفي القدر. قال الإمام ابن كثير في تفسيرها: (يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ} أي: في الآفاق وفي نفوسكم {إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة. وقال بعضهم: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} عائد على النفوس. وقيل: عائد على المصيبة. والأحسن عوده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها)^(٨)

وقال الإمام الطبري في هذه الآية: (وقوله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} يقول: والله لا يحب كل

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند البصريين رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٠٦٣٥ (٢٣٧/٣٤) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح.

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٣٣٨.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٢٠، ص: ١٤٣.

(٤) سورة الإسراء: ٣٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٣٣٩.

(٦) سورة الحديد: ٢٣.

(٧) القدرية: هم نفاة القدر، وهم من قال: إن الله لم يخلق أفعال العباد وإن المعاصي لم يقدرها على العباد ولم يخلقها، وأن العباد هم يخلقون أفعالهم. انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للكائني (٧٢٠/٤)، ومن القدرية الجبرية وهم نفاة الاختيار، وأن العباد مجبورون على ما يفعلون بقدر الله عليهم وليس لهم اختيار فيما يفعلون.

(٨) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٨، ص: ٢٦ - ٢٧.

متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس. القول في تأويل قوله تعالى: {الَّذِينَ يَبِخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} ^(١) يقول تعالى ذكره: والله لا يحب كل مختال فخور، البخيلين بما أوتوا في الدنيا على احتياهم به وفخرهم بذلك على الناس، فهم يبخلون بإخراج حق الله الذي أوجبه عليهم فيه، ويشحون به، وهم مع بخلهم به أيضا يأمرون الناس بالبخل ^(٢).

(٧) الخيانة

الخيانة في اللغة:

الخيانة في اللغة من (خون) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الخاء والواو والنون أصل واحد، وهو التنقص. يقال خائنه يخونه خوئاً. وذلك نقصان الوفاء. ويقال تخونني فلان حقاً، أي تنقصني. أورد الجوهري في الصحاح: (وقومٌ خوئَةٌ، كما قالوا حوكةً. وخوئَةٌ: نسبه إلى الخيانة. والخوئان: الأسد) وفي لسان العرب لابن منظور: (ويقال تخونته الدهور وتخونته أي تنقصته، والتخون له معنيان أحدهما التَّنْقُصُ والآخر التَّعَهُدُ، ومن جعله تعهداً جعل النون مبدلة من اللام يقال تخونه وتخوله بمعنى واحد، والخون فترة في النظر، يقال للأسد خائن العين من ذلك وبه سمي الأسد خوئاناً، وخائنة الأعين ما تُسارق من النظر إلى ما لا يحل).

الآيات الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للخائنين إنما بلفظ عدم الحب الصريح:

(١) قال الله تعالى: (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) ^(٣)

أورد ابن كثير في تفسيره: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن نفرا من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسروا درع لأحدهم، فأظن بها رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طُعْمَةَ بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني غَيَّبْتُ الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء. وإن صاحب الدرع فلان، وقد أخطأنا بذلك علماً، فاعذُر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه. فإنه إلا يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا) ^(٤) [يقول: احكم بما أنزل الله إليك في الكتاب] وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَلَا

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٢٣، ص: ١٩٩.

(٣) سورة النساء: ١٠٧.

(٤) سورة النساء: ١٠٥.

تُجَدِلُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا^(١) ثم قال للذين أتوا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفِينَ بالكذب: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) هَذَا تَمَّ هَذَا لَا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا^(٢) يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)^(٣) يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)^(٤) يعني: السارق والذين جادلوا عن السارق. وهذا سياق غريب وكذا ذكر مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في سارق بني أريق على اختلاف سياقاتهم، وهي متقاربة^(٥)

قال الإمام الطبري في تفسيره: (يعني بذلك جل ثناؤه: "ولا تجادل" يا محمد، فتخاصم—"عن الذين يختانون أنفسهم"، يعني: يختنون أنفسهم، يجعلونها خبونة بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله، وهم بنو أريق. يقول: لا تخصص عنهم من يطالبهم بحقوقهم وما خانوه فيه من أموالهم—"إن الله لا يحب من كان خَوَّانًا أَثِيمًا"، يقول: إن الله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حرّمه الله عليه)^(٦)

٢) قال الله تعالى: (وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)^(٧)

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: (يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه {وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ} قد عاهدكم {خِيَانَةً} أي: نقضًا لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود، {فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ} أي: عهدهم {عَلَى سَوَاءٍ} أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز. فَاضْرِبْ وَجُوهَ الْغُدْرِ - الْأَعْدَاءِ - حتى يجيئك إلى السواء، وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: {فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} أي: على مهل، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} أي: حتى ولو في حق الكفارين، لا يجها أيضًا^(٨). عن سلمان يعني الفارسي عليه السلام: أنه انتهى إلى حصن - أو: مدينة - فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منهم فهداني الله عز وجل للإسلام، فإذا أسلمتم فلکم ما لنا

(١) سورة النساء: ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) سورة النساء: ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) سورة النساء: ١١٠.

(٤) سورة النساء: ١١٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص: ٤٠٥.

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٩، ص: ١٩٠.

(٧) سورة الأنفال: ٥٨.

(٨) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٤، ص: ٧٩.

وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله^(١).

(٣) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)^(٢)

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: (يجزى تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم، كما قال تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) (٣) وقال: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٤) وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها)^(٥).

(٨) الاستكبار

الاستكبار في اللغة:

الاستكبار في اللغة من (كبر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الكاف والباء والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الصَّغَر. يقال: هو كَبِيرٌ، وكُبَارٌ، وكُبَارٌ. قال الله تعالى: (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كُبْرًا) (٦). والكِبَرُ: مُعْظَمُ الأَمْرِ، قوله عزَّ وعلا: (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ) (٧)، أي مُعْظَمُ أَمْرِهِ. ويقولون: كِبَرُ سياسةِ القوم في المال. فأَمَّا الكِبَرُ بضم الكاف فهو القُعدد. يقال: الولاء للكِبَر، يراد به أقعد القوم في النَّسَب، وهو الأقربُ إلى الأب الأكبر)

أورد الجوهري في الصحاح: (وقولهم: توارثوا المجد كابراً عن كابرٍ، أي كَبِيراً عن كَبِيرٍ في العزِّ والشرف. وأكْبَرْتُ الشيء، استعظمته)

وفي لسان العرب لابن منظور: (قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى المتكبر والكبير أي العظيم ذو الكبرياء، وقيل المتعالي عن صفات الخلق، وقيل المتكبر على عتاة خلقه، والتاء فيه للتفرد والتخصُّص لا تاء التعاطي والتكلف، والكِبَرِيَاءُ العِظَمَةُ والمُلْكُ، وقيل هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى)

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٣٧٢٦ (١٢٩/٣٩). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف.

(٢) سورة الحج: ٣٨.

(٣) سورة الزمر: ٣٦.

(٤) سورة الطلاق: ٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٥، ص: ٤٣٣.

(٦) سورة نوح: ٢٢.

(٧) سورة النور: ١١.

الآية الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للمستكبرين بلفظ عدم الحب الصريح هي:

قال الله تعالى: (إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) ^(١)

قال الإمام الطبري في تفسيره: (يعني تعالى ذكره بقوله: لا جرم حقا أن الله يعلم ما يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم ما ذكرنا من الأنباء في هذه السورة، واعتقادهم نكير قولنا لهم: إلهكم إله واحد، واستكبارهم على الله، وما يعلنون من كفرهم بالله وفريتهم عليه) (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) يقول: إن الله لا يحب المستكبرين عليه أن يوحده ويخلعوا ما دونه من الآلهة والأنداد. كما حدثنا محمد بن عمرو، قال: ثنا جعفر بن عون، قال: ثنا مسعر، عن رجل: أن الحسن بن علي كان يجلس إلى المساكين، ثم يقول (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) ^(٢) وأورد القرطبي في تفسيره قول العلماء في صفة الكبر: (قال العلماء: وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفي الحديث الصحيح "إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة يطوهم الناس بأقدامهم لتكبرهم" ^(٣)).

(٩) الفرح بغير الحق

الفرح في اللغة:

الفرح في اللغة من (فرح) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الفاء والراء والحاء أصلان، يدل أحدهما على خلاف الحزن، والآخر الإثقال.

فالأوّل الفَرَح، يقال فَرِحَ يَفْرَحُ فَرَحًا، فهو فَرِحٌ. قال الله تعالى: (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) ^(٤) وأما الأصل الآخر فالإفراح، وهو الإثقال.... قالوا: هذا الذي أثقله الدين. قال:

إذا أنت لم تَبْرَحْ تَوَدِّي أمانةً *** وتَحْمِلُ أخرى أفرحتك الودائع ^(٥)

وأورد صاحب الصحاح: (وتقول: لك عندي فَرَحَةٌ إن بشرتني، وفُرْحَةٌ. والمفرح: الذي يَفْرَحُ كلما سرّه الدهر. والمفرح: دواء معروف) وفي لسان العرب لابن منظور: (والفرح أيضا البطر، وقوله تعالى: لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يحب الفرحين. قال الزجاج معناه والله أعلم لا تَفْرَحْ بكثرة المال في الدنيا لأن الذي يَفْرَحُ بالمال يصرفه في غير أمر الآخرة، وقيل لا تَفْرَحْ: لا تأشُر، والمعنيان متقاربان لأنه إذا سرّ ربما أشر).

(١) سورة النحل: ٢٣.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٧، ص: ١٨٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد السبرودي و إبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ١٣٨٤هـ، ج ١٠، ص: ٩٥.

(٤) سورة غافر: ٧٥.

(٥) هذا البيت للمفضل الضبي، انظر المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء لأبي الحسن الآمدي. ص: ٢٧.

الآية الواردة في القرآن الكريم بنفي محبة الله للفرحين بلفظ عدم الحب الصريح:

قال الله تعالى: (إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ^١ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحَهُ لَتَتَوَّأ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ^(١))

أورد ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (عن ابن عباس قال: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى} قال: كان ابن عمه)^(٢).

وأورد الإمام الطبري القول في تفسيره للفرح المانع من محبة الله بالبطر والأشر، قال: (وقوله: (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) يقول: إذ قال قومه: لا تبغ ولا تبطر فرحا، إن الله لا يحب من خلقه الأشرين البطرين)^(٣) ومن دلالة الآية الكريمة الموازنة بين الدنيا والآخرة يكون بتسخير الأولى للآخرة وأن الفرح على قسمين:

(١) فرح محمود: وهو فرح سرور بنعم الله والسعادة بها، وتسخيرها في طاعته وشكره عليها.

(٢) فرح مذموم: وهو الفرح الذي يؤدي إلى فساد وهو فرح البطر والفخر، والاعتزاز والكبر، والخيلاء والمرح، مبتداه الغرور ومنتهاه الهلكة والتبار؛ لما يؤول إليه صاحبه من الفساد في النفس والمال والدنيا والدين والله لا يحب الفساد.

(١٠) الجهر بالسوء من القول بدون مظلمة

الجهر في اللغة:

الجهر في اللغة من (جهر) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الجيم والهاء والراء أصل واحد، وهو إعلان الشيء وكشفه وعُلوّه. يقال جَهَرْتُ بالكلام أعلنت به. ورجلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ، أي عاليه. قال:

أَخَاطِبُ جَهْرًا إِذْ لَهْنٌ تَخَافُتُ*** وَشَتَانٌ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَنْطِقِ الْخَفْتِ

ومن هذا الباب: جَهَرْتُ الشَّيْءَ، إذا كان في عينك عظيماً

أورد الجوهري في الصحاح: رأيتُه (جَهْرَةً، وكلمته جهرة. وَجَهَرْتُ البئرَ واجْتَهَرْتُهَا، أي نَقَيْتُهَا وأَخْرَجْتُ مَا فِيهَا مِنَ الْحَمَاءِ. وهي بئرٌ مَجْهُورَةٌ. وقال: إِذَا وَرَدْنَا آجِنًا جَهْرُنَاهُ أَوْ خَالِيًا مِنْ أَهْلِهِ عَمَرْنَاهُ).

(١) سورة القصص: ٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٦، ص: ٢٥٣.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٩، ص: ٦٢٢.

وفي لسان العرب لابن منظور: (والجَهْورِيُّ والحروفُ المَجْهُورَةُ ضد المهموسة وهي تسعة عشر حرفاً قال سيبويه معنى الجَهْرِ في الحروف: أنها حروف أُشْبِعَ الاعتمادُ في موضعها حتى منع النَّفْسُ أَنْ يَجْري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، غير أن الميم والنون من جملة المجهورة وقد يعتمد لها في الفم والخياشيم فيصير فيها غنة، فهذه صفة المجهورة ويجمعها قولك « ظِلُّ قَوْ رِبْضٍ إِذْ غَزَا جُنْدٌ مُطِيعٌ »)

السوء في اللغة:

السوء في اللغة من (سوء) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (فَأَمَّا السِّينُ والوَاوُ والهمزة إنما هي من باب القُبْح. تقول رجلٌ أسوأ، أي قبيحٌ، وامرأةٌ سَوَاءٌ، أي قبيحة.)

أورد صاحب الصحاح: (وأساء إليه: نقيض أحسن إليه. والسُّوَاى نقيضُ الحُسْنى، وفي القرآن: (ثُمَّ كَانَ عَنِيقَ الَّذِينَ أَسْتَوْا السُّوَاى)^(١) يَعْنِي النَّارَ. وَالسَّيِّئَةُ أَصْلُهَا سَيِّئَةٌ، فَقَلِبْتَ الْوَاوَ يَاءً وَأُدْغِمْتَ. وَيُقَالُ: فَلَانٌ سَيِّئٌ الْاِخْتِيَارِ، وَقَدْ يُخَفَّفُ. قَالَ الطُّهْرِيُّ:

وَلَا يَجْزُونَ مِنْ حَسَنِ بَسِيءٍ *** وَلَا يَجْزُونَ مِنْ غَلْظٍ بَلِينِ)

وفي لسان العرب: (وَالسَّوْءَةُ السَّوْءُ الْمَرْأَةُ الْمُخَالِفَةُ، وَالسَّوْءَةُ السَّوْءُ الْخَلَّةُ الْقَبِيحَةُ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ قَبِيحَةٍ أَوْ فَعْلَةٍ قَبِيحَةٍ فَهِيَ سَوَاءٌ)

القول في اللغة:

القول في اللغة من (قول) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الْقَافُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَقُلُّ كَلِمُهُ، وَهُوَ الْقَوْلُ مِنَ التَّنْقِطِ. يُقَالُ: قَالَ يَقُولُ قَوْلًا. وَالْمَقُولُ: اللِّسَانُ. وَرَجُلٌ قَوْلَةٌ وَقَوْلٌ: كَثِيرُ الْقَوْلِ)

أورد الجوهري في الصحاح: (والجمع أقوالٌ وأقوالٌ أيضاً، ومن جمعه على أقوالٍ لم يجعل الواحد منه مشدداً. والقَوْلُ: جمع قائل. والقَالُ: الخشبة التي تضربُ بها القُلَّةُ. ويقال: قَوْلْتَنِي مَا لَمْ أَقُلْ، وَأَقَوْلْتَنِي مَا لَمْ أَقُلْ، أَي ادَّعَيْتَهُ عَلَيَّ. وَتَقَوْلٌ عَلَيْهِ: أَي كَذَبَ عَلَيْهِ. واقتالَ عَلَيْهِ: تَحَكَّمَ)

وفي لسان العرب لابن منظور: (الْقَوْلُ الْكَلَامُ عَلَى التَّرْتِيبِ، وَهُوَ عِنْدَ الْحَقِّقِ كُلِّ لَفْظٍ قَالَ بِهِ اللِّسَانُ تَامًا كَانَ أَوْ نَاقِصًا، تَقُولُ قَالَ يَقُولُ قَوْلًا، وَالْفَاعِلُ قَائِلٌ وَالْمَفْعُولُ مَقُولٌ)

الآية الواردة في القرآن الكريم بلفظ عدم الحب الصريح، من نفي محبة الله للمجاهرين بالسوء من القول، هي: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)^(٢)

(١) سورة الروم: ١٠.

(٢) سورة النساء: ١٤٨.

أورد ابن كثير في تفسيره: (عن ابن عباس: { لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ } يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: {إِلَّا مَنْ ظَلِمَ} وإن صبر فهو خير له وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه. وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه وقال عبد الكريم^(١) بن مالك الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتري عليه؛ لقوله: (وَلَمَنْ آتَتْكُمْ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٍ)^(٢) ^(٣). وقد استثنى العلماء من الجهر بالسوء ما يباح من الغيبة، قال النووي في رياض الصالحين: (اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة أسباب:

الأول: النظم، فيجوز للمظلوم أن ينظم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمي فلان بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجوا قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء: فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة. ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة. ومنها إذا أراد متفقها يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر

(١) عبد الكريم بن مالك الجزري أبو سعيد الحراشي الأموي مولاهم، روى عن سعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير و طائوس وعكرمة وطائفة، وروى عنه مالك وابن جريج والسفيان وخلق، وثقه أحمد والعجلي وغير واحد، وقال الحميدي عن سفيان: كان حافظاً، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، مات سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: إسعاف المبطل برجال الموطأ (١/١٩).

(٢) سورة الشورى: ٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص: ٤٤٢ - ٤٤٣.

المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتنفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما بالألا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، أو مغفلاً، ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره، من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب الأعمش، والأعرج والأصم، والأعمى والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى. فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه^(١).

والجهر بالسوء من القول يدخل فيه الغيبة والنميمة، والفحش والتفحش، وكل ما يؤدي من القول، وهو في حق المسلم اجترأ على حقه وطعن في العرض المحرم، وفي حق الكافر ظلم وتجاوز؛ لأن الإسلام أمرنا بالإحسان ومنه القول الحسن، وأخطر ما يكون على الناس حينما يكون الاجترأ، في حق الولاية والعلماء، لأنه مفسدة متعددة إلى العامة؛ باختلال الثقة في القائمين على المصالح الدنيوية والدينية للناس، وقد يؤدي إلى فساد عام وفتن عمياء، فيجب أن يسلم منه المجتمع بالنصيحة القائمة على الكتاب والسنة، ويجب أن يخلو منه المجتمع الدعوي؛ لأنهم القدوة وهدفهم وغايتهم الهداية والخيرية بالدعوة إلى الله تعالى، وهو في حقهم ألزم من غيرهم.

(١) رياض الصالحين، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: مصطفى محمد أبو المعاطي، القاهرة: دار الغد الجديد، ط ١، ١٤٢٨هـ، ص:

القسم الثاني

مساخط الله الواردة في السنة النبوية بنفي محبة الله لها

(١) الفحش والتفحش.

(٢) الاضطجاع على البطن.

(٣) العقوق.

(٤) لي اللسان بالكلام ورفع الصوت على المتحدث والجدال.

(٥) الإسبال في الإزار للرجال.

(١) الفحش والتفحش

الفحش والتفحش في اللغة:

الفحش في اللغة من (فحش) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الفاء والحاء والشين كلمة تدلُّ على فُجِح في شيء وشناعة. من ذلك الفُحْش والفُحْشاء والفاحشة. يقولون: كلُّ شيء جاوزَ قَدْرَه فهو فاحش؛ ولا يكون ذلك إلا فيما يُتكرَّره)

أورد الجوهر في الصحاح: (ويسمى الزنى فاحشةً. وقول طرفة:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي *** عَقِيلَةَ مالِ الفاحشِ المتشددِّ

يعني الذي جاوزَ الحدَّ في البخل. وأفحشَ عليه في المنطق، أي قال الفُحْشَ، فهو فحَّاشٌ. وتَفَحَّشَ في كلامه) وفي لسان العرب: (قال ابن بري: الفاحشُ السيِّءُ الخلقُ المتشددُّ البخیلُ)

لقد نهى الله تعالى في كتابه الكريم عباده عن الفحشاء، ونهى عن نفسه الأمر بها، قال الله تعالى

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(١) وما ورد في السنة بلفظ عدم الحب الصريح

للفحش والتفحش ونفي المحبة لها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّهُ الظُّلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، (وَأَمَرَهُمْ) بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا، (وَأَمَرَهُمْ) بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا»^(٢).

(١) سورة الأعراف: ٢٨.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٦٧٤١ (٨ / ١٨). انظر: سنن النسائي الكبرى - كتاب التفسير - باب سورة الحشر (ويؤثرون على أنفسهم)، وانظر: مسند الإمام أحمد: مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: صحيح.

إن من أبرز الثوابت في العلاقات بين الناس إقامة العدل في الحقوق، فحذر الله من الظلم وإن من أبرز المسلمات عدم التعدي على الحدود والمحرمات فحذر الله من الفحش والتفحش. فالزنا الحسي أو السمعي أو اللفظي إنما هو من الفحش ومن وقع فيه مرة فهو على فحش ومن اقترب منه طالباً له أو مارسه متصفاً به فأصبح صبغة له فذلك من التفحش. فإن الفحش والتفحش، لكل منهما حد في المعنى حاولت حصره في تعريف يقرب المعنى ويفرق بين الفحش والتفحش على نحو ما يلي :

الفحش: صفة الفعل أو القول في تجاوزة للشرع والعقل أو العرف في ذات الفعل أو القول والاتصاف به ولو على القليل يطلق عليه فحشاً، فإن الله لا يحب من كان ذا وصفه. وإن الفاحشة والفحشاء تطلق في غالب الكلام على إظهار العورات والزنا حساً ولفظاً وسماعاً.

التفحش: طلب الفعل أو القول في مجاوزة للشرع والعقل أو العرف وكثير الفحش وشنيعه يطلق عليه تفحشاً فإن الله لا يحب من كان ذا وصفه.

قال الله تعالى: (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ^(١) يقول الإمام الطبري في تفسيره : (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه، ولا تفتفوا آثاره، يا شاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا وإذ اعتكموها فيهم وروايتكم ذلك عمن جاء به، فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، وهي الزنا، والمنكر من القول ^(٢) وخطوات الشيطان ظاهرة وباطنة وكثيرة ومتنوعة لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويدخل عليه من باب الشهوات وباب الشبهات. وقوة الإيمان، والقيام بالطاعات من الفرائض والنوافل، والالتزام بالأذكار الشرعية، هي الوسائل الطاردة لوساوسه، والمعثرة لخطواته، والمغلقة لأبوابه .

(٢) الاضطجاع على البطن

الاضطجاع في اللغة:

الاضطجاع في اللغة من (ضجع) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (الضاد والجيم والعين أصلٌ واحدٌ يدلُّ على لُصُوقٍ بالأرض على جنب)

أورد الجوهري في الصحاح: (وَضَجَعَكَ: الذي يُضَاجِعُكَ. وَالتَّضَجُّعُ في الأمر: التَّقْصِيرُ فيه. ويقال: ضَجَعَتِ الشمس، إذا دنت للمغيب، مثل ضَرَعَت. وَتَضَجَّعَ في الأمر، أي تَقَعَّدَ ولم يقم به. وَتَضَجَّعَ السحابُ: أَرَبَّ بالمكان. وَرَجُلٌ ضَجَعَةٌ: يُكْثِرُ الاضْطِجَاعَ كَسَلًا. قال الفراء: إذا كثرت الغنمُ فهي الضَاجِعَةُ والضَجْعَاءُ. والضَّوَجُ: الهضابُ. قال النابغة: ودوني رَاكِسٌ والضَّوَجِجُ)

(١) سورة النور: ٢١.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١٩، ص: ١٣٤.

وفي لسان العرب لابن منظور، ورد الإبدال الحاصل فيها: (هذه الطاء تاء في الأصل ولكنه قبح عندهم أن يقولوا اضجع فأبدلوا التاء طاء وله نظائر) وفي الحديث كانت ضجعة رسول الله ﷺ أدمًا حشوها ليف، الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس.

ومما ورد في السنة بلفظ عدم الحب الصريح من نفي محبة الله للاضطجاع على البطن :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى بَطْنِهِ، فَقَالَ: (إِنَّ هَذِهِ لَضِجْعَةٌ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)^(١). وهذه الضجعة - أي على البطن - مخالفة لطبيعة التكريم والأمان الذي يرافق المسلم في حياته، يقظة ومناما، والحكم من النهي عن هذه الضجعة كثيرة، وأهمها مخالفة القائم بها للسنن الواردة عن النبي ﷺ في النوم، حيث كان ﷺ ينام على شقه الأيمن واضعا كفه الأيمن تحت خده الأيمن، بوب البخاري يرحمه الله باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى. عَنْ حُذَيْفَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ، وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ ثُمَّ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)^(٢) والنوم على الشق الأيمن سنة أمر بها النبي ﷺ، وأمر المسلم بذكر الله من التسبيح والتحميد والتكبير، والأدعية الإيمانية، والأذكار الحافظة للمسلم من الشيطان وسوء الختام، ومن أحاديث هذه السنن، مايلي :

عن عروة بن الزبير أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُ بِالْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ، قَامَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَتِينَ الْفَجْرُ ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ لِلْإِقَامَةِ)^(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْطَجَعَ عَلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْزِعْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، ثُمَّ لِيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: رَبِّ بَكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أُرْسَلَتْهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا حَفِظْتَ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)^(٤).

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ، وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسَلْتُ، فَإِنْ مِتَّ

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٧٨٦٢ (١٣ / ٢٥١) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حديث قوي. وظاهر الإسناد أنه حسن.

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى. حديث رقم: ٦٣١٤ (٨ / ٨٥)

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب من انظر الإقامة. حديث رقم: ٦٢٦ (١ / ١٢٨)

(٤) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب الدعاء - باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه، حديث رقم: ٣٨٧٤ (٥ / ٤٠) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٧٣٦٠ (١٢ / ٣١٦) صححه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

مَنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ فَرَدَّدَتْهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغَتْ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ قُلْتُ وَرَسُولِكَ قَالَ: لَا وَبَيْتِكَ الَّذِي أَرْسَلْتُ^(١). قال ابن حجر في الفتح: (وقال النووي في الحديث ثلاث سنن:

إحداها: الوضوء عند النوم وإن كان متوضئاً كفاه لأن المقصود النوم على طهارة.
ثانيها: النوم على اليمين.

ثالثها: الختم بذكر الله. وقال الكرمانى^(٢) هذا الحديث يشتمل على الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إجمالاً، من الكتب والرسول من الاهليات والنبويات، وعلى إسناد الكل إلى الله من الذوات والصفات والأفعال؛ لذكر الوجه والنفس والأمر، وإسناد الظاهر مع ما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه، وهذا كله بحسب المعاش، وعلى الاعتراف بالثواب والعقاب خيراً وشرّاً^(٣)

(٣) العقوق

العقوق في اللغة:

العقوق في اللغة من (عق) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (العين والقاف أصل واحد يدلُّ (على الشَّقِّ)، وإليه يرجع فروع الباب بلطف نظر. قال الخليل: أصل العقِّ الشَّقُّ. قال: وإليه يرجع (العقوق).

أورد الجوهري في الصحاح: (العَقِيقَةُ: صوت الجَذَعِ. وشَعَرُ كُلِّ مَوْلُودٍ مِنَ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ الَّذِي يُولَدُ عَلَيْهِ عَقِيقَةٌ، وَعَقِيقٌ، وَعِقَّةٌ أَيْضاً بِالْكَسْرِ).

وفي لسان العرب لابن منظور: (وعَقَّ والدَه يَعْقُهُ عَقًّا وَعُقُوقًا وَمَعَقَّةً، شَقَّ عصا طاعته، وعَقَّ والديه قطعهما ولم يصلِّ رَحِمَهُ منهما، وقد يُعَمُّ بلفظ العُقُوقِ جميع الرِّحِمِ). لقد أمر الله في كتابه الكريم بالإحسان إلى الوالدين وحذر من عقوقهما، وبين خسارة من عصاهما في أهم موجبات الدين وهو الإيمان، قال الله تعالى: (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبَلَّكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب الوضوء - باب فضل من بات على الوضوء. حديث رقم: ٢٤٧ (٥٨/١)

(٢) الإمام، العلامة، أبو محمد حُرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ، الْفَقِيه، تَلْمِذُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ. رَحَلَ وَطَلَبَ الْعِلْمَ. وَأَخَذَ عَنْ: أَبِي الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيِّ، وَأَبِي بَكْرٍ الْحُمَيْدِيِّ، وَأَبِي عُبَيْدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوَيْه. قَالَ الْخَلَالُ: كَانَ رَجُلًا جَلِيلًا، حَتَّي الْمُرُودِيَّ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ. قِيدَ تَارِيخٍ وَقَاتَهُ عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ، فِي سَنَةِ ثَمَانَيْنِ وَمِائَتَيْنِ. عُمَرُ، وَقَارَبَ التَّسْعِينَ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٢٤٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ، ج ١١، ص: ١١٢ - ١١٣.

فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ إِيَّاهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ^(١) وما ورد في السنة بلفظ عدم الحب الصريح من نفي محبة الله للعقوق :

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْعَقِيقَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْعُقُوقَ وَكَأَنَّهُ كَرِهَ الْأَسْمَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا نَسْأَلُكَ عَنْ أَحَدِنَا يُوَلَّدُ لَهُ ؟ قَالَ : مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنْسُكَ عَنْ وَلَدِهِ فَلْيَفْعَلْ ، عَنْ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافَأَتَانِ ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ قَالَ : وَسُئِلَ عَنِ الْفَرَعِ ؟ قَالَ : وَالْفَرَعُ حَقٌّ ، وَأَنْ تَتْرُكَهُ حَتَّى يَكُونَ شُغْرُبًا^(٢) أَوْ شُغْرُوبًا ابْنِ مَخَاضٍ أَوْ ابْنِ لَبُونٍ ، فَتَحْمِلَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ تُعْطِيَهُ أَرْمَلَةً ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذْبَحَهُ يُلْصَقُ لَحْمُهُ بِوَبَرِهِ ، وَتُكْفَى إِنْاءَكَ ، وَتُوَلَّهُ نَاقَتَكَ ، وَقَالَ : وَسُئِلَ عَنِ الْعَتِيرَةِ ؟ فَقَالَ : الْعَتِيرَةُ حَقٌّ . قَالَ : بَعْضُ الْقَوْمِ لِعَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ : مَا الْعَتِيرَةُ ؟ قَالَ : كَانُوا يَذْبَحُونَ فِي رَجَبٍ شَاةً فَيَطْبَحُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ^(٣) .

قال الله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْتَغَِنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا^(٤)) ومن حقيقة الحق للوالدين أنهما سبب في وجود الولد، فوجب البر بهما، فإن الوالد يقوم بالإنفاق والارتفاق.. والوالدة بالولادة والإشفاق. ولله سبحانه وتعالى نعمة الخلق والإيجاد، ومن بعد ذلك للوالدين نعمة التربية والإيلاء. وما قرره السلف الصالح من الفقه في الدين: ثلاث آيات مقرونات بثلاث، ولا تقبل واحدة بغير قرينتها:

١- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (التغابن: ١٢)، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه.

٢- وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (البقرة: ٤٣)، فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه.

٣- أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ (لقمان: ١٤)، فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه.

(١) سورة الأحقاف: ١٧ - ١٨.

(٢) (شغزب) الشَّغْرَبَةُ الْأَخْضَرُ بِالْغُنْفِ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَصْعَبٍ ، وفي الحديث حتى يكون شُغْرُبًا قال ابن الأثير: كذا رواه أبو داود في السنن. قال الحرُّبِيُّ والذي عندي أنه زُخْرُبًا وهو الذي اشتدَّ لحمه وغلظَ. والزُّخْرُبُ بالضم وتشديد الباء القويُّ الشديداً، وقيل الغليظُ وقيل هو من أولاد الإبل الذي قد غلظَ جسمه واشتدَّ لحمه، يقال: صار ولد الناقة زُخْرُبًا إذا غلظَ جسمه واشتدَّ لحمه، وفي الحديث: أنه ﷺ سئل عن الفرع وذبحه، فقال: هو حقٌّ ولأن تتركه حتى يكون ابن مَخَاضٍ أَوْ ابْنُ لَبُونٍ زُخْرُبًا، خيرٌ من أن تُكْفَى إِنْاءَكَ ، وتُوَلَّهُ نَاقَتَكَ. الفرعُ أَوَّلُ ما تلده الناقةُ كانوا يذبحونه لاهتهم فكرة ذلك، وقال: لأن تتركه حتى يكبر ويتنفَّع بلحمه، خيرٌ من أن تذبحه فينقطع لبنُ أمه فتكفَى إِنْاءَكَ الذي كنت تحلبُ فيه، وتَجْعَلُ نَاقَتَكَ وَالْهَةَ بِفَقْدِ وَلَدِهَا، انظر: لسان العرب لابن منظور (٥٠٥/١) و (٤٤٧/١).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، حديث رقم: ٦٧١٣ (٣٢٠/١١) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده حسن.

(٤) الإسراء: ٢٣ - ٢٤.

(١) سورة النساء: ٣٦.

(٢) سورة العنكبوت: ٨.

(۳) سورة لقمان: ۱۴.

(٤) انظر : صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب البر والصلة، حديث رقم : ٥٩٧١ (٢/٨). وانظر : صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب بر الوالدين وأنها أحق به، حديث رقم : ٦٦٦٤ (٢/٨).

(٥) الألباء: قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أم رسول الله ﷺ أمانة توفيت وهو ابن ست سنين بالاباء بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة. انظر : السيرة النبوية لابن كثير (٢٣٥/١).

(٦) انظر: صحيح مسلم - كتاب الجنائز - باب استدئان النبي ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، حديث رقم: ٢٣٠٣ (٦٥/٣).

(۷) سورة مريم: ۱۴.

النَّبِيُّ ﷺ: أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ثَلَاثًا قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَافُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجُلُوسٌ، وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ^(١).

(٤) لي اللسان بالكلام ورفع الصوت على المتحدث والجدال

اللي في اللغة:

اللي في اللغة من (لوي) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (اللام والواو والياء أصلٌ صحيح، يدلُّ على إمالةٍ للشيء. يقال: لَوَى يَدَهُ يَلْوِيهَا. وَلَوَى بِرَأْسِهِ: أَمَالَهُ. وَاللَّوِيُّ: مَا ذَبَلَ مِنَ الْبَقْلِ، وَسُمِّيَ لَوِيًّا لِأَنَّهُ إِذَا ذَبَلَ التَوَى وَمَالَ. وَاللَّوَاءُ معروفٌ، وَسُمِّيَ لِأَنَّهُ يَلْوَى عَلَى رُمَحِهِ. وَاللَّوِيَّةُ: مَا ذُخِرَ مِنْ طَعَامٍ لِغَيْرِ الْحَاضِرِينَ، كَأَنَّهُ أَمِيلٌ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ. وَأَلْوَى بِالْشَيْءِ، إِذَا أَشَارَ بِهِ كَالْيَدِ وَنَحْوِهِ. وَأَلْوَى بِالْشَيْءِ: ذَهَبَ بِهِ، وَكَأَنَّهُ أَمَالَهُ إِلَى نَفْسِهِ)

أورد الجوهري في الصحاح: (لَوَيْتُ الْحَبْلَ: فَتَلْتَهُ. وَلَوَى الرَّجُلُ رَأْسَهُ وَأَلْوَى بِرَأْسِهِ: أَمَالَ وَأَعْرَضَ).

وفي لسان العرب لابن منظور: (وفي التزويل العزيز في ذكر المنافقين: لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ، وَلَوَّوْا قُرَى بِالْتَشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، وَلَوَّيْتُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ فِي الْحُصُومَةِ شَدَدًا لِلْكَثْرَةِ وَالْمُبَالَغَةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ. وَأَلْوَى الرَّجُلُ بِرَأْسِهِ وَلَوَى رَأْسَهُ أَمَالَ وَأَعْرَضَ، وَأَلْوَى رَأْسَهُ وَلَوَى بِرَأْسِهِ أَمَالَهُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ.... يقال فلان لا يعرف الحَوَّ من اللَوِّ أَي لا يعرف الكلامَ البَيِّنَ من الخَفِيِّ).

لقد بين الله صفات المنافقين في كتابه الكريم من سور عديدة منه البقرة والتوبة والمنافقين، وتجلت صفاتهم، لكل من يراهم، من لحن القول والكذب والخيانة والخداع، قال الله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ^ط وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ^ط كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ^ط يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ^ط هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ^ط فَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٢))

ومما ورد في السنة بلفظ عدم الحب الصريح من نفي محبة الله لمن يلوي لسانه بالكلام تكبرا وتشدقا واستهزاء:

(١) عَنْ وَائِلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ شَارَةٌ حَسَنَةٌ، مَا أَدْرِي مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَبْهَى لِعَيْنِي مِنْهُ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَتَكَلَّمُ كَلَامًا، إِلَّا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَنْ يَعْلُوَ كَلَامُهُ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ هَذَا وَحَزْبُهُ يَلُوُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لِلنَّاسِ لِيَّ الْبَقْرَةَ لِسَانَهَا بِالرَّاعِي كَذَلِكَ يَلْوِي اللَّهُ وَجُوهَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ فِي النَّارِ"^(٣).

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب الشهادات - باب ما قيل في شهادة الزور، حديث رقم: ٢٦٥٤ (١٧٢/٣) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٢٦٩ (٦٤/١).

(٢) سورة المنافقون: ٤.

(٣) انظر: شعب الإيمان للبيهقي - كتاب حفظ اللسان - فصل في السكوت عن كل مالا يعنيه، حديث رقم: ٤٦١٩ (٤٣/٧).

إن لي الرأس إعراضاً عن الحق. ولي اللسان تشدقاً واستكباراً واستهزاء، مع حسن المظهر وخبث الباطن من صفات المنافقين، ومن صفات أهل التحريف من أهل الكتاب فقد قال الله تعالى في حق المنافقين: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) ^(١)، وقال تعالى في حق أهل الكتاب: (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ^(٢)، قال الإمام ابن كثير في تفسيره:

(يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليؤهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله) ^(٣)؛ ولأن الأعراض عن الحق طريق الضلال، فإن كثرة الكلام بالقليل والقال مظنة الاختلاف والإثم والجدال، وكذلك كثرة السؤال في مسائل الدين مظنة الشك والريبة، وقد تؤدي إلى الضلال والإضلال، وكثرة السؤال من المال مظنة الكساد ونقصان المروءة، ففي الحديث ما يبين أن ذلك من مساخط الله فإنه عز وجل لا يحبها.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ قِيلَ وَقَالَ مِنَ الْأَحَادِيثِ، وَلَا كَثْرَةَ السُّؤَالِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يُحِبُّ الْمُخْتَالَ، وَلَا الْجَافِي، وَلَا الْمَنَانُ الَّذِي يَمْنُ بِالْقَلِيلِ، قَالَ: وَلَا أَحَبُّ الدُّوَاقِ ^(٤) مِنَ الرَّجَالِ، وَلَا الدُّوَاقَةُ مِنَ النِّسَاءِ ^(٥). وعند البخاري عن المغيرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُفُوقَ الْأُمّهَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ ^(٦). قال الشيخ ابن عثيمين: (في شرح كتاب رياض الصالحين: (فيما جاء في الكبر والإعجاب). والكبر: هو الترفع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير، وأنه فوق الناس، وأن له فضلاً عليهم. والإعجاب: أن يرى الإنسان عمل نفسه فيعجب به، ويستعظمه ويستكثره. فالإعجاب يكون في العمل، والكبر يكون في النفس، وكلاهما خلق مذموم الكبر والإعجاب. والكبر نوعان: كبر على الحق، وكبر على الخلق) ^(٧) وفي الحديث التحذير من الاختيال والجفاء والمن؛ لأنها من مساخط الله:

(١) سورة المنافقون: ٥.

(٢) سورة آل عمران: ٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص: ٦٥.

(٤) (ذوق) الدال والواو والقاف أصل واحد، وهو اختبار الشيء من جهة تطعم، ثم يشتق منه مجازاً فيقال: دُفَّت المأكول أدوقه دَوْقًا. ودُفَّت ما عند فلان: اختبرته. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٦٤).

(٥) الجامع في الحديث، عبد الله بن وهب بن أبو محمد المصري، (ت: ١٩٧هـ)، المحقق: د. مصطفى حسن حسين أبو الخير، الرياض: دار ابن الجوزي، ط ١، ١٩٩٦م، ج ٢، ص: ٥٤٠. انظر: باب العزلة.

(٦) انظر: صحيح البخاري - كتاب في الاستقراض - باب ما ينهي عن إضاعة المال، حديث رقم: ٢٤٠٨ (٣/١٢٠) وانظر صحيح مسلم - كتاب الأقضية - باب النهي عن كثر المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، حديث رقم: ٤٥٨٠ (٥/١٣٠).

(٧) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: عبد الله الطيار، الرياض: دار الوطن، ط ١، ١٤١٦هـ. ج ٦، ص: ٢٣٢ - ٢٣٣.

و الاختيال: هو علو النفس والإعجاب بها ويظهر في الهيئة واللباس والمشية والكلام وغيرها. وهو مذموم وله صور محمودة ذكرناها سابقاً^(١).

والجفاء: وهو البعد ومنه جفاء القلب بالبعد عن الله والجفاء عن الأقارب بالقطيعة وعدم الصلة وجفاء الناس بالغلظة وسوء المعاملة وهو مذموم شرعاً. وفي الحديث: (الجفاء في النار)^(٢).

والمنان: وهو المن بالعطية من الصدقات والهبات فيعطي ويعدد فضائله على من أعطى قولاً وعملاً. وهو مذموم شرعاً، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مِنْهُ وَالْمُنَقِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْفَاجِرِ وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ)^(٣).

(٥) الإسبال في الإزار للرجال

الإسبال في اللغة:

الإسبال في اللغة من (سبل) كما ورد عن ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: (السين والباء واللام أصل واحد يدل على إرسال شيء من علو إلى سفلى، وعلى امتداد شيء)

أورد الجوهري في الصحاح: (السَّيْلُ بالتحريك: المطر. والسَّيْلُ أيضاً: السُّبُلُ. وقد أَسْبَلَ الزرع، أي خرج سُبُلُهُ. وقول الشاعر:

وخيّل كأسراب القَطَا قد وَرَعَتْهَا *** لها سَبَلٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ^(٤)

يعني به الرمح. وَأَسْبَلَ المطرُ والدمعُ، إذا هطل. وقال أبو زيد: أَسْبَلَتِ السَّمَاءُ؛ والاسمُ السَّيْلُ، وهو المطر بين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ولم يصل إلى الأرض. وَأَسْبَلَ إِزَارَهُ، أي أرخاه. والسَّيْلُ: داءٌ في العين شبه غشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمراء. والسَّيْلُ: الطريق، يذكر ويؤنث. قال الله تعالى: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي" (٥) وفي لسان العرب لابن منظور: (وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ فَهُوَ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أَيِ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ، واستعمال السَّيْلِ في الجهاد أكثر لأنه السَّيْلُ الذي يقاتل فيه على عقد الدين).

لقد أمر الله بني آدم بالزينة، واللباس الساتر للعورة، وحثهم على التقوى خير لباس، وهو اتباع ما أمر الله به على الطلاق، والانتهاه عما نهى عنه، قال الله تعالى: (يَبْنَىءُ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيثًا وَلِبَاسُ اتَّقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ)^(٦).

(١) الباب الأول: الفصل الثاني: المبحث الأول: المطلب الثاني: مسأخط الله الواردة في القرآن الكريم، رقم (٥) الاختيال والفخر.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک. انظر: كتاب الإيمان. وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٣) انظر: صحيح مسلم-كتاب الإيمان-باب بيان غلط تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السعة بالخلف، حديث رقم: ٣٠٧ (٧١/١).

(٤) هذا البيت نجمع بين هلال بن خالد بن مالك بن هلال. انظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، (٤٢٩/١٠).

(٥) سورة يوسف: ١٠٨.

(٦) سورة الأعراف: ٢٦.

وما ورد في السنة بلفظ عدم الحب الصريح من نفى محبة الله للمسيكين ما يلي:

عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ أخذ بحجرة سفيان بن أبي سهل^(١) وهو يقول: يا سفيان بن أبي سهل لا تسبل إزارك، فإن الله لا يحب المسيكين»^(٢).

وعن أبي جري جابر بن سليم، قال: «رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله مرتين، قال: لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت، قل السلام عليك. قال قلت: أنت رسول الله؟ قال: أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرر فدعوتك كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوتك أثبتها لك، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فصلت راحلتك فدعوتك ردها عليك. قال قلت: اعهد إلي. قال: لا تسبني أحداً. قال: فما سببت بعده حرّاً ولا عبداً ولا بغيراً ولا شاة. قال: ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف وأرفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعنين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبأل ذلك عليه»^(٣).

إن المسلم جميل في باطنه بما يحمله من عقيدة التوحيد الخالص والإيمان بالله جل وعلا، وجميل في ظاهره بنظافة بدنه ونضارة ملبسه وحسن أخلاقه ولزوم السنة في ذلك، كما هو جميل بالموازنة ولزوم الحكمة بما يحقق مصالح الشرع ومقاصد الدين في عمومهم، وعدم مخالفة الناس بالشذوذ في المظهر أو التنطع أو فرض ما ألزم به نفسه على الآخرين، ولكن الدين النصيحة والرفق ما كان في شيء إلا زانه، والنصيحة به فيها جمال، وما ذكره النووي في مسألة الإسبال في اللباس قوله (الحديث الصحيح أن الإسبال يكون في الإزار والقميص والعمامة، وأنه لا يجوز إسباله تحت الكعبين إن كان للخيلاء، فإن كان لغيرها فهو مكروه، وظواهر الأحاديث في تقييدها بالجر خيلاء تدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء وهكذا نص الشافعي على الفرق كما ذكرنا، وأجمع العلماء على جواز الإسبال للنساء، وقد صح عن النبي ﷺ الإذن لهن في

(١) سفيان بن سهل أو بن أبي سهل الثقفي، له ذكر في حديث المغيرة بن شعبه، روى أحمد والنسائي وابن حبان وغيرهم من حديث عبد الملك بن عمير عن حصين بن عقبة عن المغيرة بن شعبه، قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو أخذ بحجرة سفيان بن أبي سهل وهو يقول: لا تسبل إزارك لفظ أحمد. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٢٣/٣).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند الكوفيين - حديث المغيرة بن شعبه رضي الله عنه، حديث رقم: ١٨١٥١ (٨٤/٣٠) وانظر: سنن ابن ماجه - كتاب - اللباس - باب موضع الإزار، أين هو، حديث رقم: ٣٥٧٤ (٣٢٧/٥) تعليق شعيب الأرئوط على المسند: إسناده ضعيف. قال الألباني: وهذا إسناده ضعيف؛ لسوء حفظ شريك - وهو ابن عبد الله القاضي - ثم وجدت للحديث شاهدين يتقوى بهما، وبالجملة " فالحديث حسن بمجموع طرقه.

(٣) انظر: سنن أبي داود - كتاب - اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار، حديث رقم: ٤٠٨٦ (٩٨/٤) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند البصريين - حديث جابر بن سليم رضي الله عنه، حديث رقم: ٢٠٦٣٢ (٢٣٤/٣٤) صححه الألباني. تعليق شعيب الأرئوط على المسند: حديث صحيح.

إرخاء ذيولهن ذراعاً والله أعلم. وأما القدر المستحب فيما يتزل إليه طرف القميص والإزار فنصف الساقين كما في حديث ابن عمر المذكور^(١) وفي حديث أبي سعيد: إزاره المؤمن إلى أنصاف ساقيه لاجناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما أسفل من ذلك فهو في النار. فالمستحب نصف الساقين، والجائز بلا كراهة ماتحته إلى الكعبين، فما نزل عن الكعبين فهو ممنوع، فإن كان للخيلاء فهو ممنوع منع تحريم وإلا فممنوع تنزيه، وأما الأحاديث المطلقة بأن ماتحت الكعبين في النار، فالمراد بها ما كان للخيلاء لأنه مطلق فوجب حملها على المقيد والله أعلم، قال القاضي قال العلماء وبالجمله يكره كل ما زاد على الحاجة والمعتاد في اللباس من الطول والسعة^(٢) ومن أحاديث الباب التي عليها الاعتماد في الحكم والتدليل في الإسبال ما يلي:

عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه أنه قال سألت أبا سعيد عن الإزار فقال أنا أخبرك بعلم سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إزاره المؤمن إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما أسفل من ذلك ففي النار ما أسفل من ذلك ففي النار لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً)^(٣).

وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار^(٤).

وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّ أَحَدَ شَقِيَّيْ ثَوْبِي يَسْتَرْحِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهِدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خِيَلَاءَ) قَالَ مُوسَى فَقُلْتُ لِسَالِمٍ أَذْكَرَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ جَرِّ إِزَارَةٍ قَالَ لَمْ أَسْمَعْهُ ذَكَرَ إِلَّا ثَوْبَهُ.^(٥)

(١) الكلام للنووي يرحمه الله . وقد أوردت بعد كلامه مباشرة الحديث والشواهد الأخرى.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج ١٤، ص: ٦٢ - ٦٣.

(٣) انظر: سنن ابن ماجه - كتاب اللباس - باب موضع الإزار أين هو، حديث رقم: ٣٥٧٣ (٣٢٦/٥) وانظر: موطأ مالك - كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، حديث رقم: ٣٣٩٠ (١٣٤١/٥). وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، حديث رقم: ١١٠٠٩ (٤٩/١٧) وصححه الألباني.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب اللباس - باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، حديث رقم: ٥٧٨٧ (١٤١/٧)

(٥) انظر: صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب أبي بكر، حديث رقم: ٣٦٦٥ (٦/٥)

المبحث الثاني

تأثير المحبة في العلاقات

إن المحبة هي إحدى الوسائل القوية في بناء العلاقات الشخصية بين ، والتآلفية بين البشر وغيرهم، ويهمننا هنا الوقوف على ما ورد في الكتاب والسنة من نصوص بلفظ الحب الصريح في مجالات الجذب أو التنفير، والموضحة لدور المحبة ومدى تأثيرها الإيجابي والسلبي في تكوين العلاقات بين الناس، ولأهمية ذلك في الدعوة إلى الله تعالى من خلال إقامة المحبة في العلاقات الدعوية. فإني أستفهم هنا بسؤالين؛ لكي أؤكد أصل الإجابة العلمية كمنطلق في هذا المبحث:

هل كل محبة في العلاقات تعد محمودة، وتبنى من خلالها الصلات الحميدة ؟

وهل كل محبة في العلاقات تعد مذمومة، وتبنى من خلالها الصلات الذميمة ؟

وقد أوضحنا الجواب العلمي عليهما بما ورد في الكتاب والسنة من حيث النفع والضرر في الفصل الأول من هذا الباب، عند بيان أنواع المحبة وأحكامها. وحقيقة المحبة صفة ترتبط بسمات فطرية ومكتسبة في تكوين الخلق الإنساني نستوضحه من هذا الحوار أو النقاش ، حوار بين الصابئة وأهل الملة الحنيفية (قالت الصابئة: نوع الإنسان ليس يخلو من قوتي الشهوة والغضب، وهما يترعان إلى البهيمية والسبعية، وينازعان النفس الإنسانية إلى طباعها فيثور من الشهوية: الحرص والأمل، ومن الغضبية: الكبر والحسد إلى غيرهما من الأخلاق الذميمة، فكيف يماثل من هذه صفته نوع الملائكة المطهرين عنهما وعن لوازمهما ولواحقهما: صافية أوضاعهم عن النوازع الحيوانية كلها، خالية طباعهم عن القواطع البشرية بأسرها، لم يحملهم الغضب على حب الجاه، ولا حملتهم الشهوة على حب المال، بل طباعهم مجبولة على المحبة والموافقة وجواهرهم مفطورة على الألفة والاتحاد ؟

أجاب الحنفاء: بأن هذه المغالطة مثل الأولى حذو النعل بالنعل فإن في طرف البشرية نفسين:

نفس حيوانية لها قوتان: قوة الغضب وقوة الشهوة.

ونفس إنسانية لها قوتان: قوة علمية وقوة عملية.

وبتينك القوتين لها أن تجمع وتمنع، وبهاتين القوتين لها أن تقسم الأمور وتفصل الأحوال، ثم تعرض الأقسام والأحوال على العقل فيختار العقل الذي هو كالبصر النافذ له من العقائد الحق دون الباطل، ومن الأقوال الصدق دون الكذب، ومن الأفعال الخير دون الشر.

ويختار بقوته العملية من لوازم القوة الغضبية: الشدة والشجاعة والحمية، دون الذلة والجبن والندالة.

ويختار بها أيضا من لوازم القوة الشهوية: التآلف والتودد والبداذة، دون الشره والمهانة والחסاسة.

فيكون من أشد الناس حمية على خصمه وعدوه، ومن أرحم الناس تذلا وتواضعا لوليه وصديقه، وإذا بلغ هذا الكمال فقد استخدم القوتين واستعملهما في جانب الخير، ثم يترقى منه إلى إرشاد الخلائق في تركية النفوس عن العلائق وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب، وإبلاغها إلى حد الكمال. ومن المعلوم أن كل نفس شريفة عالية زكية هذه حالها، لا تكون كنفس لا تنازعها قوة أخرى على خلاف طباعها، وحكم العين العاجز في امتناعه عن تنفيذ الشهوة، لا يكون كحكم المتصون الزاهد المتورع في إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه، فإن الأول: مضطر عاجز والثاني: مختار قادر حسن الاختيار جميل التصرف، وليس الكمال والشرف في فقدان القوتين وإنما الكمال كله في استخدام القوتين^(١) وهنا نركز النظر العلمي في المحبة، كونها وسيلة مؤثرة في العلاقات البشرية. ومرتبطة بالقوى المحكمة في شخصية الإنسان وتصرفاته وأخلاقه؛ وبما أن نتائج هذا التأثير قد أوضحت سلفا حيث كانت بين الحمد والذم شرعا وبين ما هو فطري ومكتسب طبعا وبين ما له حكم خاص في حاله ومآله. فإننا في هذا المبحث نعرض لتأثير المحبة في العلاقات من خلال نصوص الكتاب والسنة في مطلبين:

المطلب الأول: الصلات الحميدة.

المطلب الثاني: الصلات الذميمة.

(١) الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاي، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٤هـ، ج ٢،

المطلب الأول

الصلات الحميدة

(١) صلة التأخي في الله:

لقد نظم الإسلام علاقة المسلمين بعضهم ببعض، في خصوص الأمور وعمومها ومن أعظم ما جاء به من النظم العامة، مبدأ المؤاخاة القائم على أصل الدين الحق، فقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١) قال ابن عاشور في تفسيره: (وجملة {يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} حال من الذين تبوءوا، وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتخرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم. ومن آثار هذه المحبة ما ثبت في الصحيح من خبر سعد بن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف إذ عرض سعد عليه أن يقاسمه ماله وأن يتزل له عن إحدى زوجتيه، وقد أسكنوا المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخلهم، وحسبك الأخوة التي آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار)^(٢) فقد قامت العلاقات بين المسلمين على الإيمان وأصبحت حقوق الإسلام هي رابط الأخوة وميثاق العلاقة بينهم، قال الله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»^(٣) ومن أواصر التماسك في العلاقة بين المسلم وأخيه المسلم، هو ما أمر به الإسلام من الحث على التساوي في محبة الخير ودفع الشر، ومن الترغيب في بيان وإعلان الحب بينهما وعدم إخفائه، عن أنس بن مالك ؓ: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني أحب فلاناً فقال النبي ﷺ: فأخبرته؟ قال: لا، قال: فأخبره، قال: فلقية بعد، فقال: والله إني لأحبك في الله، فقال له: أحبك الذي أحببني له»^(٤). وعنه ؓ أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٥). فإن المحبة بين المسلمين هي الصلة التي يجب لزومها، حيث جاءت بأمر رباني، ووظفت

(١) سورة الحشر: ٩.

(٢) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٢٨، ص: ٨٢.

(٣) سورة الحجرات: ١٠.

(٤) انظر: سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه حديث رقم: ٥١٢٧ (٤/٩٥٥) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم: ١٢٤٣٠ (١٩/٤١٨) حسنة الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) انظر: صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم: ١٣ (١٢/١). وانظر صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم: ١٧٩ (٤٩/١).

في جمع تعدد الأجناس بين المسلمين، في إخاء متجانس قام على توظيف الفطرة والاختيار الحسن في مكاسبها الأخوية، قال ابن أبي الدنيا: (والمؤاخاة في الناس تكون على وجهين: أحدهما: أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار. والثانية: مكتسبة بالقصد والاختيار. فأما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالا، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها، والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد إليها، وما كان جارياً بالطبع، فهو ألزم مما هو حادث بالقصد) ومن أحسن ما يجل الإخاء في الله الإيثار، وله أوجه عديدة تقتضيها متطلبات الإنسان في ظروف الحياة، وهنا يشعر المسلم بقيمة الأخوة الإسلامية، ومن مواقف الرعيل الأول نستطلع أمثالا كثيرة في الإيثار ونأخذ منها الدروس والعبر، في المحبة وآثارها في علاقة المسلم بالمسلم، ومن هذه المواقف: ما كان في يوم الحديبية، عن سلمة رضي الله عنه قال: «جاءني عمي عامر فقال: أعطني سلاحك، قال: فأعطيته، قال: فجئت إلى النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أبغني سلاحك، قال: أين سلاحك؟ قال: قلت: أعطيته عمي عامراً، قال: ما أجد شهك إلا الذي قال: هب لي أخاً أحب إليّ من نفسي قال: فأعطيني قوسه ومجانه وثلاثة أسهم من كنانته»^(١).

وفي رواية أخرى قال: (اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي، وضحك)^(٢). وهكذا متى سقطت الدنيا في القلب وحلت مكان الدين أو زاحمته تتغير المعاملات بين المسلمين؛ فيتبدل الإيثار المقدم للغير بالاستئثار بالنفس ولها، ويكون المال حظ المرء بدلا من أخيه وتضعف العلاقة بين المسلم وأخيه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، يقول: (لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحقّ من أخيه المسلم، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن وللدينار والدرهم أحبُّ إلى أحدنا من أخيه المسلم)^(٣). يتحدث ابن عمر رضي الله عنهما عن زمانه، فكيف لو رأى أهل زماننا في حب المال وعدم الاكتراث في جمعه من حرام أو حلال؟ أو رأى حالهم في القطيعة والشقاق وسوء الأخلاق والفتن والافتتان؟ نسأل الله حسن الحال والمآل وأن يعيننا على أداء حقوق إخواننا المسلمين، عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «للمسلم على المسلم ستٌّ بالمعروف: يُسلم عليه إذا لقيه، ويُجيبه إذا دعاه، ويُشمتّه إذا عطسَ ويعودُه إذا مَرَضَ، ويتَّبِعَ جنازَتَه إذا ماتَ، ويُحبُّ له ما يُحبُّ لنفسه»^(٤).

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين، حديث رقم: ١٦٥٤٤ (٧٩/٢٧) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين، حديث رقم: ١٦٥١٨ (٤٥/٢٧) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حديث رقم: ٥٥٦٢ (٩/٣٩٥) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف. قال الألباني: أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١١١). قلت: ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ليث.

(٤) انظر: سنن الترمذي - كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في تسميت العاطس، حديث رقم: ٢٧٣٦ (٨٠/٥) وانظر: سنن ابن ماجه - كتاب الجنائز - باب ما جاء في عيادة المريض، حديث رقم: ١٤٣٣ (٥/٣) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، حديث رقم: ٦٧٣ (٩٥/٢) قال الألباني: ضعيف هو، صحيح دون زيادة وحسب وهي ثابتة في حديث آخر.

٢) صلة التآسي بالقدوة الصالحة:

إن مقياس الصلاح لدى الفرد المسلم، ينطلق من ثوابت العقيدة في نفسه، وأصلها الإيمان بالله تعالى، ولزوم السنة باتباع أثر النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم والصالحين، ويمثل ذلك الحب الصادق للنفس بنفاذها مسالك أهل التقى واقتفاء طريق أهل الصلاح. قال الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»^(١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ بَيْنَ الْمَنْبَرِ وَالْقَبْرِ فَجَاءَ عَلِيٌّ ﷺ حَتَّى قَامَ بَيْنَ يَدَيِ الصَّفُوفِ فَقَالَ: هُوَ هَذَا - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - ثُمَّ قَالَ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، مَا مِنْ خَلْقٍ اللَّهُ تَعَالَى أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ الْقَاهُ بِصَحِيفَتِهِ بَعْدَ صَحِيفَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ هَذَا الْمَسْجِي عَلَيْهِ ثَوْبُهُ»^(٢). وهكذا يكون الحب عندما يحرك المشاعر في الأسوة، يدفع بالشخص إلى مراقبة الله تعالى ومتابعة الصالحين، وتمني مساواتهم في الأعمال الصالحة، عاش عمر رضي الله عنه، جريئا في الحق ومات شهيدا، وعاش علي رضي الله عنه شجاعا في الحق ومات شهيدا. وكما للحب في قلب صاحبه حركات، فإنه أيضا، له في وجه صاحبه إشراقات، تتمتع بها العيون، وخير ما تتمتع به العيون في الدنيا رؤيا النبي ﷺ، عن عبد الجبار بن وائل بن حجر عن أبيه قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ لِي مِنْ وَجْهِهِ مَا لَا أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْ وَجْهِهِ، رَجُلٌ مِنْ بَادِيَةِ الْعَرَبِ صَلَّيْتُ خَلْفَهُ وَكَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ كَلَمًا كَبْرًا وَرَفَعَ، وَوَضَعَ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ وَيَسْلَمُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ»^(٣). وهذا أنس رضي الله عنه في حديثه عن مجلس النبي ﷺ يقدم لنا أنموذجا فريدا في جانب من جوانب التواضع النبوي، وصورة صادقة في الحب، عن أنس قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ شَخْصٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُ، فَمَا نَقُومُ لَهُ لَمَّا نَعْلَمُ مِنْ كَرَاهِيَّتِهِ لِدَلِّكَ»^(٤). وهو أيضا يقدم لنا قاعدة هامة في التآسي، أن من كمال الاقتداء اتباع الرغائب الشرعية والنفسية لمن يقتدي به محافظة على المحبة بين المقتدي والمقتدى به، أما أصل الاقتداء يجب أن يكون في الحق سواء كانت الصلة بين الولد ووالده أو التلميذ ومعلمه أو الصديق وصديقه. وتسعد النفوس المؤمنة بذكرى الصالحين، وتفرح برؤية ما يذكر بهم في الحال والمآل، وترغب أن تصل إلى ما وصلوا إليه من الخير، عَنْ ابْنِ عُمرَ أَنَّهُ رَأَى رُفْقَةً مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ رَحَالُهُمُ الْأَدَمُ فَقَالَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَشْبِهِ رُفْقَةٍ كَانُوا بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ^(٥).

٣) صلة الشهادات:

شهادة الحق هي الفاصل في معنى الحب والكراهة، كما هي الفاصل في معنى الحق والباطل. وشهادة الباطل هي قلب لمعان الحب والكراهية، فإن كنت محبا لك يجب أن أبين لك صفات الحق التي فيك وأكره لك الباطل وأبينه

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، حديث رقم: ٨٦٦ (٢/٢١٧). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حسن لغيره.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٨٨٦١ (٣١/١٥٢). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حسن لغيره.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم: ١٢٥٢٦ (٧/٢٠). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) انظر: سنن أبي داود - كتاب اللباس - باب في الفرش، حديث رقم: ٤١٤٦ (٤/١١٩). صححه الألباني.

لك، وإن كنت كارها لك، فقد أعطي عنك شهادة باطلة تصفك بما ليس فيك. وقد أصفك بما فيك فتقع عليك شهادة الحق. هذه الحقائق جعلت من الضرورة بمكان أن يدرك كل امرئ قيمة وجوده بين الناس حين يتعايش معهم، وأنهم في علاقة تعامل وتقدير تقوم عليها شهادات وصلات ومنافع كثيرة منها: الشهادات المالية، شهادات الوصاية، شهادات العبادات، شهادات الجنایات وغيرها، قال الله تعالى: (يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُكْرًا لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَ الدِّينِ وَالْآخِرِينَ)^(١) ولعل من أهم الشهادات ما قام على المحبة وتعلق به المصير عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ بجنابة على رسول الله ﷺ فقال: «أثنوا عليها» فقالوا: كان ما علمنا، يحب الله ورسوله وأثنوا عليه خيراً، فقال: «وَجَبَتْ» ثم مر عليه بجنابة أخرى، فقال: «أثنوا عليها» فقالوا: بئس المرء كان في دين الله فقال: «وَجَبَتْ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(٢). الشهادة بالحلب دليل على الصلة الحميدة بين الناس، وهامهم السلف في سيرهم يشهد بعضهم لبعض بما سمع فيهم من الحق عن مصعب بن سعد أن معاذاً قال: والله إن عمر في الجنة، وما أحب أن يجرى حر النعم، وأنكم تفرقتم قبل أن أخبركم أثنا عليها لم قلت ذلك، ثم حدثتهم الرؤيا^(٣) التي رأى النبي ﷺ في شأن عمر قال: ورؤيا النبي ﷺ حق^(٤). وتبقى محبة النبي ﷺ وشهادته أعلى المقامات في صلة الشهادات بين المسلمين، عن الحسن قال: «قال رجل لعمر بن العاص: أرايت رجلاً مات رسول الله ﷺ وهو يحبه أليس صالحاً؟ قال: بلى، قال: قد مات رسول الله ﷺ وهو يحبك وقد استعملك، فقال: قد استعملني فوالله ما أدري أحباً كان لي منه أو استعانة بي، ولكن سأحدثك برجلين مات رسول الله ﷺ وهو يحبهما عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر»^(٥). فحري بالمسلم أن يسعى لكسب محبة الله ورسوله ﷺ والناس، فإن الخيرية عندما تسمو بها شخصية المرء بين الناس، يحبونه، وعندما تسقط شخصيته بينهم لشر يبدو منه، يكرهونه. فإن شهادتهم في كلا الحالين لها اعتبار الشاهد الناظر لذا كان لزاماً على المسلم أن يتصف بالخيرية، ويسعى لكسب محبة الناس والداعية إلى الله في هذا الباب أولى من غيره.

٤) صلة الأرحام والأقارب:

إن من أعظم ما أمر الله به أن يوصل ذوي القربى، من ذوي الأرحام، والرحم بما تعظم المسألة قال الله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)^(٦) وقد حذر الله من قطعها، وجعل ذلك من محال اللعنة في

(١) سورة النساء: ١٥٣.

(٢) أصله في الصحيحين، وهذه رواية الإمام أحمد في مسند، حديث رقم: ١٣٠٦٢ (١٩٧/٣) انظر: صحيح البخاري-كتاب الجنائز-باب ثناء الناس على الميت، حديث رقم: ١٣٦٧ (٩٧/٢) وانظر: صحيح مسلم-كتاب الجنائز-باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، حديث رقم: ٢٢٤٣ (٥٣/٣).

(٣) روي البخاري في الجامع الصحيح: باب مناقب عمر رضي الله عنه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: بئنا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال: بئنا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مذبذباً، فبكي وقال: أَعْلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد-مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٢٠٣٤ (٣٦٣/٣٦). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: صحيح لغيره.

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الشاميين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٧٨٠٨ (٣٤٢/٢٩). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أنه منقطع فالحسن وهو البصري لم يسمع من عمرو بن العاص.

(٦) سورة النساء: ١.

القرآن الكريم، وجعل النبي ﷺ القطيعة لها من مُحَرَّمَات دخول الجنة، قال الله تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ) ^(١) وعن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ ». قَالَ: ابْنُ أَبِي عُمَرَ قَالَ سَفِيَانُ: يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ ^(٢). وهذه الصلة - صلة الرحم - من الصلوات الحميدة التي تقوى بها المحبة بين ذوي الأرحام، وتدفع المحبة لها لما فيها من الخير والأثر العجيب الذي لم يكن في غيرها من الصلوات حيث أن من ثمارها طول العمر على حسن عمل وبركة في الرزق على حال سعة وهذا محبوب للناس والكل يحرص عليه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَأَنْ يُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَسِرْ وَالِدَيْهِ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ^(٣).

٥) صلة النصرة للدين بالنفس والولد وصلة المعونة في قضاء الدين:

إن محبة النفس والولد تقود الإنسان لأن يقدم بها أشرف المنازل، وأعلى المقامات، ويمثل الجهاد ذروة سنام الإسلام، ولقد ضرب لنا النبي ﷺ والصحاب الكرام رضي الله عنهم أروع الأمثلة في التضحية، وهذا هو عبد الله بن حرام والد جابر رضي الله عنهما يقدم لنا مثلاً أعلى في صلة النصرة لدين الله بينه وبين ولده، فمن أحداث غزوة أحد، عن جابر بن عبد الله، قال: (خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين ليقاتلهم وقال أبي عبد الله: يا جابر لا عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أنني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي. قال: فبينما أنا في النظارين إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهم على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى، فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت، فرجعنا بهما فدفنهما حيث قتلا، فبينما أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال: يا جابر بن عبد الله، والله لقد أثار أباك عمل معاوية، فبدأ فخرج طائفة منه، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفتته، لم يتغير إلا ما لم يدع القتل أو القتل فواريته ^(٤). فمن الصلوات الحميدة بين أفراد الأسرة التعاون على القيام بأعباء الحياة من رعاية النساء والولدان والقيام بشؤون اليتامى، ومن الصلوات الاجتماعية الحميدة، أيضاً، التعاون على قضاء الدين وإكرام الضيف بما يجب وبما يحب، ونستلهم هذا الدرس من حديث جابر رضي الله عنه (قال: وترك أبي عليه ديناً من التمر فاشتد علي بعض غرمائه في التقاضي، فأتيته نبي الله ﷺ فقلت: يا نبي الله إن أبي أصيب يوم كذا وكذا وترك علي ديناً من التمر واشتد علي بعض غرمائه في التقاضي فأحب أن تعينني عليه، لعله أن

(١) سورة محمد: ٢٣ - ٢٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب إثم القاطع، حديث رقم: ٥٩٨٤ (٥/٨) وانظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حديث رقم: ٦٦٨٤ (٧/٨).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم: ١٣٤٠١ (٩٣/٢١) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، حديث رقم: ١٥٢٨١ (٤١٩/٢٣). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير نبيح العزري فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة.

ينظرني طائفة من تمره إلى هذا الصرام المقبل فقال: «نَعَمْ آتَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَرِيباً مِنْ وَسْطِ النَّهَارِ» وجاء معه حواريه^(١)، ثم استأذن ودخل فقلت لامرأتي إِنْ النَبِيِّ ﷺ جَاءَنِي الْيَوْمَ وَسْطَ النَّهَارِ، فَلَا أُرِيْتُكَ، وَلَا تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي بِشَيْءٍ، وَلَا تَكَلِّمِيهِ، فَدَخَلَ، فَفَرَشْتُ لَهُ فِرَاشاً وَوَسَادَةً فَوَضَعَ رَأْسَهُ، فَنَامَ قَالَ: وَقُلْتُ لِمَوْلَى لِي أَذْبَحَ هَذِهِ الْعِنَاقَ وَهِيَ دَاجِنٌ سَمِينَةٌ وَالْوَحَا^(٢) وَالْعَجَلُ أَفْرَغَ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَكَ فَلَمْ نَزَلْ فِيهَا حَتَّى فَرَعْنَا مِنْهَا، وَهُوَ نَائِمٌ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَيْقِظَ يَدْعُو بِالطَّهْوَرِ، وَإِنِّي أَخَافُ إِذَا فَرَغَ أَنْ يَقُومَ، فَلَا يَفْرُغُنِي مِنْ وَضُوئِهِ حَتَّى تَضَعَ الْعِنَاقَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ: «يَا جَابِرُ اتَّبِعْنِي بِطَهْوَرٍ» فَلَمْ يَفْرُغْ مِنْ طَهْوَرِهِ حَتَّى وَضَعْتُ الْعِنَاقَ عِنْدَهُ فَظَنَرْتُ إِلَيَّ فَقَالَ: «كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ حُبَّنَا لِلْحَمِّ، اذْغُ لِي أَبَا بَكْرٍ» قَالَ: ثُمَّ دَعَا حَوَارِيَهُ الَّذِينَ مَعَهُ فَدَخَلُوا فَضْرَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ كُلُّوْا» فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضَلَ لَحْمٌ مِنْهَا كَثِيرٌ قَالَ: وَاللَّهِ إِنْ مَجْلِسَ بَنِي سَلَمَةَ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، مَا يَقْرِبُهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَخَافَةَ أَنْ يُوْذَوْهُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَامَ وَقَامَ أَصْحَابُهُ فَخَرَجُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «خَلُّوْا ظَهْرِي لِلْمَلَايِكَةِ» وَاتَّبَعْتُهُمْ حَتَّى بَلَغُوا أَسْكَفَةَ الْبَابِ قَالَ: وَأَخْرَجْتَ امْرَأَتِي صَدْرَهَا وَكَانَتْ مُسْتَتِرَةً بِسَقِيفٍ فِي الْبَيْتِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ فَقَالَ: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى زَوْجِكَ» ثُمَّ قَالَ: «اِذْغُ لِي فُلَاناً» لَغَرِيْمِي الَّذِي اشْتَدَّ عَلَيَّ فِي الطَّلَبِ. قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ: «أَيُّسَرُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَعْزِي إِلَى الْمَيْسَرَةِ طَائِفَةً مِنْ ذَيْنِكَ الَّذِي عَلَى أَبِيهِ إِلَى هَذَا الصَّرَامِ الْمُقْبِلِ» قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ وَاعْتَلَّ وَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ مَا لِي يَتَامَى» فَقَالَ: «أَيُّنَ جَابِرُ» فَقَالَ: أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «كُلْ لَهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يُوفِيهِ» فنظرت إلى السماء فإذا الشمس قد دلت، قال: «الصَّلَاةُ يَا أَبَا بَكْرٍ» فاندفعوا إلى المسجد، فقلت: قرب أوعيتك فكلت له من العجوة فوفاه الله عز وجل وفضل لنا من التمر كذا وكذا، فجئت أسعى إلى رسول الله ﷺ في مسجده كأني شرارة، فوجدت رسول الله ﷺ قد صلى، فقلت: يا رسول الله ألم ترأني كلت لغريمي تمره فوفاه الله، وفضل لنا من التمر كذا وكذا، فقال: «أَيُّنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» فجاء يهرول فقال: «سَلِّ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ غَرِيْمِهِ وَكَمَرِهِ» فقال: مَا أَنَا بِسَائِلِهِ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يُوفِيهِ، إِذْ أَخْبَرْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يُوفِيهِ فَكُرِّرْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: مَا أَنَا بِسَائِلِهِ وَكَانَ لَا يَرَاجِعُ بَعْدَ الْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: يَا جَابِرُ مَا فَعَلَ غَرِيْمُكَ وَتَمَرُّكَ؟ قَالَ: قُلْتُ وَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَفَضَلَ لَنَا مِنَ التَّمْرِ كَذَا وَكَذَا فَرَجَعَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَلَمْ أَكُنْ نَهَيْتُكَ

(١) الحوارية من (حور) الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً، انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١١٥/٢) وقال الزجاج الحواريون خُلصَانُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَصَفُوهُمْ قَالَ وَالِدِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ الرَّبُّ بْنُ ابْنِ عَمِّي وَحَوَارِيٍّ مِنْ أُمَّتِي أَيَّ خَاصَتِي مِنْ أَصْحَابِي وَنَاصِرِي قَالَ وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ حَوَارِيُونَ وَتَأْوِيلُ الْحَوَارِيِّينَ فِي اللُّغَةِ الَّذِينَ أُخْلِصُوا وَتُقُوا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَكَذَلِكَ الْحَوَارِيُّ مِنَ الدَّقِيقِ سَمِيَ بِهِ لِأَنَّهُ يُتَّقَى مِنْ لُبَابِ الْبُرِّ انظر: لسان العرب لابن منظور (٢١٧/٤).

(٢) الْوَحْيُ: السَّرِيعُ: وَالْوَحْيُ: الصَّوْتُ. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٩٣/٦) وَالْوَحْيُ عَلَى فَعِيلِ السَّرِيعِ، يَقَالُ مَسَوْتُ وَحْيً وَفِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الْوَحَا الْوَحَا أَيُّ السَّرْعَةِ السَّرْعَةُ يَمْدُ وَيَقْصُرُ، يَقَالُ تَوَحَّيْتُ تَوْحَاً إِذَا أَسْرَعْتُ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْإِغْرَاءِ بِفَعْلٍ مَضْمَرٍ وَاسْتَوْحَيْنَاهُمْ أَيُّ اسْتَصْرَخْنَاهُمْ، وَاسْتَوْحَ لَنَا بَنِي فُلَانٍ مَا خَبَرَهُمْ أَيُّ اسْتَخْبَرَهُمْ، وَقَدْ وَحَى وَتَوَحَّى بِالشَّيْءِ أَسْرَعَ، وَشَيْءٌ وَحْيٌ عَجَلٌ مُسْرِعٌ. انظر: لسان العرب لابن منظور (٣٧٩/١٥).

أن تكلمي رسول الله ﷺ قالت: أكنت تظن أن الله عز وجل يورد رسول الله ﷺ بيتي ثم يخرج ولا أسأله الصلاة عليّ وعلى زوجي قبل أن يخرج^(١).

٦) صلة البيعة والنصرة على الحق:

إن البيعة من الأصول الاجتماعية في بناء المجتمع المسلم ومن الأهمية بمكان في تماسكه وحياته، وعليها يعقد الأمر في جميع شؤون المسلمين ولها ضوابط شرعية وأحكام تختلف باختلاف الأحوال، وهنا نعرض البيان بأهمية البيعة، كونها من الصلوات الحميدة الثابتة في الكتاب والسنة، فإن البيعة الكبرى هي ما تكون للإمام الأعظم من أهل الحل والعقد والرعية، وهي محل القصد، وقد ثبتت بواقع الحال في عهد النبي ﷺ وللخلفاء الراشدين من بعده وأمر الله تعالى بطاعة ولي الأمر، قال الله تعالى: (يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ)^(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ ؓ قَالَ: (بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا تُنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلُهُ، وَأَنْ نَقُومَ، أَوْ نَقُولَ - بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً)^(٣). والبيعة تعنى الاتفاق العام والوحدة وهما من مقومات التماسك الاجتماعي، وقد حدثت بيعات خاصة هامة في السيرة النبوية، فيها دروس عظيمة للأمة، وتنطلق من الصلوات الحميدة بين المسلمين، منها بيعتنا العقبة وبيعة الرضوان، قال الله تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)^(٤) وبيعة الرضوان من البيعات المشهورة في السيرة النبوية، والمشهودة من النبي ﷺ حيث عقدت بين النبي ﷺ والمؤمنين الذين معه، في السنة السادسة من الهجرة حين مضيهما للعمرة فمنعتهم قريش وقد بلغ الأمر إلى حد استلزم المناجزة فتمت البيعة على ذلك وانتهى الأمر إلى الصلح بين المؤمنين والمشركين، قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية) ومن البيعات المشهورة في السيرة النبويةبيعة العقبة الثانية، وفيها كثير من الدروس المتعلقة بالدعوة والصلوات الحميدة، وسوف أعرضها هنا حسب رواية كعب بن مالك ؓ لها في جزأين تتضح منها الدروس المستفادة في صلة النصرة، وفق ما يلي :

أ) نصرة العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم لابن أخيه محبة له، ولما يعلم من حال دعوته وقد أسلم متأخراً يوم الفتح. وشاهدها من الرواية: (وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، حديث رقم: ١٥٢٨١ (٤١٩/٢٣) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير نبيح العتري فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب كيف يبايع الإمام الناس، حديث رقم: ٧١٩٩ (٩/٧٧).

(٤) سورة الفتح: ١٨.

ابن أخيه ويتوثق له). عن عبيد الله بن كعب^(١) وكان من أعلم الأنصار حدثه أن أباه كعب بن مالك وكان كعب ممن شهد العقبة بايع رسول الله ﷺ بها، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور كبيرنا وسيدنا، فلما توجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا: يا هؤلاء إني قد رأيت والله رأياً وإني والله ما أدري توافقوني عليه أم لا؟ قال: قلنا له: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر - يعني الكعبة - وأن أصلي إليها، قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه، فقال: إني أصلي إليها، قال: فقلنا له: لكننا لا نفعل، فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة قال أخي: وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبي إلا الإقامة عليه، فلما قدمنا مكة، قال: يا ابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ فأسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله قد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه، قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفانه؟ قال: قلنا: لا قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم، قال: وكنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ معه جالس، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟» قال: نعم هذا البراء بن معرور سيد قومهم، وهذا كعب بن مالك، قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشَّاعِرُ» قال: نعم، قال: فقال البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا، وهداني الله للإسلام فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، صليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «لَقَدْ كُنْتُ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتُ عَلَيْهَا» قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ فصلى معنا إلى الشام قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا. نحن أعلم به منهم، قال: وخرجنا إلى الحج، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي وعدنا رسول الله ﷺ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً، ثم دعوته إلى الإسلام وأخبرته بجميعاد رسول الله ﷺ

(١) عُيِدَ اللَّهُ بْنُ كَعْبٍ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ السَّلَمِيِّ، أَبُو فَضَالَةَ الْمَدِينِيِّ، أَخُو عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَمُحَمَّدٌ وَمُعَيْدُ بَنِي كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ. رَوَى عَنْ: ابْنِ أَخِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ شَهَابِ الزُّهْرِيِّ، وَأَخُوهُ مُعَيْدُ بْنُ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ. قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: ثِقَةٌ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: كَانَ ثِقَةً. قَلِيلُ الْحَدِيثِ. وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي كِتَابِ "الثِّقَاتِ"، وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ حِينَ أَصِيبَ بِصُرِهِ. وَكَانَ أَعْلَمَ قَوْمَهُ وَأَوْعَاهُمْ لِأَحَادِيثِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. رَوَى لَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤٥/١٩).

وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً، قال: فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائهم، نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت إحدى نساء بني سلمة هي أم منيع، قال: فاجتمعنا بالشعب نتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له.

ب) بيعة الأنصار للنبي ﷺ على النصر والمنعة في بداية أمر الرسالة والدعوة، قبل الهجرة، وتمت في ليلة من ليالي الحج، فقد انطلقت من محبة المبايعين للحق، وأعطتهم الجرأة في الحق، وشاهدها من الرواية قولهم للنبي ﷺ (فخذ لنفسك ولربك ما أحببت).

قال الراوي: (فلما جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول متكلم، فقال: يا معشر الخزرج قال: وكانت العرب مما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج أوسها وخزرجها: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه وهو في عز من قومه ومنعة في بلده قال: فقلنا: قد سمعنا ما قلت: فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام قال: «أَبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ» قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرننا، فبايعنا رسول الله ﷺ فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإنا قاطعوها يعني العهود فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بَلِ الدِّمِ الدِّم، وَالهْدَمِ الهْدَم، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأَسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ» وقد قال رسول الله ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس وأما معبد بن كعب فحدثني في حديثه عن أخيه عن أبيه كعب بن مالك قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم تتابع القوم فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط: يا أهل الجباب، والجباب: المنازل هل لكم في مذمم والصباة معه قد أجمعوا على حريكم؟ قال علي يعني ابن إسحاق^(١) ما يقول عدو الله محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَذْبُ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَذْيَبٍ، اسْمِعْ أَيَّ عَدُوِّ اللَّهِ أَمَا وَاللَّهِ لَا أَفْرَعَنَّ لَكَ» ثم

(١) المحدث، أبو الحسن علي بن إسحاق بن عيسى بن زاطيا المخرمي البغدادي. سَمِعَ: مُحَمَّدُ بْنُ بَكَّارِ بْنِ الرَّيَّانِ، وَدَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَجَمَاعَةٌ. وَعَنْهُ: أَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِيُّ، وَأَبُو حَفْصٍ بْنُ الرَّيَّانِ، وَأَبْنُ بُوَيْحٍ الدَّقَاقُ، وَعَلِيُّ بْنُ عُمَرَ الْحَرَبِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ السَّيِّتِيِّ وَقَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ. قُلْتُ: كُفَّ بَصَرُهُ بِآخِرَةِ تَوَفِّي: فِي جُمَادَى الْأُولَى، سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثٍ مِائَةٍ. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٧/٢٧٩)

قال رسول الله ﷺ: «ارْفَعُوا إِلَى رِجَالِكُمْ» قال: فقال له العباس بن عباد بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فإنا قال: فقال رسول الله ﷺ: «لَمْ أُوْمَرْ بِذَلِكَ» قال: فرجعنا فمنا حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، والله إنه ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم، قال: فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، وقد صدقوا لم يعلموا ما كان منا قال: فبعضنا ينظر إلى بعض، قال: وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت كلمة: كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: ما تستطيع يا أبا جابر وأنت سيد من سادتنا أن تتخذ نعلين مثل نعلي هذا الفتى من قريش. فسمعها الحارث فخلعها ثم رمى بهما إلي فقال: والله لتنتعلنهما قال: يقول أبو جابر: أحفظت والله الفتى فاردد عليه نعليه قال: فقلت: والله لا أردهما قال: والله صلح والله لئن صدق الفال لأسلبينه فهذا حديث كعب بن مالك من العقبة وما حضر منها.^(١)

٧) الصلة العلمية:

إن طلب العلم أس النجاح في الحياة، ومن لم يكن على علم بما يجب أن يعمل، يصل إلى الفشل، ومن تعلم علما من غير مصدره الموثوق، لبث في جهل مركب منكوس يضر نفسه ويضر غيره، لذا حرص الأنبياء وأهل الصلاح على طلب العلم من منابعه الصافية، وضرب الله لنا أمثلة عديدة في كتابه الكريم معظمها شأن العلم وأهله الذين وصفهم بالخشية، قال الله تعالى: (الْمَرْتَرَأَنَ اللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَّائِي وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ^(٢). ومن سير الأنبياء في طلب العلم - الرحلة العلمية العجيبة - رحلة موسى عليه السلام في مقصده للخضر وتكوين الصلة العلمية بينهما، وجاء ذكرها بالبيان المفصل في سورة الكهف والسنة النبوية ولا تنقطع الدروس الدعوية والعلمية منها، فمن حديث أبي بن كعب ؓ عند البخاري: (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا)^(٣). فإن صلة العالم والمتعلم ذات شروط وضوابط وآداب، من أصولها محبة العلم والاحترام المتبادل، وفي الإسلام تكون المحبة شرطاً في تكوين العلاقة بينهما ومتعدية لمحبة الأخوة، لوجود الفاضل والمفضول، وتنطلق منها بقية الآداب في حسن الطلب المتعلق بالطالب وحسن الأداء المتعلق

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند مكين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٥٨٣٦ (٣/٤٦٠). تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: حديث قوي وهذا إسناد حسن.

(٢) سورة فاطر: ٢٧ - ٢٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب العلم - باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكمل العلم إلى الله، حديث رقم: ١٢٢ (١/٣٥).

بالعلم. وحسن المعاشرة وسلامة المنهج في المناقشة والمحاورة والمجادلة وأدب الخلاف في حق طلاب العلم والعلماء، عن هشام عن محمد قال: «دخلت مسجد الجامع فإذا عمرو بن وهب الثقفي^(١) قد دخل من الناحية الأخرى فالتقينا قريباً من وسط المسجد، فابتدأني بالحديث وكان يحب ما ساق إليّ من خير، فابتدأني بالحديث فقال: كنا عند المغيرة بن شعبة — فزاده في نفسي تصديقاً الذي قرب به الحديث — قال: قلنا: هل أمّ النبي ﷺ رجل من هذه الأمة غير أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه؟ قال: نعم، كنا في سفر كذا وكذا فلما كان في السحر ضرب رسول الله ﷺ عنق راحلته وانطلق، فتبعته فتغيب عني ساعة ثم جاء، فقال: حاجتك؟ فقلت: ليست لي حاجة يا رسول الله، قال: هل من ماء؟ قلت: نعم، فصببت عليه فغسل يديه ثم غسل وجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه وكانت عليه جبة له شامية فضاقت فأدخل يديه فأخرجهما من تحت الجبة، فغسل وجهه وغسل ذراعيه ومسح بناصيته ومسح على العمامة وعلى الخفين ثم لحقنا الناس وقد أقيمت الصلاة و عبد الرحمن بن عوف يؤمهم وقد صلى ركعة فذهبت لأودنه فنهاني فصلينا التي أدركنا وقضينا التي سبقنا بها»^(٢).

ومن أهم ما يمكن التمسك به لإنقاذ الأمة من غياهب الجهل وغيابهم الفتن محبة العلماء الثقات الراسخين في العلم، عن وبرة، قال: (سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَقَدْ أَحْرَمْتُ بِالْحَجِّ؟ فَقَالَ: وَمَا يَمْنَعُكَ؟ قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ ابْنَ فَلَانَ يَكْرَهُهُ وَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُ. رَأَيْنَاهُ قَدْ افْتَسَنَتُهُ الدُّنْيَا. فَقَالَ: وَأَيْنَا (أَوْ أَيُّكُمْ) لَمْ تَفْتَسَنَهُ الدُّنْيَا؟ ثُمَّ قَالَ: رَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ. وَطَافَ بِالْبَيْتِ. وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ. فَسُنَّةُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبَعَ، مِنْ سُنَّةِ فَلَانَ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا)^(٣).

وإن من دواعي المحبة وتأثيرها في العلاقات بين الناس ومما يقوي الصلات الحميدة بينهم سؤال أهل العلم — أهل الذكر — الذين أخلصوا دينهم لله، بل من بركة الله في علمهم أن تتقبلهم الأمة الصالحة بالقبول ولم يكونوا من علماء الدنيا والمنصب والمال، قال الله تعالى: (فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)^(٤) وأطيب ما يسوق المرء المسلم لأخيه ويديه له ويبتدره به، علم ينتفع به، فإن حديث العلم يذهب غشاوة الجهل ويجلو القلوب صفاء ووداً، خلاف غيره من الأحاديث العامة التي إن نجت مجالسها وسلمت من الغيبة والنميمة والكذب، لم تسلم من ضياع الوقت في غير حقه، بما يكسب الأبدان ثقلاً، والقلوب ظلمة، وكان ديدن الصالحين تتبع العلماء الراسخين

(١) عمرو بن وهب الثقفي بصري، تابعي ثقة، روى عن المغيرة بن شعبة، وروى عنه محمد بن سيرين، انظر: الثقات لابن حبان (١٦٩/٥) ومعرفة الثقات للعجلي (١٨٧/٢).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد — أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٨١٦٤ (١٠١/٣٠) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح.

(٣) انظر: صحيح مسلم — كتاب الحج — باب ما يلزم من أحرم بالحج ثم قدم مكة من الطواف والسعي، حديث رقم: ٣٠٥٧ (٤/٥٣).

(٤) سورة النحل: ٤٣ — ٤٤.

في العلم، وكان طريق الأنبياء توجيه الأتباع إلى أخذ العلم من عالمه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب ويقول: مهلاً يا قوم بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم يتزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»^(١). وتوثيق الأخبار بالكتابة والحفظ ومعرفة الرجال العدول من غيرهم، مع دراسة متون النقل وموافقتها لنصوص الشرع إن له الارتباط المتين بالصلة العلمية بين المنقول عنه وبين الناقل والمنقول، وإن السماع المباشر أوثق علماً لما ينقل، عن عطية العوفي قال: «سألت زيد بن أرقم، فقلت له: إن ختنا لي حدثني عنك بحديث في شأن علي رضي الله تعالى عنه يوم غدير خم، فأنا أحب أن أسمع منك؟ فقال: إنكم معشر أهل العراق فيكم ما فيكم، فقلت له: ليس عليك مني بأس، فقال: نعم، كنا بالجحفة فخرج رسول الله ﷺ إلينا ظهراً وهو آخذ بعضد علي رضي الله تعالى عنه فقال: يا أيها الناس أستم تعلمون أي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه. قال: فقلت له: هل قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، قال: إنما أخبرك كما سمعت»^(٢).

وهنا في هذا الأثر يتبين لنا العظمة في المحبة، ودورها في تقبل العلم ممن أحببته، على ثقة بعلمه وتقوى في دينه، وعليه فإن أعظم ما يأخذ المرء من الدين، ما يأخذه من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؛ وبذا يلزم السنة ويوفق إلى طريق الجنة وهو مسلك السلف الصالح في تأصيل علمهم يأخذ بعضهم من بعض على محبة وتقوى، عن ابن عباس، قال: سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ: مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَكَانَ مِنْ أَحَبِّهِمْ إِلَيَّ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَعَنِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ»^(٣).

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حديث رقم: ٦٧٠٢ (٣٠٤/١١) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٩٢٧٩ (٢٩/٣٢) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: صحيح بطرقه وشواهده.

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس، حديث رقم: ٥٨٤ (١٢٠/١). وانظر: صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، حديث رقم: ١٩٥٧ (٢٠٦/٢).

٨) صلة الصداقة:

الصداقة مشتقة من (صدق) والصاد والذال والقاف كما أورد ابن فارس في معجمه^(١) (تدل على القوة في الشيء، والصدق ضد الكذب والكذب لا قوة له فهو باطل). والصداقة بين الناس مشتقة من الصدق في المودة. ويدل عليها ملازمة الصديق لصديقه، ومن أروع حقائق الصداقة والصديقية ما كان من صداقة أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ، وتصديقه به، فهو أول من آمن به من الرجال، يصدقه إذا كذبه الناس، كما في قصة الإسراء والمعراج، يقدم ماله كله لله ولرسوله ﷺ، ويزوجه ابنته، ويهاجر معه في رحلة يحفها الخطر من كل جانب، ويضحى بنفسه يمشي أمامه إذا تذكر الرصد، ويمشي خلفه إذا تذكر الطلب، يعيش وفيًا له في كل حياته وبعد مماته، وماذا يتمنى عند موته رضي الله عنه، جاء الخبر عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين، قال: فإن متُّ من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد فإن أحب الأيام والليالي إليَّ أقربها من رسول الله ﷺ»^(٢).

إن الصداقة من الصلات الحميدة، فما كان منها قائم على الهدى والحق، والإخلاص والتعاون على البر والتقوى، كان لله وفي الله، وله حسن العاقبة. وما كان منها قائم على الضلال والباطل والنفاق، والتعاون على الإثم والعدوان، فإنها تقوم على الهوى، وتورد الردى، وتجعل العاقبة في حسرة وندم، قال الله تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣٠﴾. ولا شك أن مواقف الحياة لا تصفو من كدر، ولا تسلم من خلاف، ولكن معدن الصداقة الأصيل يمثله الحب الصادق، فمهما اعتراه من مضارب الخلاف، يبقى على أصله ويصير الشقاق إلى وفاق. عن خالد بن الوليد، قال: كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظت له في القول، فانطلق عمار يشكو خالدًا إلى رسول الله ﷺ فجاء خالد وعمار يشكوان، فجعل يُغلظ له، ولا يزيده إلا غلظ، والنبي ساكت فبكى عمار. فقال: يا رسول الله ألا تراه، قال: فرفع النبي رأسه، قال: «من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله»، قال خالد: فخرجت فما كان شيء أحب إليَّ من رضي عمار، فلقيته فرضي.^(٤)

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق: دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ج ٣. ص: ٣٣٩.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم: ٤٥ (١ / ٢١٨) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده ضعيف.

(٣) سورة الفرقان: ٢٧ - ٢٩.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الشاميين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٦٨١٤ (٢٨ / ١٢) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حديث صحيح. قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

٩) صلة النصرة والمحبة:

إن الإسلام لم يعمل على تغييب القوميات، والجنسيات، أو القبائل والعشائر، أو الأوطان، من حيث وجودها، ومن حيث انتساب الإنسان لها، وكم من آي في القرآن الكريم تنسب الأنبياء إلى أقوامهم وتحدد أوطانهم، وما أكثر الأدلة الشرعية الدالة على ذلك، ولم يمنع الإسلام المرء من أن يقول عن نفسه، بأنه عربي أو فارسي أو رومي، أو يماني أو شامي أو مصري، أو حبشي أو قرشي أو خزرجي، أو من قبيلة كذا وكذا... كما لم يمنعه من التعبير عن الحب والحنين لما ألفه من أوطان وديار.. فهذا وارد، والشارع أقره ولم يلغه، ولكن عمل على تصويب المقاصد والنيات ونبد العصبية وتهديب العلاقات وتصحيح المفاهيم، وتقوية الصلات الحميدة، وعمل على التعايش بين أهل الملل والنحل ومختلف الأجناس والألوان في وطن واحد، تتبادل بينهم المنافع وتتحقق لهم المصالح، فإن الانتساب أمر من الأمور المعلومة في الدين بالضرورة ولا يجادل فيها. ولكن الذي منع منه الإسلام وعمل على إلغائه هو تلك العصبية الجاهلية لتلك القوميات والجنسيات، وتلك الأوطان والقبائل وغيرها من الانتماءات التي تغيب معها عقيدة الولاء والبراء في الله أو التي تسبب الفتن وتمزق الوطن الواحد وتذكي نار الحرب أو تشيع الفوضى والفرقة والشتات تحت الشعارات الوهمية والتعددية الطائفية والعصبية القبلية وغيرها، عن عباد بن كثير الشامي^(١) من أهل فلسطين عن امرأة منهم يقال لها فسيلة^(٢) أنها قالت: سمعت أبي يقول: «سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم»^(٣). فمن حق النصرة الشرعي لمن تحب له الخير أن تعينه بكف الظلم عنه، وكفه عن ظلم الآخرين، وإن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد النداء فيها عاما لبني آدم والناس عامة وأهل الإيمان منهم خاصة بقوله تعالى: (يَتَّخِذُهَا النَّاسُ) و (يَتَّبِعُ آدَمَ) و (يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) و (يَتَّخِذُهَا الْإِنْسَانُ) ففي أهم مقومات الحياة وهو اتباع الحق، وتبصير الإنسان بسبل العيش السعيد والبداية والمصير، يدعو الرب سبحانه وتعالى الناس كافة؛ لتحقيق العبادة له سبحانه وحده لا شريك له، فلم تكن الدعوة والنداء هنا لقبيلة أو عصبية أو لون أو جنس، أو في زمن دون آخر، أو مكان دون مكان؛ ولكن الحق هو الغاية، والتعاون عليه هو سبيل

(١) عباد بن كثير الرملي، الفلسطيني، الشامي، يروي عن: عروة بن روم، وحوشب. وعنه: زيد بن أبي الزرقاء، ويحيى بن يحيى، ويحيى بن معين. ووقعه هو وابن المديني. وقال البخاري: فيه نظر. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠٧/٧).

(٢) هي فسيلة بنت وائلة بن الأسقع الليثي، وقيل اسمها جميلة روت عن أبيها، جزم بن عساكر ومن تبعه بأن فسيلة هي بنت وائلة المبهمة في هذه الرواية. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٢١/٧) والدها وائلة من الصحابة رضي الله عنهم، قال ابن سعد: كان من أهل الصفة فلما قبض رسول الله ﷺ خرج إلى الشام، وقال أبو حاتم: نزل الشام وكان يشهد المغازي بدمشق وحص. مات بدمشق في سنة ثلاث وثمانين. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٥٩١/٦)

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الشاميين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٦٩٨٩ (١٩٦/٢٨) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حديث حسن.

المداية. وإن المتتبع لمواقف السنة النبوية القولية والعملية والتقريبية؛ يجدها تدعو إلى نفس الهدف والغاية، بميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ)^(١). وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم العنصرية المميزة بين البشر، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة هي (التقوى)، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان. ومن التقوي محبة النبي ﷺ والحذر من إيذائه في نفسه، وأهله ودينه بأي وجه من الوجوه، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ^(٢) أَنَّ الْمَسُورَ بْنَ مَخْرَمَةَ^(٣)، حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ، عَلِيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. فَلَا آذَنُ لَهُمْ. ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ. ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ. إِلَّا أَنْ يُحِبَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلَّقَ ابْنَتِي وَيُنْكِحَ ابْنَتَهُمْ. فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي. يَرِيئُنِي مَا رَأَيْتُهَا وَيُؤْذِنُنِي مَا آذَاهَا»^(٤).

(وفي الرواية الأخرى: إني لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكانا واحدا أبدا. وفي الرواية الأخرى: أن فاطمة مضغة مني وأنا أكره أن يفتنوها)^(٥) أورد النووي في شرحه للحديث: (قال العلماء في هذا الحديث تحريم إيذاء النبي ﷺ بكل حال، وعلى كل وجه، وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحا وهو حي، وهذا بخلاف غيره، قالوا وقد أعلم ﷺ بإباحة نكاح بنت أبي جهل لعلي بقوله ﷺ لست أحرم حلالا، ولكن فهمي عن الجمع بينهما لعلتين منصوصتين: إحداهما: أن ذلك يؤدي إلى أذى فاطمة فيتأذى حينئذ النبي ﷺ فيهلك من أذاه فنهى عن ذلك، لكمال شفقتة على

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي التيمي، مكي، أبو بكر الأحول، ويقال أبو محمد، وكان قاضيا على عهد ابن الزبير، روى عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعائشة، وروى عنه ابن جريج وعبد الجبار ابن الورد. انظر: الجرح والتعديل لابن المنذر (٩٩/٥) والأسامي والكنى لأبي أحمد الحاكم (٢/ ٢٤١). وكان عالما مفتيا صاحب حديث وإتقان، معدود في طبقة عطاء، وقد ولي القضاء لابن الزبير، والأذان وثقه أبو زرعة، وأبو حاتم، مات سنة سبع عشرة ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٨/٥).

(٣) المسور بن مخرمة بن نوفل القرشي الزهري أبو عبد الرحمن، أمه الشفاء بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف، ولد بمكة بعد الهجرة بسنتين وقدم به أبوه المدينة في عقب ذي الحجة سنة ثمان، وقبض النبي ﷺ والمسور ابن ثمان سنين وسمع من النبي ﷺ وحفظ عنه، وحدث عن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن عوف، وكان فقيها من أهل الفضل والدين لم يزل مع خاله عبد الرحمن بن عوف مقبلا ومديرا في أمر الشورى وبقي بالمدينة إلى أن قتل عثمان ثم انحدر إلى مكة فلم يزل بها حتى توفي معاوية، ذكره ربيعة بن يزيد فلم يزل بمكة حتى قدم الحصين بن غيرة مكة لقتال ابن الزبير، وفي حصاره ومحاربه أهل مكة أصاب المسور حجر من حجارة المنجنيق وهو يصلي في الحجر فقتله، سنة أربع وستين وصلى عليه ابن الزبير بالحجون وهو معدود في المكيين توفي وهو ابن اثنتين وستين سنة. انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٦٧٧/١).

(٤) - انظر: صحيح البخاري- كتاب النكاح- باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف، حديث رقم: ٥٢٣٠ (٣٧/٧). وانظر: صحيح مسلم- كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم- باب فضائل فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام، حديث رقم: ٦٤٦٠ (١٤٠/٧).

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد - أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٨٩١١ (٢٢٦/٣١) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

علي وعلی فاطمة. والثانية: خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة، وقيل ليس المراد به النهي عن جمعهما بل معناه أعلم من فضل الله أنهما لا تجتمعان، كما قال أنس بن النضر: والله لا تكسر ثنية الربيع^(١) ويحتمل أن المراد تحريم جمعهما ويكون معنى لا أحرم حلالاً، أي لا أقول شيئاً يخالف حكم الله، فإذا أحل شيئاً لم أحرمه وإذا حرمه لم أحلله، ولم أسكت عن تحريمه، لأن سكوتي تحليل له ويكون من جملة محرمات النكاح الجمع بين بنت نبي الله وبنت عدو الله^(٢) وهنا نعلم أن تعدد الزوجات بما حدد الشرع أمراً مباحاً ومندوباً إليه، بشرط العدل، ومما قرر العلماء أن حماية النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها من الأذى لها أو لنسبه، أمر فيه خصوصية له ﷺ.

١٠) الصلة الزوجية:

لقد خلق الله بني آدم من ذكر وأنثى، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة، قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)^(٣) وقد أمر الإسلام الرجل بحسن العشرة، وأداء الحقوق التي للزوجة بمعروف وإحسان، في حال الإمساك أو حال التسريح، قال الله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)^(٤) وقال سبحانه: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٥) كذلك، فإن الله أمر المرأة بطاعة الزوج في المعروف وأداء الحقوق، وإن كانت العلاقة بينهما قامت على حب الولد وإمتاع النفس بما وضعه الله في الجسد من الشهوة، فإن السعادة الزوجية تقوم على بقاء الحب بينهما، وعوامل بقاءه كثيرة جداً، من أهمها: تقوى الله في الحقوق والواجبات المفروضة لهما وعليهما، ولما نعلم من أن العلاقة الزوجية من أهم الصلات الحميدة التي يقوم عليها المجتمع؛ فإن الحفاظ عليها من الواجبات وإن زرع الحب من أول الأيام أهم وسيلة في الحفاظ على الكيان الأسري، ولنا في رسول الله أسوة حسنة في تعامله مع زوجاته رضي الله عنهن، حيث كانت عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش

(١) الربيع بنت النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصارية أخت أنس بن النضر وعمة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وهي والدة حارثة بن سراقة، وفيه قولها أخبرني عن حارثة فإن يكن في الجنة صبرت واحتسبت وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء فقال لها النبي ﷺ إنه أصاب الفردوس - الحديث - وفي صحيح البخاري عن أنس أن الربيع بنت النضر عمته لطمت إنساناً فطلبوا العفو، فأبوا، فطلبوا الأرض، فأبوا، فقال رسول الله ﷺ كتاب الله القصاص فقال أنس بن النضر أيكسر سن الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا يكسر سنّها، فرضوا بالأرض، فقال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرة، منهم أنس بن النضر. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦٤٢/٧).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ١٦، ص: ٢ - ٤.

(٣) سورة الروم: ٢١.

(٤) سورة النساء: ١٩.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٨.

ذَاتِ السَّلَاسِلِ. فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: (أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ «عَائِشَةُ» قُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا» قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ» فَعَدَّ رِجَالًا^(١). وقد تزوجها وهي صغيرة السن، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فترلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكت فتمزق شعري، فوفى جُميمة^(٢)، فَأَتَنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ^(٣) — وإني لفي أرجوحة ومعِي صَوَّاحِبٌ لِي — فَصَرَخْتُ بِي فَأَتَيْتُهَا، لَا أُدْرِي مَا تُرِيدُ بِي، فَأَخَذَتْ بِيَدِي حَتَّى أَوْقَفْتَنِي عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَإِنِّي لَأُنْهَجُ^(٤) حَتَّى سَكَنَ بَعْضُ نَفْسِي. ثُمَّ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنْ مَاءٍ فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي وَرَأْسِي، ثُمَّ أَدَخَلَتْنِي الدَّارَ، فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْبَيْتِ، فَقُلْنَ: عَلَى الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ. فَأَسْلَمْتَنِي إِلَيْهِنَّ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِي، فَلَمْ يَرْعَنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَحَى، فَأَسْلَمْتَنِي إِلَيْهِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ^(٥). وعندما علم المسلمون قدر حبه لها رضي الله عنها أرادوا كسب حبه بحبها لها، عند البخاري: عن عُرْوَةَ: «كَانَ النَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ»^(٦).

(١١) صلة الشفاعة:

إِنَّ الشَّفَاعَةَ مِنَ الْمَقْدَمَاتِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تَكْوِينِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْجَمْعِ الْمُسْلِمِ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَتَاهُ السَّائِلُ، أَوْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ قَالَ: (اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة ذات السلاسل وهي غزوة لحم وجذام، حديث رقم: ٣٦٦٢ (٥/٥) وانظر: صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم - باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم: ٦٣٢٨ (١٠٩/٧).
(٢) الجيم والميم في المضاعف له أصلان: الأول كثرة الشيء واجتماعه، والثاني عَدَمُ السَّلَاحِ. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤١٩/١) وَجَمَّاهُ وَجَمَّمَهُ بِالْتَحْرِيكِ وَهُوَ مَا عَلَا رَأْسَهُ، وَالْجُمَّةُ بِالضَّمِّ مُجْتَمَعُ شَعْرِ الرَّأْسِ وَهِيَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَقْرَةِ وَفِي الْحَدِيثِ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُمَّةٌ جَعْدَةٌ، الْجُمَّةُ مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ مَا سَقَطَ عَلَى الْمُنْكَبَيْنِ، وَقَدْ وَفَتْ لِي جُمِيمَةٌ أَيْ كَثُرَتْ وَالْجُمِيمَةُ تَصْغِيرُ الْجُمَّةِ. انظر: لسان العرب لابن منظور (١٠٤/١٢).

(٣) أم رومان يقال بفتح الراء وضمها هي بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك ابن كنانة، وأجمعوا أنها من بني غنم بن مالك بن كنانة، امرأة أبي بكر الصديق وأم عائشة وعبد الرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنهم، توفيت في حياة رسول الله ﷺ، وقبرها واستغفر لها، وذلك في سنة ست من الهجرة فترل رسول الله ﷺ وقال: اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك، وكانت وفاتها سنة أربع أو خمس عام الخندق، وقال الزبير: سنة ست في ذي الحجة. وكذلك قال الواقدي: سنة ست في ذي الحجة، كانت أم رومان الكنانية تحت عبد الله بن الحارث بن سبخرة بن جرثومة الخير بن عادية بن مرة الأزدي وكان قدم بها مكة، فحالف أبا بكر قبل الإسلام وتوفي عن أم رومان فولدت لعبد الله الطفيل ثم خلف عليها أبو بكر، فالطفيل أخو عائشة وعبد الرحمن لأُمهما. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٩٥١/١).

(٤) (نَهَجَ) النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرُ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمُنْهَاجِ. وَالْمُنْهَاجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمُنَاهِجُ. وَالْآخَرُ الْإِنْقِطَاعُ. وَأَتَانَا فَلَانٌ يَنْهَجُ، إِذَا أَتَى مِهْورًا مَنقُطَعَ النَّفْسِ. وَضَرِبْتَ فَلَانًا حَتَّى أُنْهَجَ، أَيْ سَقَطَ. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٦١/٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري - كتاب مناقب الأنصار - باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدمه المدينة وبنائه بها، حديث رقم: ٣٨٩٤ (٥/٥٥).

(٦) انظر: صحيح البخاري - كتاب المحبة وفضلها والتحريض عليها - باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نساؤه دون بعض، حديث رقم: ٢٥٨١ (١٥٦/٣).

رَسُولُهُ مَا شَاءَ^(١). وما يتقدم لها إلا من قامت له المحبة في القلب أو كانت له المكانة في المجتمع بالمال والجاه، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها «أَنْ قَرِيشًا أَهْمَهُمْ شَأُنُ الْمُخْزُومِيَةِ فَقَالُوا: مَنْ يَجْتَرِءُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢). وكان أسامة بن زيد وأبوه رضي الله عنهما، من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنْ تَطَعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ. وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ، وَإِنْ هَذَا لَمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(٣) وعندما شفع أسامة ﷺ في شأنها؛ شدد النبي ﷺ عليه القول، ولم يجبه في شفاعته بقوله: (أتشفع في حد من حدود الله)، بل خطب الناس موضحا خطورة الشفاعة السيئة التي بمقتضاها تضيع حقوق الناس ويتعدى على حدود الله فإن الشفاعة كغيرها من الصلوات الحميدة تخضع لضوابط الشريعة فكما للشافع من الأجر في قضاء الحاجات، ودفع المضرات بشفاعته، فإن عليه من الوزر بقدر ما يشفع فيه من السيئات في هضم الحقوق ودفع الحدود، وحماية الباطل والهروب عن الواجبات، قال الله تعالى: (مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا^(٤)، ومن الجميل في الشفاعة أن محبة الشخص تشفع في محبة بنيه، عن الزهري، قال: حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ مَوْلَى أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ «أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ إِذْ دَخَلَ الْحَجَّاجُ بْنُ أَيْمَنَ، فَلَمْ يُتِمِّمْ رُكُوعَهُ وَلَا سُجُودَهُ فَقَالَ: أَعَدُّ. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: الْحَجَّاجُ بْنُ أَيْمَنَ ابْنِ أُمِّ أَيْمَنَ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَوْ رَأَى هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَحَبَّهُ. فَذَكَرَ حُبَّهُ وَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّ أَيْمَنَ». قال: وزادني بعض أصحابي عن سليمان «وكانت حاضنة النبي ﷺ»^(٥).

١٢) صلة التناصح:

إن مبدأ التناصح في الإسلام أمر يقوم عليه الدين بل الدين النصيحة، عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(٦). وإن العلاقة بين الناصح والمنصوح من الصلوات الحميدة التي تقوم على محبة الحق والتواصي به، وعليها يقوم

(١) انظر: صحيح البخاري-كتاب الأدب- باب قول الله تعالى (من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا، حديث رقم: ٦٠٢٨ (١٢/٨)

(٢) انظر: صحيح البخاري- كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ عليه وسلم- باب ذكر أسامة بن زيد، حديث رقم: ٣٤٧٥ (٤/ ١٧٥) انظر: صحيح مسلم - كتاب الحدود- باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، حديث رقم: ٤٥٠٦ (٥/ ١١٤).

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، حديث رقم: ٣٧٣٠ (٥/ ٢٣) وانظر: صحيح مسلم- كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم - باب فضائل زيد بن حارث وأسماء بن زيد رضي الله عنهما، حديث رقم: ٦٤١٧ (٧/ ١٣١).

(٤) سورة النساء: ٨٥.

(٥) انظر: صحيح البخاري- كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب ذكر أسامة بن زيد، حديث رقم: ٣٧٣٧ (٥/ ٢٤)

(٦) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان- باب بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم: ٢٠٥ (١/ ٥٣).

صلاح الناس، ولقد قامت رسالات الأنبياء عليها قال الله تعالى في حق قوم شعيب عليه السلام: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِمَ لَقَدْ أَتَلَعْتُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ) ^(١) وقال الله تعالى في حق نبيه ورسوله صالح عليه السلام: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِمَ لَقَدْ أَتَلَعْتُكُمْ رَسُولَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ) ^(٢) ذكر الشوكاني في فتح القدير عند تفسير الآية: (وَقَالَ) {لهم هذه المقالة {لَقَدْ أَتَلَعْتُكُمْ رَسُولَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موثم على طريق الحكاية لحالهم الماضية. كما وقع من النبي ﷺ من التكليم لأهل قليب بدر بعد موثم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، وكأنه كان مشاهداً لذلك، فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصح، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه، فحق عليهم العذاب، ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه ^(٣) ومن صفات الناصح الأمانة في النصح وهو من حق المسلم على أخيه المسلم، عن أبي هريرة ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ». قِيلَ مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدِ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ» ^(٤). ومعنى النصيحة بين الأخوين المسلمين، قال النووي (وإذا استنصحتك فمعناه طلب منك النصيحة فعليك أن تنصحه ولا تداهنه ولا تغشه ولا تمسك عن بيان النصيحة) ^(٥) ومعنى ذلك أن يجتهد الناصح في الوصول إلى كمال الإحاطة بجوانب موضوع النصيحة؛ فيصل بالمنصوح إلى حال السلامة من المrehوب أو الإقبال على المرغوب، والنصيحة هي من محض الخبة، عن علي، قال: قال (لي) رسول الله: «يا علي، أحب لك ما أحب لنفسي، وأكره لك ما أكره لنفسي، لا تُقَعِّبَنَّ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ» ^(٦). وتأخذ النصيحة أساليب عديدة في القول أو الفعل، ولعل من أهم شروطها في الحال الفردية أن تكون في السر في غالب أمرها، فإنها أدعى للاستجابة والقبول، وقد تبلغ من الناصح مبلغ التفضيل على النفس في تقديم الخير لغيره، وهذا ما فعله أبو بكر رضي الله عنه في نصحه للأمة، حين

(١) سورة الأعراف: ٩٣.

(٢) سورة الأعراف: ٧٩.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط ٢، ١٤٠٨هـ، ج ٢، ص: ٣١٢.

(٤) انظر: صحيح مسلم - كتاب السلام - باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، حديث رقم: ٥٧٧٨ (٣/٧).

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج ١٤، ص: ١٤٣.

(٦) انظر: سنن الترمذي - كتاب الصلاة - باب ما جاء في كراهية الإقعاء في السجود، حديث رقم: ٢٨٢ (٧٢/٢) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، حديث رقم: ١٢٤٤ (٤٠٢/٢) ضعفه الألباني. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث لا نعرفه من حديث علي، إلا من حديث أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي. وقد ضعف بعض أهل العلم الحارث الأعور. والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم: يكرهون الإقعاء.

ولايته للخلافة فأمضى ما عقده رسول الله ﷺ لجيش أسامة، وجمع القرآن وحارب المرتدين، وجعل ميراث النبي ﷺ على ما أسنه، بأنه صدقة، وهذا ما أبانه لآهل بيت النبي ﷺ المفضلين عنده من أهل بيته رضي الله عنهم أجمعين، عن عائشة: أن فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبي بكر، تسأله ميراثها من النبي ﷺ، مما آفاه الله على رسوله ﷺ، تطلب صدقة النبي ﷺ التي بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: (لا نورث ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال - يعني مال الله - ليس لهم أن يزيدوا على المأكل). وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي ﷺ التي كانت عليها في عهد النبي ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ، فتشهد علي ثم قال إنا قد عرفنا يا أبكر فضيلتك وذكر قربانهم من رسول الله ﷺ وحقهم، فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده لقربة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرباني^(١). ومن أصول القول في النصيحة أن الاستجابة للناصحين المخلصين يوصل إلى طريق قويم، وأن العناد في مواجهة الناصحين وعدم قبول النصح منهم، أو طردهم، وإغلاق طرق النصح عليهم طريق معوج، ومصير مهلكة للفرد والجمتمع.

١٣) صلة الضيافة والعطاء:

إكرام الضيف من الإيمان، وحق الضيف في الإسلام يوم وليلة، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَبْعُنَا فَتَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَقْرُونَنَا فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاَقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ»^(٢). قال الإمام النووي: (والضيافة من آداب الإسلام وخلق النبيين والصالحين، وقد أوجبها الليث^(٣) ليلة واحدة واحتج بالحديث: ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم^(٤) وبحديث عقبة: إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بحق الضيف فاقبلوا، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم. وعامة الفقهاء على أنها من مكارم الأخلاق، وحثهم قوله ﷺ: جائزته يوم وليلة. والجائزة العطية والمنحة والصلة، وذلك لا يكون إلا مع الاختيار،

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣٧١١ (٢٠/٥) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب قول النبي ﷺ: (لا نورث ما تركناه صدقة) ، حديث رقم: ٤٦٧٩ (١٥٣/٥)

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب المظالم - باب قصاص المظلوم إذا وجد مال ظالمه، حديث رقم: ٦١٣٧ (٣٢/٨) وانظر: صحيح مسلم - كتاب اللقطة - باب الضيافة ونحوها، حديث رقم: ٤٦١٣ (١٣٨/٥).

(٣) الليث بن سعد الإمام الحافظ شيخ الديار المصرية وعالمها ورئيسها أبو الحارث الفهمي مولاها، الأصبهاني الأصل المصري، حدث عن عطاء بن أبي رباح ونافع العمري وابن أبي مليكة وسعيد المقبري، والزهري وأبي الزبير المكي وخلق كثير. حدث عنه محمد بن عجلان وهو شيخه وابن وهب وسعيد بن أبي مريم وخلائق. حج سنة ثلاث عشرة وله تسعة عشر عامًا؛ فلحق الكبار وكان كبير الديار المصرية وعالمها الأنبل، كان الشافعي يتأسف على فواته وكان يقول: هو أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وقال أيضا: كان أتبع للأثر من مالك. وهو إمام حجة. مات سنة خمس وسبعين ومائة وله إحدى وثمانون سنة. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي (١/١٦٤).

(٤) انظر: سنن أبي داود - كتاب الأطعمة - باب ما جاء في الضيافة، حديث رقم: ٣٧٥٢ (٣/٣٩٨). صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

وقوله ﷺ فليكرم وليحسن يدل على هذا أيضا، إذ ليس يستعمل مثله في الواجب، مع أنه مضموم إلى الإكرام للجار والإحسان إليه، وذلك غير واجب، وتأولوا الأحاديث أنها كانت في أول الإسلام إذ كانت المواساة واجبة^(١) وقد أوجب بعض الفقهاء إكرام الضيف على أهل الوبر دون أهل المدر، وأهل الوبر^(٢) - البادية - يمر بهم المسافر في مشقة من السفر، وقد يتعين عليهم إكرامه لحاجة أو مخافة هلكة. أما أهل المدن والمستقر فإن نزول الضيف بهم متعذر بوجود كثرة الناس، ووجود المحلات التجارية من المنازل والأسواق وغيرها، مما يأوي الغريب إليه ويسد حاجته. ولكن من قصد المتزل الخاص فقد حق له ما يحق لغيره من ذوي الحاجة أو الطلب من القبول أو الرد، قال الله تعالى: (يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ^(٣) فإن من شيم أهل الكرم فتح الأبواب، واستقبال الضيوف والزوار من الأصحاب والإخوان، ما لم يمنعه عذر مشروع، عن أبي هريرة «أصابني جهد شديد، فلقيت عمر بن الخطاب، فاستقرأته آية من كتاب الله، فدخل داره وفتحها علي، فمشيت غير بعيد فخررت لوجهي من الجهد والجوع، فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسي فقال: يا أبا هريرة، فقلت: لبيك رسول الله وسعديك، فأخذ بيدي فأقامني وعرف الذي بي، فانطلق بي إلى رحله فأمر لي بعس^(٤) من لبن فشربت منه، ثم قال: عُد فاشرب يا أبا هريرة، فعدت فشربت، ثم قال: عد فعدت فشربت حتى استوى بطني فصار كالقدح. قال: فلقيت عمر وذكرته له الذي كان من أمري وقلت له: فوَلَّى ذَلِكَ مَنْ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْكَ يَا عُمَرُ، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَقْرَأْتُكَ الْآيَةَ وَلَأَنَا أَقْرَأُهَا مِنْكَ. قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ لَأَنْ أَكُونَ أَدْخَلْتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ حَمْرِ النَّعَمِ»^(٥). إن هذه المقولة من عمر رضي الله عنه تؤكد صفات الكرم النابعة من الحب والأخوة والإيمان، ومنها درس في محبة تكوين الصلات الحميدة بين المسلمين في حق الضيافة والعطاء، وقد تعطي من المال أو غيره تألفا للقلوب المحبة للمال، كي تكسب أجر اهتمامهم إلى الإسلام، أو الثبات عليه، عن عمرو بن تغلب (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِمَالٍ أَوْ سَبِي فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رَجُلًا وَتَرَكَ رَجُلًا، فَلَبَّغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا فَحَمَدَ اللَّهُ ثُمَّ أَتْنِي عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لَمَّا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ج ٢، ص: ١٨.

(٢) الوبر: الواو والباء والراء كلمات لا تنقاس، بل هي منفردة. فالوَبْر معروف. والوَبْر: دابة. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٨١/٦) الوَبْرُ صوف الإبل والأرانب ونحوها والجمع أَوْبَارٌ، وفي الحديث: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِ الْوَبْرِ وَالْمَدَرِ، أي أهل البوادي والمُذَنِّ والقُرى وهو من وَبَرَ الإبل لأن بيوتهم يتخذونها منه، والمَدَرُ جمع مَدْرَةٍ وهي البَيْتَةُ، انظر: لسان العرب لابن منظور (٢٧١/٥).

(٣) سورة النور: ٢٧ - ٢٨.

(٤) العين والسين أصلان متقاربان: أحدهما الدنو من الشيء وطلبه، والثاني خفة في الشيء. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤٢/٤) العَسُّ: القَدَحُ الكبير وجمعه: عَسَاسٌ وأَعْسَاسٌ. انظر: المنهاج للنووي (١٠٦/٧).

(٥) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأطعمة - باب وقول الله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم)، حديث رقم: ٥٣٧٥ (٦٨/٧).

وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْخَيْرِ، فِيهِمْ عَمَرُو بَنُ تَغْلِبَ، فَوَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ^(١). إن صلة العطاء تدخل فيها الهبات والهدايا والصدقات وغيرها، وهي وسيلة تؤدي إلى الألفة والمحبة، ولكن في مواقف معينة منعها يكون من محبة، كما كان من موقف النبي ﷺ في هذا الحديث حيث تركهم لما في قلوبهم من الغنى والخير والإيمان، وهذه تزكية من الرسول ﷺ لهم، فقد كانت لهم أفضل من العطاء المادي، ومن ذلك درس عظيم فمن حرمة العطاء المادي أو المادي، فكن مبادرا له بالبديل من العطاء المعنوي الحقيقي في ذاته وصفاته أو وعده بأمل صادق في مستقبل الأيام بإذن الله ومشيتته.

١٤) صلة الجيرة:

لقد عظم الله ورسوله ﷺ حق الجار على الجار، قال الله تعالى: (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)^(٢) وصلة الجيرة رغم تنوعها فإن مقام الحب فيها يكون بالبر والصلة، وحسن العشرة، وإن لم يكن الجار مسلما، أما الحب العقدي فلا حق فيه إلا لمسلم، بل أصل المسألة فيه يعود إلى ضوابط الولاء والبراء، ولقد وصى النبي ﷺ بالجار، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ)^(٣). قال ابن حجر في شرح الحديث: (واختلف في المراد بهذا التورث، فقليل يجعل له مشاركة في المال بفرض سهم معطاه مع الأقارب، وقيل المراد أن يتزل منزلة من يرث بالبر والصلة، والأول أظهر، فإن الثاني استمر والخبر مشعر بأن التورث لم يقع، ويؤيده ما أخرجه البخاري من حديث جابر نحو حديث الباب بلفظ: حتى ظننت أنه يجعل له ميراثا. وقال بن أبي حمزة^(٤) الميراث على قسمين: حسي ومعنوي، فالحسي هو المراد هنا، والمعنوي ميراث العلم ويمكن أن يلحظ هنا أيضا، فإن حق الجار على الجار أن يعلمه ما يحتاج إليه والله أعلم، واسم الجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق، والصديق والعدو والغريب، والبلدي والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب دارا والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأول كلها، ثم أكثرها، وهلم جرا إلى الواحد، وعكسه من اجتمعت فيه الصفات الأخرى، كذلك فيعطي كل حقه

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب الجمعة - باب من قال في الخطبة بعد الشاء أما بعد، حديث رقم: ٩٢٣ (١٠/٢).

(٢) سورة النساء: ٣٦

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب الوصاة بالجار، حديث رقم: ٦٠١٥ (١٠/٨) وانظر: صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٦٨٥٤ (٣٧/٨).

(٤) أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن الوليد بن محمد بن وليد بن مروان، الإمام المعمر المسند، أبو العباس ابن أبي حمزة المرسى الأموي مولا هم المرسى المالكي. صهر أبي الوليد الباجي، سمع أباه، وأبا بكر بن أبي جعفر، وهشام بن أحمد، توفي سنة (٥٣٣ هـ) انظر: التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح لأبي الوليد الباجي (١/ ١٠٨) و سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٩١).

بحسب حاله، وقد تتعارض صفتان فأكثر فيرجح أو يساوي، وقد حمله عبد الله بن عمرو أحد من روى الحديث على العموم، فأمر لما ذبحت له شاة أن يهدي منها لجاره اليهودي، أخرجه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وحسنه^(١) بل ورد في الحديث الدعوة إلى التساوي في المحبة، من محبة الخير للجار كنفسه، وأيضا، دفع الشر عنها. عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ (أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢). فإن حق الجار عظيم في الأجر والثوبة وله من الفوائد الاجتماعية والنفسية ما لا يحصر وأعظمها تحقيق الأمن النفسي والاجتماعي عندما يؤدي الجار حق جاره.

١٥) صلة الوصاية:

الوصية حق في عنق المسلم على نفسه، فيما يستحق الوصية عليه، من الحقوق والواجبات الشخصية والشرعية، وهي من الصلوات الحميدة في المجتمع المسلم قال الله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٣) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ)^(٤) والموصون والأوصياء أمناء على ما استوصوا وما استوصوا عليه، وتكون الوصية من كامل الأهلية بالعقل والبلوغ والحرية والاختيار، وهي في حق اليتامى والأرامل والضعفاء قرينة إلى الله تعالى وأمانة، قال الله تعالى: (وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى حَسِيبًا بِاللَّهِ)^(٥). وكما هي مشروعة؛ فإن قبولها مشروع لمن كان على ثقة من نفسه بحملها، أما من عرف الضعف في نفسه، أو خشي التهمة بالنقص أو أكل الباطل فعليه أن يتره نفسه عن مواطن التهم، خشية ما يلحق به من الإثم والضرر. عند البخاري، عن نافع قال: ما ردَّ ابن عمر على أحد وصيته. وكان ابن سيرين: أحب الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع إليه نصحاه وأولياؤه، فينظروا الذي هو خير له. وكان طاوس: إذا سئل عن شيء من أمر اليتامى قرأ: (والله يعلم المفسد من المصلح) وقال عطاء في يتامى الصغير والكبير: ينفق الولي على كل إنسان بقدره من

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة،

١٣٧٩ هـ، ج ١٠، ص: ٤٤١ - ٤٤٢.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم: ١٨٠ (١/٤٩).

(٣) سورة البقرة: ١٨٠ - ١٨١.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب الوصايا - باب الوصايا، حديث رقم: ٢٧٣٨ (٢/٤) وانظر: صحيح مسلم - كتاب الوصية - حديث رقم: ٤٢٩٤ (٥/٧٠).

(٥) سورة النساء: ٦.

حصته ، قال ابن حجر: (قوله ما رد ابن عمر على أحد وصيته يعني أنه كان يقبل وصية من يوصي إليه قال ابن التين^(١) كأنه كان يبتغي الأجر بذلك لحديث أنا وكافل اليتيم كهاتين الحديث). وهي من باب التكافل الذي حث عليه الدين ولها ضوابط فقهية - ليست محل بحث هنا - من أهمها أهلية الموصي والموصى إليه وحفظ الأمانة في الموصى عليه وتكمل بالشهادة عليها وألا وصية لوارث، روى أصحاب المغازي أن رسول الله قال يوم الفتح: (لا وصية لوارث)^(٢). وقد تأخذ المحبة المورث تجاه بعض أبنائه أو زوجاته أو ممن يرى حاجته للمال دون غيره، فيخصه بوصية خاصة من الميراث، وهذا من المنوعات شرعا، للحديث السابق، ولما له من المؤثرات على علاقة الورثة بعضهم مع بعض بعد وفاته؛ لأن النفس مجبولة على محبة المال والاستكثار منه، ويؤدي ذلك إلى الخصومة والتنازع، وقد يكون التخصيص لأحد الورثة مدفوعا بالمحبة دون غيره وهذا ظلم للآخرين من الورثة والله لا يحب الظالمين، والله يحب الحسنيين ، بل من المطلوب الشرعي العدل بين الأبناء والزوجات، في الحياة، وهو بعد الممات من باب أولى في حقوق فرضها الله بعدله وحكمته.

(١) عبد الواحد بن التين، أبو محمد، الصفاقسي، المغربي، المالكي. الشهير بابن التين، فقيه محدث مفسر. له اعتناء زائد في الفقه ممزوج بكثير من كلام المدونة وشرحها، عاش في ٦١١هـ. من تصانيفه: "المخبر الفصيح في شرح البخاري الصحيح". انظر: هدية العارفين لإسماعيل الباباني البغدادي.

(٢) قال البخاري في صحيحه: كتاب الوصايا - باب لا وصية لوارث. انظر: صحيح البخاري (٤/٤).

المطلب الثاني

الصلات الذميمة

(١) التعاون على الإثم والعدوان:

إن من الصلات الذميمة التي حرمها الإسلام، التعاون على الإثم والعدوان، وهي مضادة لمقاصد شريعة الإسلام السمحة، التي تدعو إلى التعاون على البر والتقوى، وهي قاعدة عريضة تشمل شؤون الحياة، فإن التعاون المذموم فيه فساد في الأرض ونشر للظلم، ولا يدفعه إلا العدل ونصرة الحق وإقامته على النفس ومن تحب ومن لا تحب، عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أتهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فكلمة أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١). ومدار التعاون على الإثم والعدوان، خلو القلب من حب الخير وانصرافه إلى الشر، ويولد هذا قسوة في القلب وبغضا وحقدا، وانحرافا في الذات ومجالات الحياة، مما يؤدي بالناس إلى حياة الشقاء والكدر، وفي هذا الحديث والذي يليه، مشهد من المشاهد التي حدثت في عهد النبي ﷺ لمثل هذا الانحراف الذي أحدثه الشيطان بترغاته وتحريشه فقام رسول الله ﷺ بعلاجه، ولنا فيه درس كريم في كيفية علاج الصلات الذميمة، عن عبد الله بن بريدة، حدثني أبي بريدة قال: أَبْغَضْتُ عَلِيًّا بُغْضًا لَمْ أَبْغِضْهُ أَحَدًا قَطُّ. قَالَ: وَأَحْبَبْتُ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ لَمْ أَحِبَّهُ إِلَّا عَلَى بُغْضِهِ عَلِيًّا. قَالَ: فَبِعَثَ ذَاكَ الرَّجُلُ عَلَى خَيْلٍ فَصَحْبَتُهُ مَا أَصْحَبُهُ إِلَّا عَلَى بُغْضِهِ عَلِيًّا. قَالَ: فَأَصَبْنَا سَبِيًّا. قَالَ: فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ابْعَثْ إِلَيْنَا مِنْ يُخَمِّسُهُ. قَالَ: فَبِعَثَ إِلَيْنَا عَلِيًّا، وَفِي السَّبْيِ وَصِيفَةٌ هِيَ مِنْ أَفْضَلِ السَّبْيِ فَخَمْسَ، وَقَسَمَ فَخَرَجَ رَأْسُهُ يَقْطُرُ قُلُوبًا: يَا أَبَا الْحَسَنِ مَا هَذَا؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْوَصِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي السَّبْيِ، فَإِنِّي قَسَمْتُ وَخَمْسَتُ فَصَارَتْ فِي الْخُمْسِ، ثُمَّ صَارَتْ فِي أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ صَارَتْ فِي آلِ عَلِيٍّ وَوَقَعَتْ بِهَا. قَالَ: فَكَتَبَ الرَّجُلُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: ابْعَثْنِي فَبَعَثَنِي مُصَدِّقًا. قَالَ: فَجَعَلْتُ أَقْرَأُ الْكِتَابَ وَأَقُولُ: صَدَقَ. قَالَ: فَأَمْسَكَ يَدَيَّ وَالْكِتَابَ، وَقَالَ: أَتُبْغِضُ عَلِيًّا؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَلَا تَبْغِضْهُ، وَإِنْ كُنْتُ تُحِبُّهُ فَارْزُدْ لَهُ حُبًّا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَنَصِيبُ آلِ عَلِيٍّ فِي الْخُمْسِ أَفْضَلُ مِنْ وَصِيفَةٍ، قَالَ: فَمَا كَانَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ بَعْدَ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عَلِيٍّ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ غَيْرُ أَبِي بُرَيْدَةَ^(٢). إن المتأمل في موقف بريدة يرى التدرج في

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع للسلطان، حديث رقم: ٣٤٧٥ (١٧٥/٤)

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٢٩٦٧ (٦٥/٣٨) تعليق شعيب الأنطاوي على المسند:

حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

العداوة: البغض، ثم البغض الشديد، ثم محبة من مثله في البغض تعاونا على الإثم، ثم تحين الفرص للانتقام، ثم الانتقام الفعلي. وكان من علاجه ﷺ كشف الحقيقة والقيام بعملية الإبدال للبغض بالحب، بل ورفع درجة الحب تأكيداً له ببيان حقيقة الأمر (فَارْزُدْ لَهُ حُبًّا)، ويجد المتأمل أن عملية الإبدال أنجح في زوال البغض بالكلية بإيضاح الحقيقة، وبما أن الحب والبغض من الأمور القلبية، فإن عملية الإبدال تحتاج إلى خطوات قولية وعملية؛ تؤكد ذلك وتشبته وتعين على الاستمرار عليه .

ومن التعاون على الإثم الإصرار على الكفر، وإخفاء الحق ومحاربته، ويتضح ذلك من مواقف اليهود والمنافقين المتكررة على مدى التاريخ في الصراع بين الحق والباطل ، ومن تلك المواقف ، محاربتهم للإسلام في أول عهده ، قال الله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١))

أورد أهل التفسير أربع روايات^(٢) في سبب نزولها على ما يلي :

(١) عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغزو، تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله. وإذا قدم النبي صلى الله عليه وسلم من السفر اعتذروا إليه، وأحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا. فأنزل الله تعالى فيهم: "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا" الآية.

(٢) عن عكرمة مولى ابن عباس أو سعيد بن جبير: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب" إلى قوله: "ولهم عذاب أليم"، يعني فنحاصاً وأشيع وأشباههما من الأحرار، الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة" ويجبون أن يحمداً بما لم يفعلوا"، أن يقول لهم الناس علماء، وليسوا بأهل علم، لم يملوهم على هدى ولا خير، ويجبون أن يقول لهم الناس: قد فعلوا.

(٣) عن علقمة بن أبي وقاص: أن مروان قال لرافع: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: "لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، ليعذبنا الله أجمعين!" فقال ابن عباس: ما لكم ولهذا! إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استجابوا لله بما أخبروه عنه مما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه. ثم قال: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب"، الآية.

(٤) عن الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا"، فإنهم فرحوا باجتماعهم على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقالوا: "قد جمع الله كلمتنا، ولم يخالف أحد منا أحداً [أن محمداً ليس نبياً]. وقالوا: "نحن أبناء الله وأحباءه، ونحن أهل الصلاة والصيام"، وكذبوا، بل هم أهل كفر وشرك وافتراء على الله، قال الله: "يجبون أن يحمداً بما لم يفعلوا". أورد ابن حجر في الفتح المعنى الجامع الذي عليه

(١) سورة آل عمران : ١٨٨ .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤٢٠هـ، ج ٧، ص: ٤٦٥ .

أهل التفسير لهذه الآية بمعرفة سبب نزولها، قال : (الجمع بأن تكون الآية نزلت في الفريقين معاً، وبهذا أجاب القرطبي وغيره، وحكى الفراء أنها نزلت في قول اليهود: نحن أهل الكتاب الأول والصلاة والطاعة، ومع ذلك لا يقرون بمحمد؛ فترلت ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا. وروى بن أبي حاتم من طرق أخرى عن جماعة من التابعين نحو ذلك، ورجحه الطبري، ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك، أو نزلت في أشياء خاصة، وعمومها يتناول كل من أتى بحسنة ففرح بها فرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بما ليس فيه، والله أعلم)^(١)

(٢) العصبية الجاهلية:

إن العلاقات القومية الداخلية والخارجية، تنبعث من أصول قامت عليها، سواء كانت أصول القرى أو أصول منهجية في الحياة عقدية أو سياسية، ولكل أصول مبادئ يحافظ عليها الجميع، وييدي احترامها ويقوم بالدفاع عنها ممن هو داخل في نطاقها، وهنا يجب أن نوضح أن هذه العلاقات متى ما تمثلت الظلم ونصرته فقد دخلت في الصلات الذميمة، وهي غالبية على كل من تحزب بقوم داخل النظام العام للمجتمع، ومن أحداث العصبية الجاهلية، ما كان في مسجد النبي ﷺ، ولقد كادت أن تقوم فتنة قتال بين الأوس والخزرج، وفي حضرة النبي ﷺ جراً ما أحدثه المنافق - عبد الله بن أبي سلول - من إثارة وفتنة بين المسلمين، فقد رمى أم المؤمنين عائشة المبرأة رضي الله عنها بالفاحشة، وقد تحدث في ذلك رجال من الخزرج منهم حسان رضي الله عنه، وعند البخاري من حديث الإفك: (فقام سعد بن معاذ، فقال: ائذن لي يا رسول الله أن تضرب أعناقهم. وقام رجل من بني الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال: كذبت، أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد)^(٢) هذا نتاج العصبية والحزبية إذا اجتمعا، فتنة وقتال، وفرقة وخلاف، وكل ذلك من الصلات الذميمة التي حذر الشرع منها، أما نصرته الحق والوقوف مع المظلوم، وردع ودفع الظالم وكفه عن ظلمه، فإنها ليست من العيبة الجاهلية، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ^(٣) الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحَمٌ مِنْ فَحَمٍ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِجَلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ »^(٤).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ، ج ٨، ص: ٢٣٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة النور - باب قوله (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون)، حديث رقم: ٤٨٠٤ (١٠٦/٦).

(٣) من (عيب) العَبُّ شُرْبُ الماء من غير مَصٍّ وقيل أن يَشْرَبَ الماءَ ولا يَتَنَفَّسُ، والعُبابُ كثرة الماء، والعُبابُ المَطَرُ الكثير، وَعَبَّ الثَّبْتُ أي طال، وعُبابُ السَّيْلِ مُعْظَمُهُ وارتفاعه وكثرته، عُبْيَةٌ وعُبْيَةٌ أي كبر وفخر وعُبْيَةُ الجاهلية تُخَوِّثُهَا. انظر: لسان العرب لابن منظور (٥٧٢/١).

(٤) انظر: سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في التفاخر بالأحساب، حديث رقم: ٥١١٨ (٤٩٢/٤). وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٨٧٣٦ (١٤ / ٣٤٩) حسنه الألباني. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده حسن.

٣) الحسد والغيرة:

الحسد من أشنع الصلوات الذميمة، حيث يولد الحقد، والحقد ينتج عنه جرائم فظيعة منها القتل والسرقة وسائر الفتن، وقد نهى الإسلام عن الحسد، وأمرنا بالتعوذ من شر حاسد إذا حسد؛ لما له من عواقب وخيمة على الطرفين الحاسد والمحسود، وإن من أشد أضراره القطيعة بين الناس وفناء الحسنات، وهو مناقض لدواعي الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا يَجْتَمِعَانِ فِي النَّارِ مُسْلِمٌ قَتَلَ كَافِرًا ثُمَّ سَدَّدَ وَقَارَبَ، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي جَوْفِ مُؤْمِنٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِيحُ جَهَنَّمَ، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ)^(١). ومن أضراره المادية والمعنوية الإصابة بالعين، وكما في الحديث: العين حق، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا »^(٢). فيجب على المسلم الحصن الوقائي منها، بالتوكل على الله والأخذ بالأسباب، ولزوم الأذكار الشرعية الواردة في الكتاب والسنة، وكذلك يكون التداوي منها. وخطر الحسد يتعدى الحاسد والمحسود إلى المجتمع فإن شره عميم، وبه تنتشر العداوة المنافية للمحبة، وتعم البغضاء المهلكة، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلُقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ)^(٣). ولعل من أعظم بواعث الحسد الغيرة، ومناظرة المرء لما عليه غيره من مال أو طيب حال، والمقارنة مع حاله، ولا علاج لهذه الحالة إلا بالقناعة والإيمان بالقضاء والقدر في الرزق وغيره، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَمِّهِ مَا يَعَالِجُ الْحَسَدَ فِي نَفْسِ الْحَسَادِ، حَيْثُ يَحْسُ الْإِنْسَانُ بِالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ هَيْبُ الْقَلْقِ، فَإِنَّ نَارَ الْحَسَدِ مُحْرِقَةٌ وَأَوَّلُ مَا تَحْرِقُ صَاحِبَهَا، عَنْ دَاوُدَ بْنِ رُشَيْدٍ رضي الله عنه يَقُولُ: (قَالَتْ حُكْمَاءُ الْهِنْدِ: لَا ظَفَرَ مَعَ بَغْيٍ، وَلَا صِحَّةَ مَعَ نَهَمٍ، وَلَا ثَنَاءَ مَعَ كِبَرٍ، وَلَا صَدَاقَةَ مَعَ خَبٍّ، وَلَا شَرَفَ مَعَ سُوءِ آدَبٍ، وَلَا بَرٍّ مَعَ شُحٍّ، وَلَا اجْتِنَابَ مُحَرَّمٍ مَعَ حِرْصٍ، وَلَا مَحَبَّةَ مَعَ هَزْوٍ، وَلَا وِلَايَةَ حُكْمٍ مَعَ عَدَمِ فِقْهِ، وَلَا عُذْرَ مَعَ إِصْرَارٍ، وَلَا سَلَامَ قَلْبٍ مَعَ الْغِيَةِ، وَلَا رَاحَةَ مَعَ حَسَدٍ، وَلَا سُودُودَ مَعَ انْتِقَامٍ، وَلَا رِئَاسَةَ مَعَ عَزَازَةِ نَفْسٍ وَعُجْبٍ، وَلَا صَوَابَ مَعَ تَرْكِ الْمَشَاوِرَةِ، وَلَا ثَبَاتَ مُلْكٍ مَعَ تَهَاوُنٍ وَجَهَالَةٍ وَزَرَءٍ)^(٤).

(١) انظر: سنن النسائي - كتاب الجهاد - باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، حديث رقم: ٣١٠٩ (٣٢٠/٦) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٨٤٧٩ (١٨٣/١٤). حسنه الألباني. تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: صحيح.

(٢) انظر: صحيح مسلم - كتاب السلام - باب الطب والمرض والرقى، حديث رقم: ٥٨٣١ (١٣/٧)

(٣) انظر: سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب حديث رقم: ٢٥١٠ (٤/٦٦٤) وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، حديث رقم: ١٤١٢ (٢٩/٣) تعليق شعيب الأرنؤوط على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة وفي صحيح سنن ابن ماجه. وأصله عند مسلم في صحيحه.

(٤) داود بن رشيد الإمام الحافظ الثقة، أبو الفضل الخوارزمي، ثم البغدادي مولى بني هاشم، رجال جوال، صاحب حديث، توفي في سابع شعبان سنة تسع وثلاثين ومائتين انظر: خلاصة تذهيب تذهيب الكمال لصفي الدين الأنصاري (١: ١٠٩) ورجال مسلم (١/ ١٩٥) ورجال مسلم (١/ ١٩٥) والوافي بالوفيات (١٣/ ٢٩٤).

(٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٧هـ، ج ١٧، ص: ١٥٦.

إن حب الذات هو الدافع الأول للحسد، ومن الصور الاجتماعية الكثيرة له: الحسد بين أصحاب الأموال كثرة وعدة، وفي الأولاد عدداً ومجداً، وفي الجاه مكانة وسلطة. وكذلك بين أهل العلم طلاباً ومعلمين ظهوراً وريّة، وبين أهل الصحة والجمال قوة وهيئة، وبين الضرائر من النساء طمعا وغيره. ها هي أم زوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها تحفف عن ابنتها ألم الأحران لما قيل فيها من خبر الإفك، وتذكرها ما للضرائر من دور في الحسد، فإن ألم المصيبة الكبير جعل التعبير عن الغيرة على لسانها يكون بلفظ الحسد، ولم يثبت في حادثة الإفك وقوع أمهات المؤمنين فيها - أي عائشة - بل الذي وقع في هذه الفتنة أهل النفاق وبعض الأخيار الذين سبقت عليهم العاطفة، وضعف الورع وزلل اللسان، ولم يدركوا خطره وتجاهلوا مبدأ الثبوت لضعف الورع، قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (ووعكت، فقلت لرسول الله ﷺ: أرسلني إلى بيت أبي، فأرسل معي الغلام. فدخلت الدار فوجدت أم رومان في السفلى وأبا بكر فوق البيت يقرأ. فقالت أمي: ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرتها وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني. فقال: يا بنية، خفّضي عليك الشأن، فإنه والله لقلما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدتها وقيل فيها. وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ مني. قلت: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسول الله ﷺ قالت: نعم ورسول الله ﷺ. واستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه. قال: أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت^(١)).

وعلى ما سبق نعلم أن الحسد من أخطر الصلات الذميمة. ولم يرد فيه حمد إلا في اثنتين، كما في الحديث عند البخاري، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا^(٢)). وفي رواية عبد الله بن عمر عند مسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: « لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ فَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَتَصَدَّقَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ^(٣) ».

٤) نكاح الجاهلية:

إن الزواج من الصلات الحميدة، في تكوين العلاقات البشرية، وتبقى أشكال النكاح في الحياة الجاهلية من الصلات الذميمة؛ لما تمثله من خرق للمروءة، وتمزيق للكرامة، وخلط للأنساب، وانعكاس عن الفطرة

(١) انظر: صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة النور - باب قوله (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون)، حديث رقم: ٤٧٥٦ (١٠٦/٦)

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب العلم - باب الاغتياب في العلم والحكمة، حديث رقم: ٧٣ (١/ ٢٥) وانظر: صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ومن فضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بما وعلمها، حديث رقم: ١٩٣٠ (٢٠١/٢) ..

(٣) انظر: صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب اغتياب صاحب القرآن، حديث رقم: ٥٠٢٥ (١٩١/٦) وانظر: صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ومن فضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بما وعلمها، حديث رقم: ١٩٣١ (٢٠١/٢).

السليمة في حياة الإنسان التي جاء بها الإسلام، فقد حرم الإسلام صور النكاح الجاهلي وضبط العلاقة الزوجية بسياج من الضوابط الشرعية الحكيمة، وحرم المحرمات من الأقارب ومنهن: حرمة نكاح الأمهات والبنات والأخوات، والعمات والحالات، وبنات الأخ وبنات الأخت، والأمهات والأخوات من الرضاعة، والربائب المدخول بأمهاتهن، والجمع بين الأختين، والجمع بين الزوجة وعمتها أو خالتها، والحصنات من المؤمنات، وزوجات الابن وزوجات الأب، قال الله تعالى: (وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَحْبُوا مِنْهُ شَيْئًا فَاتَّخِذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا مَثَرُكُمْ ۖ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا^(١)). قال الجوهرى في الصحاح عند مادة (نكح): (النَّكْحُ والتَّكْحُ لغتان وهي كلمة كانت العرب تنزَّج بها) وأورد ابن منظور في لسان العرب عند مادة (نكح): (ويقال نَكَحَ المطرُ الأرضَ إذا اعتمد عليها ونَكَحَ الثُّعَاسُ عَيْنَهُ وَنَاكَ المطرُ الأرضَ وَنَاكَ الثُّعَاسُ عَيْنَهُ إذا غَلَبَ عليها وامرأة ناكح بغير هاء ذات زوج) فإن محبة إشباع غريزة الشهوة الفطرية في الإنسان، فرضت التزاوج بين الذكر والأنثى. وأخذ الزواج أشكالاً عدة مع تطور الحياة الإنسانية على الأرض من زواج الأخ لأخته شريكة غيره في الحمل، من أولاد أبينا آدم الأوائل، وتطور من الزواج الفردي إلى الزواج التعددي، ولكل قوم حكم وشريعة تنظم هذا الأمر لأهميته في حماية الأسرة والمجتمع، وهذا يتحدد بمعرفة التاريخ البشري على هذه الأرض وتفرع الأنساب وفق ظروف الحياة المتمثلة في الهجرات الإنسانية وتعدد أسبابها: من التجارة والبحث عن الغذاء والمكان الآمن، والهروب من الحروب والمجاعات على مر العصور وغيرها. ويبقى من المسلمات أن القبيلة مجموعة من الأسر جمعهم الدم والنسب أو الحلف والعهد، ويظهر ذلك في المجتمعات القديمة بشكل جلي أما المجتمعات المعاصرة فقد انصهرت الأسرة الممتدة - من الفخذ والعشيرة والبطن والقبيلة - في الاندماج الاجتماعي متعدد الأجناس الذي يتشكل وفق القوانين والأنظمة الجديدة التي تركز في تكوين المجتمع على المصالح المشتركة، ضمن خطط شاملة تكفل التعايش بين جميع الأجناس، يقول الدكتور عبد الله الخريجي: (من الأمور المسلم بها في الدراسات التي تتناول القرابة، أن كافة المجتمعات القديمة قد نظرت إلى العلاقات القرابية على اعتبارها تتجاوز مجرد الوحدة الزوجية، سواء كانت تلك الوحدة ذات طابع نووي^(٢) أو ممتد، وعندما تقوم علاقات القرابة على أساس الدم؛ يصبح الشخص قريباً

(١) سورة النساء: ٢٠ - ٢٢ .

(٢) (نوي) النون والواو والحرف المعتل أصل صحيح يدل على معنيين: أحدهما مَقْصَدٌ لشيء، والآخر عَجْمٌ شيء. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٦٦/٥) والثَّوَاءُ عَجْمَةُ الثَّمَرِ والزَّيْبُ وغيرهما والثَّوَاءُ مَا بَيَّتَ عَلَى النَّوَى. انظر: لسان العرب لابن منظور (٥٤٣/١٥). والأسرة النووية هي الأسرة الناشئة من الزوجين وما تفرع عنهما من الأبناء فقط، غير الأسرة الممتدة ذات الامتداد القبلي وما تفرع عنه من العشائر والبطون.

لغيره من الأفراد لجرد الاشتراك في تلك الرابطة (رابطة الدم)، حتى وإن لم تكن القرابة وثيقة^(١) واشتهرت بين العرب أربعة أشكال من الزواج في حياتهم الجاهلية، عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها. ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبها، فإذا حملت ووضعت ومراً ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تُسمي من أحببت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جُمِعوا لها، ودعوا لهم القافة ثم أحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطته به ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك. فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله، إلا نكاح الناس اليوم»^(٢). الزواج هو الوحدة الشرعية الاجتماعية لإشباع الرغبات الفطرية بين الجنسين، وفق نظام يكفل الحقوق للطرفين، ويحقق التكامل الاجتماعي، وشرع الإسلام في الزواج شروطاً وتكاليف حقوقية واجبة، قبل الزواج وبعده، ووضح مراسم عقده من الإيجاب والقبول والمهر والوليمة، والمعاشرة بالمعروف، ولم يصدر من نظامه حصر الزواج في الأقارب، ولكن هذا الحصر توارثه المجتمع القبلي لارتباط القبيلة بشعائر زواجية خاصة وشعور بكيونة الوحدة الانتمائية، والتي تغذي القبيلة بالقوة العددية، في محيط بيئة القبيلة المكانية والزمانية. ويمثل هذا صورة غير محمودة في واقع الحياة، لما يسببه الزواج من الأقارب من الحصر الذي يؤدي إلى تعارض التعارف المحمود بين الشعوب والقبائل الذي ندب إليه الشرع، وهو أخف ضرراً مما أحدثته القوانين الوضعية والحياة المدنية في الأسرة المعاصرة، والذي ينظر إلى أغلبية المجتمعات الغربية أو الشرقية غير المسلمة يجد ما سببته هذه الأنظمة من شتات الأسرة وتشريد الأطفال وانعدام الأنساب وهضم الحقوق الفردية والاجتماعية التي تعاني منها تلك المجتمعات وتندر بالانهايار.

٥) نكاح المحارم:

لم يكن نكاح المحارم من الأقارب ضمن أنكحة الجاهلية المشتهرة بين العرب، إلا ما كان من الجمع بين الأختين أو نكاح زوجة الأب، وحيث نكاح المحارم الأقارب من الصلات الذميمة فقد حرمه الإسلام بنص

(١) علم الاجتماع العائلي، د. عبد الله الخريجي، القاهرة: دار الثقافة، ط ١، ١٤٠١ هـ، ص: ١٥٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب من قال لانكاح إلا بولي، حديث رقم: ٥١٢٧ (٧/ ١٥).

القرآن والسنة، وتظهر عظمة هذا الدين في التزاهة والطهارة التي شملت المشاعر النفسية والجسدية في الزواج وغيره، فلا يمكن الخلط بين عاطفة الأمومة وشهوة الجنس أبدا.. أبدا حتى في حق الحيوان البهيم، فكيف بالإنسان الذي ميزه الله بالعقل عن الحيوان، وكذلك زواج الأخ من أخته فإنه من الصلات الذميمة، بل حتى الجمع بين الأختين والزواج من الرئائس المدخول بأمهاتهن، عن عروة أن زينب بنت أبي سلمة^(١) أخبرته «أن أم حبيبة زوج النبي ﷺ، قالت: قلت: يا رسول الله، انكح أختي ابنة أبي سفيان، قال: وتُحبين ذلك؟ قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في الخير أختي. فقال: إن ذلك لا يحل لي. فقلت: يا رسول الله فوالله إنا نتحدث أنك تريد أن تنكح ذرة بنت أبي سلمة، فقال: ابنة أم سلمة؟ فقلت: نعم. فقال: فوالله لو لم تكن ربيتي في حجري ما حلت لي، إنما ابنة أخي من الرضاة، أرَضَعْتَنِي وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن»^(٢). وقد بين العلماء ما اتضح لهم من الحكمة الشرعية، من منع الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، أنه من أجل البعد عن مخالفة القطيعة؛ لما يحدث غالبا بين الضرائر من الغيرة، قال ابن حجر في الفتح: (وفي روايته عند بن حبان فهي أن تزوج المرأة على العمة والخالة وقال إنكن إذا فعلتن ذلك قطعتن أرحامكن)^(٣).

٦) الدخول على غير المحارم:

لقد منع الشارع الاختلاط بين الذكور والإناث من غير المحارم، حفاظا على الكيان الاجتماعي من التحلل، وحرصا على تقوية التماسك الأسري وحمايته من ضياع الحقوق والأنساب؛ لأن دواعي الشهوة بين الجنسين تشعل القلوب شوقا لما ترى من المفاتن، وتشغل العقول وتصرفها عن المصالح المتعلقة بالأهل والأولاد، إلى علاقات ذميمة تبنى على الشهوة فقط، مما يفسد المصالح ويحدث المفاسد على المستوى الفردي والاجتماعي؛ لذا أوجب الإسلام الحجاب وحرّم الدخول على غير المحارم، وحذر من اختلاط المحارم في أوجه الشبهة المفضية إلى وقوع المحرمات، عَنْ عَمْرٍو^(٤) بَنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ

(١) زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومية، ربيّة رسول الله ﷺ، أمها أم سلمة زوج النبي ﷺ، كان اسم زينب برة فسمّاها رسول الله ﷺ زينب، ولدتها أمها بأرض الحبشة وقدمت بها وحفظت عن النبي ﷺ، ويروى أنها دخلت على النبي ﷺ وهو يغتسل فنضح في وجهها، فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت، وكانت زينب بنت أبي سلمة عند عبد الله بن زمعة بن الأسود الأسدي، فولدت له وكانت من أفقه نساء أهل زمانها، وعن الحسن يقول: لما كان يوم الحرة قتل أهل المدينة فكان فيمن قتل ابنا زينب ربيّة رسول الله ﷺ فحملا ووضعها بين يديها مقتولين فقالت إنا لله وإنا إليه راجعون. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٩٠٨/١).

(٢) انظر: صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب (وأمهاتكم اللاقي أرضعنكم)، حديث رقم: ٥١٠٧ (٧/ ١١). وانظر: صحيح مسلم - كتاب الرضاع - باب تحريم الربيّة وأخت المرأة، حديث رقم: ٣٦٦١ (٤/ ١٦٦).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ، ج ٩، ص: ١٦١.

(٤) عمرو بن شعيب بن محمد بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل، الإمام المحدث أبو إبراهيم وأبو عبد الله القرشي السهمي الحجازي فقيه أهل الطائف، ومحدثهم، وكان يتردد كثيرا إلى مكة، وينشر العلم، وله مال بالطائف، وأمه حبيبة بنت مرة الجمحية. حدث عن أبيه فأكثر، وعن سعيد بن المسيب، وطاووس، وسليمان ابن يسار وغيرهم، عن أبي عمرو بن العلاء، يقول: كان لا

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاصْرِبْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(١). وقال الله تعالى: «يَتْلُوا آيَاتِ الْكِتَابِ لَكَ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَعْرِفْنَ قَوْلَ اللَّهِ غُفُورًا رَحِيمًا»^(٢). وقد حدد الإسلام موجبات الرضاة واللقاء والحرمة والنكاح بين الذكور والإناث في العلاقات المشروعة وهي: النسب والزواج والمصاهرة والرضاعة ولكل علاقة بياها الخاص بأحكامها في أبواب الفقه، وأضعف هذه الموجبات الرضاة لقلّة تكوين العلاقات من خلالها ولوجود ما يغني عنها، وهي أصل في الحكم ومستثنى في الوجود لغلبة وجود الأمهات والمغذيات خاصة في عصر ما بعد الإسلام، قال ابن قدامة في المغني: (الأصل في التحريم بالرضاع الكتاب والسنة والأجماع؛ وأما الكتاب فقول الله تعالى: {وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ}^(٣). ذكرهما الله سبحانه في جملة المحرمات. وأما السنة، فما روت عائشة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: {إِنَّ الرَّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ}^(٤). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَفِي لَفْظٍ: {يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يُحَرِّمُ مِنَ النَّسَبِ}. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: {قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بِنْتِ حَمْزَةَ: لَا تَحُلْ لِي، يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يُحَرِّمُ مِنَ النَّسَبِ، وَهِيَ ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ}. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. فِي أَخْبَارٍ كَثِيرَةٍ، نَذَرْتُ أَكْثَرَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَضَاعِيفِ الْبَابِ. وَأَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ عَلَى التَّحْرِيمِ بِالرَّضَاعِ. إِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَإِنَّ تَحْرِيمَ الْأُمِّ وَالْأُخْتِ ثَبَتَ بِنَصِّ الْكِتَابِ، وَتَحْرِيمُ الْبِنْتِ ثَبَتَ بِالتَّحْنِيبِ، فَإِنَّهُ إِذَا حُرِّمَتِ الْأُخْتُ فَلَبِنَتْ أُولَى، وَسَائِرُ الْمُحَرَّمَاتِ ثَبَتَ تَحْرِيمُهُنَّ بِالسُّنَّةِ. وَتَثَبَّتِ الْمُحَرَّمِيَّةُ؛ لِأَنَّهَا فَرَعٌ عَلَى التَّحْرِيمِ إِذَا كَانَ بِسَبَبٍ مُبَاحٍ، فَأَمَّا بَقِيَّةُ أَحْكَامِ النَّسَبِ؛ مِنَ الثَّقَةِ، وَالْعَتَقِ، وَرَدِّ الشَّهَادَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّسَبَ أَقْوَى مِنْهُ، فَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِهِ، وَإِنَّمَا يُشَبَّهُ بِهِ فِيمَا نَصَّ عَلَيْهِ فِيهِ^(٥) وأما استحلال الدخول على المحارم من باب الرضاة في حال الكبر بعد العامين فكانت عائشة رضي الله عنها ترى رضاة الكبير تحرم لما فقهاه مواروته في خبر سالم مع امرأة أبي حذيفة، عن عائشة زوج النبي ﷺ وَ أُمِّ سَلَمَةَ: «أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ بَنَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ كَانَ تَبْنَى سَالِمًا وَأَتَكَحَهُ ابْنَةُ أَخِيهِ هِنْدُ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَهُوَ

يعاب على قتادة وعمرو بن شعيب، إلا أنهما كانا لا يسمعان شيئا إلا حدثا به. وعن أحمد بن حنبل، يقول: له أشياء مناكير، وإنما نكتب حديثه نعتير به، فأما أن يكون حجة، فلا. قال ابن عدي: هو في نفسه ثقة، إلا إذا روى عن أبيه، عن جده يكون مراسلا، لأن جده عنده محمد بن عبد الله بن عمرو، ولا صحبة له. قال يحيى بن معين: هو ثقة، بلي بكتاب أبيه عن جده. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٥/٥).

(١) انظر: سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم: ٤٩٥ (١٨٥/١). وانظر: مسند الإمام أحمد - مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو، حديث رقم: ٦٦٨٩ (٢٨٤/١١) قال الألباني: حسن صحيح. تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده حسن.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٣) سورة النساء: ٢٣.

(٤) انظر: صحيح البخاري - كتاب الخمس - باب ما جاء في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وما نسب من اليوت إليهن، حديث رقم: ٣١٠٥ (٨٢/٤). انظر: صحيح مسلم - كتاب الرضاع - باب ما يحرم من الرضاة ما يحرم من الولادة، حديث رقم: ٣٦٤١ (١٦٢/٤).

(٥) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤٠٥هـ - ج ٩، ص: ١٩٢.

مَوْلَى لَامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَمَا تَبَنَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا، وَكَانَ مَنْ تَبَنَّى رَجُلًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَعَاهُ النَّاسُ إِلَيْهِ وَرَزَتْ مِيرَاثَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي ذَلِكَ {أُدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ} - إِلَى قَوْلِهِ - فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} فَرَدُّوا إِلَى آبَائِهِمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ لَهُ أَبٌ كَانَ مَوْلَى وَأَخًا فِي الدِّينِ، فَجَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو الْقُرَشِيِّ ثُمَّ الْعَامِرِيُّ وَهِيَ امْرَأَةُ أَبِي حُذَيْفَةَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا نَرَى سَالِمًا وَلَدًا فَكَانَ يَأْوِي مَعِيَ وَمَعَ أَبِي حُذَيْفَةَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ وَيَرَانِي فَضْلًا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ فَكَيْفَ تَرَى فِيهِ؟ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: أَرْضِعِيهِ، فَأَرْضَعَتْهُ خَمْسَ رَضَعَاتٍ، فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِهَا مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَبِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَأْمُرُ بَنَاتِ أَخَوَاتِهَا وَبَنَاتِ إِخْوَانِهَا أَنْ يُرَضِعْنَ مَنْ أَحَبَّتْ عَائِشَةُ أَنْ يَرَاهَا وَيَدْخُلَ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا خَمْسَ رَضَعَاتٍ ثُمَّ يَدْخُلَ عَلَيْهَا. وَأَبَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ بِتِلْكَ الرِّضَاعَةِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى يُرَضَعَ فِي الْمَهْدِ، وَقُلْنَ لِعَائِشَةَ: وَاللَّهِ مَا تَدْرِي لَعَلَّهَا كَانَتْ رُخْصَةً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِسَالِمِ دُونَ النَّاسِ»^(١). و تقرير أهل العلم في هذا الخبر^(٢) أنه خاص في سالم دون غيره؛ لأنه يخالف ما نص عليه القرآن من تحديد كمال الرضاعة بالسنتين، قال ابن قدامة في المغني: (وَلَنَا، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ} فَجَعَلَ تِمَامَ الرِّضَاعَةِ حَوْلَيْنِ، فَبِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا حُكْمَ لَهَا بَعْدَهُمَا. وَعَنْ عَائِشَةَ، {أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْظُرْنَ مِنْ إِخْوَانِكُنَّ، فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ {الشَّافِعِيُّ}. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ، إِلَّا مَا فَتَقَ الْأُمَمَاءُ، وَكَانَ قَبْلَ الْفُطَامِ}. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَعِنْدَ هَذَا يَتَعَيَّنُ حَمْلُ خَبَرِ أَبِي حُذَيْفَةَ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ لَهُ دُونَ النَّاسِ، كَمَا قَالَ سَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣) وعليه نعلم أن من أراد أن يدخل من باب الرضاعة في كشف الحجاب الشرعي الملزم بينه وبين غير المحارم في الحولين - سن الرضاعة - فذلك محله، أما في سن الكبر بعدهما كما في خبر سالم فهو محل خلاف ليس هنا مكان بسطه، ولكن تقرير أهل العلم أنه قول شاذ مخالف لعموم النصوص ومخالف لقول الجمهور ومخالف لطبيعة العلاقات الفطرية بين البشر، مما يجعل الأخذ به يدخل في باب الريبة المفضي للحرام، أما الدخول على غير المحارم والاختلاط بينهم في خلوة، أو شكل متكرر يؤدي إلى مفاسد في العلاقات فهو محذور شرعا، ودخل في مضمون الصلات الذميمة. عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: إياكم والدخول على النساء! فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أفرأيت الحمى؟ قال: الحمى الموت. قال: وفي الباب عن عمر و جابر و عمرو بن العاص، قال أبو عيسى حديث عقبة بن عامر حديث حسن صحيح، وإنما معنى كراهية

(١) انظر: سنن أبي داود - كتاب النكاح - باب ما جاء في رضاعة الكبير، حديث رقم: ٢٠٦٣ (١٨٠/٢). أصل الحديث عند مسلم. صححه الألباني. وانظر: مسند الإمام أحمد - حديث عائشة رضي الله عنها، حديث رقم: ٢٦٣٣٠ (٣٥١/٤٣). تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: حديث صحيح.

(٢) عَنْ زَيْنَبَ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لِعَائِشَةَ: إِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْغُلَامُ الْأَيْتَعُ الَّذِي مَا أُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ، قَالَ: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَمَا لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْوَةٌ، قَالَتْ: إِنَّ امْرَأَةَ أَبِي حُذَيْفَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ سَالِمًا يَدْخُلُ عَلَيَّ، وَهُوَ رَجُلٌ وَفِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْهُ شَيْءٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْضِعِيهِ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْكَ». انظر: صحيح مسلم - كتاب الرضاع - باب رضاعة الكبير، حديث رقم: ٣٦٧٦ (١٦٩/٤).

(٣) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤٠٥هـ - ج ٩، ص: ٢٠٠.

الدخول على النساء، على نحو ما روي عن النبي ﷺ قال: لا يخلون رجلا بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، ومعنى قوله (الحمو) يقال: هو أخو الزوج كأنه كره له أن يخلوا بها.^(١)

(٧) الزنا :

إن الزنا قبل وقوعه له مقدمات ودواعي، قد حذر الشرع من الاقتراب منها؛ حفظا للمسلم من الوقوع في المعصية الكبيرة وهي (الزنا) قال الله تعالى: (وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)^(٢) قال الشيخ السعدي: (والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإن: "من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه" خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه. ووصف الله الزنى وقبحه بأنه {كَانَ فَاحِشَةً} أي: إنما يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها، وإفساد الفراش واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد. وقوله: {وَسَاءَ سَبِيلًا} أي: بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم)^(٣) وغريزة الشهوة المسماه عند المعاصرين الغريزة الجنسية هي أصل فطري لدى الذكور والإناث، يمكن تهيئته وإشباعه بالوسيلة المقرره في الشرائع والأنظمة الاجتماعية، والمتفق عليها عرفا وعقلا، وهي (الزواج) وألحق به في الإسلام ما ملكت يمين الرجل. والزنا له أسباب عديدة تربوية واجتماعية وسلوكية وقد حذر الإسلام منها، ومن أخطرها: الخلوة، والنظر، قال الله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)^(٤) وفي قصة نبي الله يوسف عليه السلام، مع امرأة العزيز أروع المثل في العفاف؛ حيث دعا الشيطان امرأة العزيز بسبب الخلوة والحب المنحرف إلى الزنا، فنادت به المرأة وعصم الله النبي الكريم فقال (معاذ الله)، وقد شهد نساء عصرها بضلال هذا الحب، القائم على الخيانة، قال الله تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(٥) وهذا الموقف العظيم يتكرر في حياة البشر، وقد بينت السنة النبوية أن لمن عصم نفسه، وقال: (إني أخاف الله) فضل عظيم؛ فهو من السبعة^(٦) الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: (إني أخاف الله). وفي هذا الزمن الذي نعيشه كثر الاختلاط بين الذكور والإناث في مجالات الحياة، وحوربت العفة وأصبح المنكر عليه عدم الاختلاط، بل تسن القوانين مخاربة العفة الشرعية التي جاء بها الإسلام، وأخذ دعاة الباطل والشهوات إلى إشاعة ما يدعو إلى

(١) انظر: سنن الترمذي - كتاب الرضاع - باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، حديث رقم: ١١٧١ (٣/٤٧٤) صححه الألباني.

(٢) سورة الإسراء: ٣٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت:

مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٤٥٧.

(٤) سورة النور: ٣٠ - ٣١.

(٥) سورة يوسف: ٣٠.

(٦) ورد الحديث بأكمله في هذه الدراسة. انظر: فهرس أطراف الحديث: سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

الانحراف الجنسي في العالم، ومن ذلك دعوى عيد الحب، الباطل المبتدع ، الذي هو من مخلفات الرومان الوثنية ومن قلدهم من النصارى، ومن ثم الدعوة إلى الانحراف في حياة البشر بإشاعة العلاقات الشاذة بين الجنسين أو بين الجنس الواحد. وهذا كله من الصلات الذميمة في العلاقات الإنسانية المخالفة لأوامر الشريعة.

٨) عيد الحب: (يوم فالنتين Valentine,s DAY)

يعتبر عيد الحب من أبرز الانحرافات في العلاقات القائمة على المحبة، ويمثل صورة من العلاقات الذميمة. وقد كتب أكثر من محقق^(١) حول التأصيل التاريخي لهذا العيد، ومجمل القول فيه أن عيد الحب من أعياد الرومان الوثنيين، إذ كانت الوثنية سائدة عند الرومان قبل ما يزيد على سبعة عشر قرناً. وهو تعبير في المفهوم الوثني الروماني عن الحب الإلهي.

ولهذا العيد الوثني أساطير عند الرومان، وعند ورثتهم من النصارى، ومن أشهر هذه الأساطير: أن الرومان كانوا يعتقدون أن (رومليوس) مؤسس مدينة (روما) أَرْضَعَتْهُ ذات يوم ذئبة فأمدته بالقوة ورجاحة الفكر. فكان الرومان يحتفلون بهذه الحادثة في منتصف شهر فبراير من كل عام احتفالاً كبيراً وكان من مراسيمه أن يذبح فيه كلب وعذرة، ويدهن شابان مفتولا العضلات جسميهما بدم الكلب والعذرة، ثم يغسلان الدم باللبن، وبعد ذلك يسير موكب عظيم يكون الشبان في مقدمته يطوف الطرقات. ومع الشابين قطعتان من الجلد يلطخان بهما كل من صادفهما، وكان النساء الروميات يتعرضن لتلك اللطمات مرحبات، لاعتقادهن بأنها تمنع العقم وتشفيه. أما ارتباطه بديانة النصرانية يبدأ من علاقته بالقديس (فالنتين Valentine) حيث هذا الاسم مرتبط باثنين من قدامى ضحايا الكنيسة النصرانية. قيل: إنهما اثنان، وقيل: بل هو واحد توفي في روما إثر تعذيب القائد القوطي (كلوديوس) له حوالي عام ٢٩٦م. وبنيت كنيسة في روما في المكان الذي توفي فيه عام ٣٥٠م تخليداً لذكوره. ولما اعتنق الرومان النصرانية أبقوا على الاحتفال بعيد الحب السابق ذكره؛ لكن نقلوه من مفهومه الوثني (الحب الإلهي) إلى مفهوم آخر يعبر عنه بشهداء الحب ، ممثلاً في القديس فالنتين الداعية إلى الحب والسلام الذي استشهد في سبيل ذلك حسب زعمهم. وسمي أيضاً (عيد العشاق) واعتبر (القديس فالنتين) شفيع العشاق وراعيهم. وكان من اعتقادهم الباطلة في هذا العيد أن تكتب أسماء الفتيات اللاتي في سن الزواج في لفافات صغيرة من الورق، وتوضع في طبق على منضدة، ويدعى الشبان الذين يرغبون في الزواج ليخرج كل منهم ورقة، فيضع نفسه في خدمة صاحبة الاسم المكتوب لمدة عام يختبر كل منهما خلق الآخر، ثم يتزوجان، أو يعيدان الكرة في العام التالي يوم العيد أيضاً. وقد ثار رجال الدين النصراني على هذا التقليد، واعتبروه مفسداً لأخلاق الشباب والشابات فتم إبطاله في إيطاليا التي كان مشهوراً فيها، ثم تم إحياءه في القرنين الثامن عشر

(١) رؤية شرعية في عيد الحب. جواز بن عبد الرحمن الجماز. مجلة البيان ، لندن : المنتدى الإسلامي، (العدد: ٢٢١) ، ص: ٣.

والتاسع عشر الميلاديين، حيث انتشرت في بعض البلاد الغربية محلات تباع كتباً صغيرة تسمى (كتاب الفالنتين) فيها بعض الأشعار الغرامية؛ ليختار منها من أراد أن يرسل إلى محبوبته بطاقة تهنئة، وفيها مقترحات حول كيفية كتابة الرسائل الغرامية والعاطفية. ومما قيل في سبب هذا العيد أيضاً أنه لما دخل الرومان في النصرانية بعد ظهورها، وحكم الرومان الإمبراطور الروماني (كلوديوس الثاني) في القرن الثالث الميلادي منع جنوده من الزواج؛ لأن الزواج يشغلهم عن الحروب التي كان يخوضها، فتصدى لهذا القرار (القديس فالنتين) وصار يجري عقود الزواج للجنود سرا، فعلم الإمبراطور بذلك فزج به في السجن، وحكم عليه بالإعدام. وفي سجنه وقع في حب ابنة السجن، وكان هذا سراً حيث يحرم على القساوسة والرهبان في شريعة النصارى الزواج، وتكوين العلاقات العاطفية، وإنما شفع له لدى النصارى ثباته على النصرانية، حيث عرض عليه الإمبراطور أن يعفو عنه على أن يترك النصرانية ليعبد آلهة الرومان، ويكون لديه من المقربين ويجعله صهراً له، إلا أن (فالنتين) رفض هذا العرض وآثر النصرانية؛ فنفذ فيه حكم القتل يوم ١٤ فبراير عام ٢٧٠ ميلادي ليلة ١٥ فبراير، عيد (لوبر كليا)، ومن يومها أطلق عليه لقب قديس. وقد جعل البابا من يوم وفاة القديس فالنتين ١٤/فبراير/٢٧٠م عيداً للحب ومن أهم شعائهم في هذا العيد:

(أ) إظهار البهجة والسرور فيه، كحالمهم في الأعياد المهمة الأخرى.

(ب) تبادل الورود الحمراء، وذلك تعبيراً عن الحب الذي كان حباً إلهياً عند الوثنيين وعشاقاً عند النصارى، ولذلك سمي عندهم بعيد العشاق.

(ج) توزيع بطاقات التهنئة به، وفي بعضها صورة (كيوبيد) وهو طفل له جناحان يحمل قوساً ونشاباً. وهو إله الحب عند الأمة الرومانية الوثنية، تعالى الله عن إفكهم وشركهم علواً كبيراً.

(د) تبادل كلمات الحب والعشق والغرام في بطاقات التهنئة المتبادلة بينهم - عن طريق الشعر أو النثر أو الجمل القصيرة، وفي بعض بطاقات التهنئة صور ضاحكة وأقوال هزلية، وكثيراً ما كان يكتب فيها عبارة (كن فالنتينيا) وهذا يمثل المفهوم النصراني له بعد انتقاله من المفهوم الوثني.

(هـ) تقام في كثير من الأقطار النصرانية حفلات فهارية، وسهرات ليلية مختلطة راقصة، ويرسل كثير منهم هدايا منها: الورود وصناديق الحلوى إلى أزواجهم وأصدقائهم ومن يحبونهم.

ومن نظر إلى ما سبق عرضه من أساطير حول هذا العيد الوثني يتضح له ما يلي:

أولاً: أن أصله عقيدة وثنية عند الرومان، يعبر عنها بالحب الإلهي للوثن الذي عبده من دون الله تعالى. فمن احتفل به فهو يحتفل بمناسبة شركية تعظم فيها الأوثان.

ثانياً: أن نشأة هذا العيد عند الرومان، مرتبطة بأساطير وخرافات لا يقبلها العقل السوي، فضلاً عن عقل مسلم يؤمن بالله تعالى وبرسله عليهم السلام. فهل يقبل العقل السوي أن ذئبة أرضعت مؤسس مدينة روما

وأمدته بالقوة ورجاحة الفكر، على ما في هذه الأسطورة مما يخالف عقيدة المسلم لأن الذي يمد بالقوة ورجاحة الفكر هو الخالق سبحانه وتعالى.

ثالثاً: أن من الشعائر البشعة لهذا العيد عند الرومان، ذبح كلب وعزة ودهن شابين بدم الكلب والعزة ثم غسل الدم باللبن... الخ، فهذا مما تنفر منه الفطر السوية ولا تقبله العقول الصحيحة.

رابعاً: أن هذا العيد تم إبطاله من قبل رجال الدين النصراني في إيطاليا، معقل الكاثوليك، لما فيه من إشاعة الأخلاق السيئة والتأثير على عقول الشباب والشابات، فكان الأولى بالمسلمين أن ينبذوه ويحذروا منه ويقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاهه.

وقد يقول قائل: لماذا لا نحتفل نحن المسلمين بهذا العيد ؟

وللإجابة على ذلك أوجه عدة منها:

الوجه الأول: أن الأعياد في الإسلام محددة وثابتة لا تقبل الزيادة ولا النقصان، وهي كذلك من صلب عبادتنا يعني ذلك أنها توقيفية، شرعها لنا الله ورسوله ﷺ وبما أن عيد الحب يرجع إلى العهد الروماني، وليس الإسلامي فإن هذا يعني أنه من خصوصيات النصارى وليس للإسلام والمسلمين فيه حظ ولا نصيب، فإذا كان للنصارى عيد ولليهود عيد، كانوا مختصين به فلا يشاركونهم فيه مسلم، كما لا يشاركونهم في شرعتهم ولا قبلتهم.

الوجه الثاني: أن الاحتفال بعيد الحب فيه تشبه بالرومان الوثنيين، ثم بالنصارى الكتائبيين فيما قلدوا فيه الرومان، وليس هو من دينهم. وإذا كان يمنع من التشبه بالنصارى فيما هو من دينهم حقيقة - إذا لم يكن من ديننا - فكيف بما أحدثوه في دينهم، وقلدوا فيه عباد الأوثان!!

وعموم التشبه بالكفار - وثنيين أو كتائبيين - محرم، سواء كان التشبه في عباداتهم - وهي الأخطر - أو في عاداتهم وسلوكياتهم، دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع. والتقليد يحدث خللاً في شخصية المسلم، من الشعور بالنقص والصغار، والضعف والانهمامية، ثم البعد والعزوف عن منهج الله وشرعه، فقد أثبتت التجربة أن الإعجاب بالكفار وتقليدهم سبب لحبهم، والثقة المطلقة بهم والولاء لهم، والتكبر للإسلام ورجاله، وأبطاله، وتراثه وقيمه والجهل به.

الوجه الثالث: أن المقصود من عيد الحب في هذا الزمن إشاعة اخبة بين الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ولا شك في حرمة محبة الكفار ومودتهم.

الوجه الرابع: أن المحبة المقصودة في هذا العيد منذ أن أحياه النصارى، هي محبة العشق والغرام خارج إطار الزوجية، ونتيجة ذلك: انتشار الزنى والفواحش، ولذلك حاربه رجال الدين النصراني في وقت من الأوقات وأبطلوه ثم أعيد مرة أخرى. وأكثر الشباب يحتفلون به لما فيه من تحقيق لشهواتهم، دون النظر إلى ما فيه من تقليد ومشاهدة، وحقيقة بهذا البلاء، يتوصلون إلى الكبائر من زنا ونحوه عن طريق مشاهدة

النصارى فيما هو من عباداتهم والذي يخشى أن يكون كفراً. (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ^(١) قال السعدي في تفسيره: ({ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ } أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة { فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي: موجه للقلب والبدن، وذلك لعشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراسته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟" وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة. وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلون. { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } قد أحاط بكم من كل جانب { وَرَحْمَتُهُ } عليكم { وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه) ^(٢).

وهل يعني هذا حرماننا من الحب، والتعبير عن مشاعرنا وعواطفنا، فما الخذور في ذلك؟ والقول هنا لأهل العلم ومما أوضحوا من أمور تجلي الحقيقة الشرعية لعيد حب: أولاً: من الخطأ الخلط بين ظاهر مسمى اليوم وحقيقة ما يريدون من ورائه، فالحب المقصود في هذا اليوم هو العشق والهيام واتخاذ الأخدان والخلان والخليلات، والمعروف عنه أنه يوم الإباحية والجنس عندهم بلا قيود أو حدود، وهؤلاء لا يتحدثون عن الحب الطاهر بين الرجل وزوجته والمرأة وزوجها. أو الحب الإيماني.

ثانياً: لا يوجد دين يبحث أبناءه على التحابب والمودة والتآلف كدين الإسلام، وهذا في كل وقت وحين لا في يوم بعينه بل حث على إظهار العاطفة والحب في كل وقت. ثالثاً: إن الحب في الإسلام أعم وأشمل وأسمى، من قصره على صورة واحدة، وهي الحب بين الرجل والمرأة، بل هناك مجالات أشمل وأرحب وأسمى، فهناك حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وحب أهل الخير والصالح وحب الدين ونصرتة، وحب الشهادة في سبيل الله، وهناك محاب كثيرة، فمن الخطأ والخطر إذن قصر هذا المعنى الواسع على هذا النوع من الحب.

(١) سورة النور: ١٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١٤٢٠هـ، ج ١، ص: ٥٦٣.

والحقيقة أن الدعوة إلى عيد الحب، دعوة لمزيد من الانحلال والفجور، وإقامة العلاقات المحرمة. وإن الزوج الصادق في محبة زوجته، لا يحتاج لتذكيره بالمحبة في هذا العيد، فهو يعبر عن حبه لزوجته في كل وقت وحين. وموقف المسلم من عيد الحب يتضح فيه صدق إيمانه، وحسن إسلامه، فيبادر إلى عدم الاحتفال به، أو مشاركة المحتفلين به في احتفالهم، أو الحضور معهم لما سبق من البيان على تحريم الاحتفال بأعياد الكفار. وعدم إعانة الكفار على احتفالهم؛ لأنه شعيرة من شعائر الكفر، فأعانتهم وإقرارهم عليه، إعانة على ظهور الكفر وعلوه وإقرار به. والمسلم يمنعه دينه من إقرار الكفر والإعانة على ظهوره وعلوه. وعدم إعانة من احتفل به من المسلمين، بل الواجب الإنكار عليهم، لأن احتفال المسلمين بأعياد الكفار منكر يجب إنكاره. والواجب توضيح حقيقة هذا العيد وأمثاله من أعياد الكفار لمن اغتر بها من المسلمين، وبيان ضرورة تميز المسلم بدينه والحفاظة على عقيدته مما يخل بها، نصحا للأمة وأداءً لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فمن فتاوى علماء المسلمين حول عيد الحب: فتوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين^(١) - يرحمه الله -:

السؤال: فقد انتشر في الآونة الأخيرة الاحتفال بعيد الحب - خاصة بين الطالبات - وهو عيد من أعياد النصارى، ويكون الزي (الملبس) كاملاً باللون الأحمر والحناء، ويتبادلن الزهور الحمراء.. نأمل من فضيلتكم بيان حكم الاحتفال بمثل هذا العيد، وما توجيهكم للمسلمين في مثل هذه الأمور والله يحفظكم ويرعاكم؟

فأجاب يرحمه الله: الاحتفال بعيد الحب لا يجوز لوجوه:

الأول: إنه عيد بدعي لا أساس له في الشريعة.

الثاني: أنه يدعو إلى اشتغال القلب بمثل هذه الأمور التافهة، المخالفة لهدي السلف الصالح - رضي الله عنهم - فلا يحل أن يحدث في هذا اليوم شيء من شعائر العيد، سواء في المآكل أو المشارب أو الملابس، أو التهادي أو غير ذلك، وعلى المسلم أن يكون عزيزاً بدينه، وأن لا يكون إمعة يتبع كل ناعق. أسأل الله أن يعيد المسلمين من كل الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يتولانا بتوليه وتوفيقه. والله أعلم.

كما سئلت اللجنة الدائمة سؤالاً حول هذا العيد هذا نصه:

يحتفل بعض الناس في اليوم الرابع عشر من شهر فبراير (٢/١٤) من كل سنة ميلادية بيوم الحب (فالنتين داي)، ويتهادون الورود الحمراء ويلبسون اللون الأحمر، ويهتنون بعضهم وتقوم بعض محلات الحلويات بصنع حلويات باللون الأحمر، ويرسم عليها قلوب، وتعمل بعض المحلات إعلانات على بضائعها التي تخص هذا اليوم فما هو رأيكم؟

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الرياض: دار الوطن، ١٤١٣ هـ، ج ١٦، ص: ١٩٩.

فأجابت اللجنة^(١): يحرم على المسلم الإعانة على هذا العيد، أو غيره من الأعياد المحرمة، بأي شيء من أكلٍ أو شرب أو بيع أو شراء، أو صناعة أو هدية أو مراسلة أو إعلان، أو غير ذلك؛ لأن ذلك كله من التعاون على الإثم والعدوان، ومعصية الله والرسول، والله جل وعلا يقول: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) ويجب على المسلم الاعتصام بالكتاب والسنة في جميع أحواله، لاسيما في أوقات الفتن وكثرة الفساد، وعليه أن يكون فطناً حذراً من الوقوع في ضلالات المغضوب عليهم، والضالين والفاسقين الذين لا يرجون الله وقاراً، ولا يرفعون بالإسلام رأساً، وعلى المسلم أن يلجأ إلى الله تعالى بطلب هدايته والثبات عليها، فإنه لا هادي إلا الله، ولا مثبت إلا هو سبحانه وبالله التوفيق. وصل الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

٩) حب الباطل على الحق:

يجتمع أهل الباطل في صلات ذميمة لتحقيق أهدافهم السيئة، متخذين وسائل القربى من الهدايا وغيرها معونة على الباطل، لأن قلوبهم اجتمعت على حب الضلال والإضلال، وكرهت الحق وصدت عنه، بل إن الإصرار على الباطل يدفعهم إلى الهجرة عن بلادهم، إلى البلاد البعيدة من أجل البقاء على ما أحبوا من الباطل، ولكن القلوب المظلمة إذا شاء الله أن يدخلها في النور دخلت، فإنه هو الهادي إلى سواء السبيل، نستنبط هذا من موقف عمرو بن العاص من دعوة الرسول ﷺ، قبل أن يدخل في الإسلام، عن عمرو بن العاص قال: «لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً كبيراً منكراً، وأني قد رأيت رأياً، فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فأنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف فلن يأتينا منهم إلا خير، فقالوا: إن هذا الرأي، قال: فقلت لهم: فاجمعوا له ما تهدي له، وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذا جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك قد أهديت لك أدماً كثيراً قال: ثم قدمته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: يا أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيهِ لأقتله؟ فإنه قد

(١) فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في السعودية رقم «٢١٢٠٣» وتاريخ ١١/٢٣/١٤٢٠هـ.

أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب ثم مدّ يده فضرب لها أنفه ضربة ظننت أن قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، فقال له: أسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟! قال: قلت: أيها الملك أكذاك هو؟ فقال: ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه، فإنه والله لعلّى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: فبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبي أذهب والله أسلم، فحتى متى؟! قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم، قال: فقدمنا على رسول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أذكر وما تأخر؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ياعمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها، قال: فبايعته ثم انصرفت». قال ابن إسحاق^(١): وقد حدثني من لا أقم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما أسلم حين أسلما^(٢). ومن دروس هذا الموقف نصرة الله لدينه من معجزات هذا الدين فقد نصره بالمسلمين وغير أهل الملة، حيث يستقبل النجاشي ملك الحبشة - وهو نصراني - المهاجرين من المسلمين الذين فروا بدينهم من عذاب وشدة المشركين ويدخلهم في أرضه ويجعلهم تحت حمايته كجعفر بن أبي طالب ومن معه، وعندما يسمع منهم سورة مريم يؤمن بدين الإسلام والوحي والرسالة وهو على بعد من الرسول ﷺ مكانا وقرابة، وكذلك يستقبل المهاجرين من المشركين الذين فروا عن الهدى، محبة للباطل ويقف داعياً إلى الله - يدعوهم إلى الإسلام - وهم أقرب للرسول ﷺ مكاناً ونسباً، قال النجاشي: (ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه، فإنه والله لعلّى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: فبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده وبايعته على الإسلام) وهذا رسول الهدى ﷺ يفتح باب الأمل أمام عمرٍ وكل من أسلم بأن الإسلام يَجِبُ ما قبله لتبقى الصلوات الحميدة فوق الصلوات الذميمة. وكذلك يضع ميزانا للعلاقات أن الصدق فيها يكون مع الحق، وإن الشرك حجاباً للحب، وإن كان الحب من طرف واحد - من مشرك لمسلم - يجب على المسلم أن يقف في حدود العلاقات العامة مع غير المسلمين، حتى يجتمع الحب مع الحق فتكون الصلوات الحميدة، وإلا لأدخله ذلك في الصفات الذميمة لأن الحب يورث حبا وبه قد ينصرف المسلم عن الإسلام، وقد أعطى النبي ﷺ لأمتة درساً في تكوين العلاقة مع غير المسلم ويتبين ذلك من رفض النبي ﷺ للهدية من حكيم بن حزام عندما كان مشركاً، عن عراك بن

(١) محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المظلي، أحد رجال السند في رواية هذا الحديث.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند الشاميين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٧٧٧٧ (٣١٢/٢٩) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند:

إسناده حسن في المتابعات والشواهد.

مالك أن حكيم بن حزام قال: كان محمد ﷺ أحب رجل في الناس إليّ في الجاهلية فلما تنبأ وخرج إلى المدينة شهد حكيم بن حزام الموسم وهو كافر، فوجد حلة لذي يزن تباع فاشترها بخمسين ديناراً ليهدئها لرسول الله ﷺ، فقدم بها عليه المدينة فأرادته على قبضها هدية فأبى قال عبيد الله: حسبت أنه قال: «إنا لا نَقْبَلُ شَيْئاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَخَذْنَاهَا بِالْثَمَنِ» فأعطيته حين أبى عليّ الهدية.^(١)

إن تكوي العلاقة بين المسلم والكافر، تحكمها نصوص الشرع وأحكام الدين، وليست هي مطلقة الحكم، بل هي مقيدة: عقيدة بالولاء والبراء، وأشخاصاً بالزمان والمكان، ومعاملة بالأخذ والعطاء والبيع والشراء. والقاسم المشترك بين التنوع في الحكم، أن نعلم أن الإسلام دين عزة وقوة، ودين رحمة وهداية، ينظر إلى الإنسان باعتبار الأصل والخلقة فيراعي حق الإنسانية، ويحرص على هدايته إلى دين الله الحق، وينظر إلى الإنسان باعتبار العدل والحقوق والعيش السلمي، وحرية الديانة، بموجب الأحكام التي يعز بها الإسلام، وتقدر شعائره؛ لذا وجب على كل مسلم ألا يكون علاقة مع كافر إلا في الحدود الشرعية التي تتحقق بها مصالح الإسلام والمسلمين. وحذر الله من مكر الكافرين، وأن باب المحبة، يدخل منه إلى علاقات أعمق تضر بالمسلمين، فيجب الحد من العلاقات، إلا أن تكون تحت شعار ودثار الإسلام، مع بيان الغاية الحمودة شرعاً وعقلاً، قال الله تعالى: (هَتَأْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ لَمْ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّوكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفُّوا أَمَامَنَا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٢).

(١) انظر: مسند الإمام أحمد - مسند المكيين رضي الله عنهم، حديث رقم: ١٥٣٢ (٣٩ / ٢٤) تعليق شعيب الأرناؤوط على المسند: إسناده صحيح. وقال الحاكم: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي.

(٢) سورة آل عمران: ١١٩.